

## المراثى والدراسات

- |      |                              |  |
|------|------------------------------|--|
| ١٢٦٥ | بقلم أحمد محرم               | حافظ ابراهيم في الميزان                  |
| ١٢٩٨ | نظم خليل مطران               | مرثية مطران لحافظ                        |
| ١٣٠٦ | بقلم أحمد الشايب             | حافظ في رأى مطران                        |
| ١٣١١ | » عبد العزيز البشري          | حافظ ابراهيم — ناحية<br>من أثره في الأدب |
| ١٣١٥ | » حسن الخطيم                 | حافظ ابراهيم بين ظرفه ومجونه             |
| ١٣١٩ | » الدكتور زكي مبارك          | حافظ واللغة الفصيحة                      |
| ١٣٢٢ | » عبد الوهاب النجار          | صفحة مبهولة من حياة حافظ                 |
| ١٣٢٥ |                              | مبال من خط حافظ                          |
| ١٣٢٧ | » ابراهيم عبد القادر المازني | حافظ لسان عصره                           |
| ١٣٢٨ | نظم مختار الوكيل             | موكب الذكريات                            |
| ١٣٣٥ | بقلم داوود بركات             | حافظ كما عرفته                           |
| ١٣٣٩ | » ابراهيم دسوقي أباطة        | » » »                                    |
| ١٣٤٦ | بقلم نظمي خليل               | حافظ الرجل وحافظ الشاعر                  |
| ١٣٥٢ | » المهدي مصطفى               | حافظ فنان كما يجب                        |
| ١٣٥٥ |                              | مختارات من شعر حافظ                      |
| ١٣٦٢ | » أحمد أنور الجندي           | ناحية في حافظ                            |
| ١٣٦٤ | نظم حامر محمد بحيري          | مضى العام والذكرى . . .                  |
| ١٣٦٦ | بقلم طاهر محمد أبو فاشا      | حافظ في كفتي البؤس والمجاعة              |
| ١٣٧٠ | » محمد سعيد السحراوي         | بداهة حافظ                               |
| ١٣٧٢ | نظم مؤيد ابراهيم إيراني      | حافظ الخالد                              |
| ١٣٧٣ | » المهدي مصطفى               | في سماء الفن                             |
| ١٣٧٣ | بقلم ميشيل سليم كمد          | تشكرك سورية يا حافظ !                    |
| ١٣٧٧ | » بشري السيد أمين            | المدح والشكوى والثناء<br>في شعر حافظ     |
| ١٣٨٢ | » أحمد محمد عيش              | سيرة حافظ                                |
| ١٣٩٤ | » طلبة محمد عبده             | الشاعر البائس                            |
| ١٤٢٤ | » الآنسة زينب سليم           | المرأة في شعر حافظ                       |



المجلد  
الأول

العدد  
الحادي عشر

هَيْتُون

جَبَلَةُ فِي سَنَةِ الْإِسْلَامِ الْخَامَةِ

لسان حال جمعية ابولو

١٩٣٢

عدد خاص

بذكرى المغفور له

محمد حافظ إبراهيم بك

♦♦♦♦

١٨٧١ — ١٩٣٢ م

مطبعة التعاون





شاعر الوطنية المصرية

محمد حافظ إبراهيم بك

( من ريشة الفنان المصرى محمد محسن بدوى )



في الحادى والعشرين من يولية سنة ١٩٣٢ م . ودّع شاعرُ مصر الكبير محمد حافظ ابراهيم أنفاسَ الحياة الدنيا فذهب بذهابه أعلى صوتٍ وطنى عرفته مصر من فوق منبر الشعر .

وقد أصدرت زميلتنا (السياسة) في ٢ سبتمبر من العام الماضى عدداً خاصاً به كما عُنيَت الصحفُ والمجلاتُ والجمعياتُ الأدبيةُ في العالم العربى بدراسته وتأنيينه أسابيع متوالية ، الى أن فُجِعَ العالم العربى بنعى شاعر العربية الأشهر أحمد شوقى بك في الرابع عشر من سبتمبر الماضى فباتت فجعةُ العربية مزدوجةً بوفاة علمين من أشهر أعلام الشعر العربى في عصره الحديث ، واهتمت الصحافةُ العربيةُ بأداء واجبها الادبى نحو ذكرهما . وقد أصدرت هذه المجلةُ عددها الخاص بذكرى شوقى في ديسمبر الفائت ورأت من أقدس الواجبات عليها إصدار هذا العدد الخاص بذكرى حافظ لمروور سنة على وفاته .

ونحن لا نحبُّ التكرارَ كما لا نُعْنى بما عُنِيَ غيرنا بتناوله من الدراسات السابقة فجعلنا كلَّ بُحوث هذا العدد جديدة خاصةً بهذه المجلة ، وبذلنا جهدنا فى الاختيار وتخلّينا عن مألوف الرثاء شعراً ونثراً قانعين بالجديد المقيم أو بالنقد الجدى الممتع . وكيفما كان الحكمُ الفنّى على شعر حافظ فلا يمكن لأية جمعية شعرية تحترم نفسها إلا أن تحفل بذكره — ذلك لأن حافظ يمثل حلقةً قويةً من حلقات الاتصال والتقدم فى تاريخ الشعر المصرى بل فى تاريخ الشعر العربى ، كما أنه كان اللسان الفصيح لآمال مصر وآلامها فى زمن نفشى فيه العى والجبن بل البكم بين الشعراء ، وحسبك من شاعرٍ أن يكون لسان أمتة المبين فى مثل تلك الظروف ، وليس من الانصاف أن تكفى بوزن شاعر وزناً مطلقاً ولا تزنه وزناً نسبياً . ليس من الانصاف مثلاً أن تنسى ظهور البارودى فى زمن نفشت فيه الأمية والروحُ العاميةُ والضعفُ اللغوى ، وضاعت ملكة البيان الشعرى ، فظهر ذلك



الشاعر المتفوق التقليدي ليعيد للأدب الشعري مجده القديم وليتلمذ عليه حافظ وأنداده . وإذا كنا نحن الشعراء المحدثين لا يرضينا روح التقليد المضيق للشخصية الفنية ، فهيئات أن ننسى فضل أعلام المحافظين أمثال البارودي وشوقي وحافظ في استرجاع الثقة الأدبية لاستئناف سير القافلة بعد وقوفها . على هذا الأساس تكبر مجهودات الاعلام السابقين من شعرائنا وإن أصبحت في ذمة التاريخ وما لها في الغالب أن لا تكون لها أكثر من صفة أكاديمية لا أثر من الآثار الأدبية التاريخية . كل حافظ فليسوفاً اجتماعياً وسياسياً بسليقته ، وكان خبيراً بالرجال بعيد النظر ، ولذلك كان موفقاً في أكثر من موقف كشاعر زعيم ، ولكن الطبيعة هيأته ليكون في الأكثر ترجيحاً لأتمته ، وقد أحسن التعبير عنها أيماً احساناً ، وكان جريئاً كل الجراءة في تعبيره كلما أتيح له ذلك . وبعد هذا كان حافظ شاعر العروبة ، وكان لا يخلصه أثر بعيد في احياء روح التأخي والتعاون بين أبنائها ، وعلى الأخص بين المصريين والسوريين .

وقد عيب على معظم الشعراء أنهم ينزعون إلى القديم وينظرون دائماً إلى الخلف ، ولكن حافظ برغم المحافظة التي قيد نفسه بها مضطراً ومختاراً كان في طبيعة من ندّدوا بذلك وهو القائل مخاطباً « الشعر » :

ضمت بين الشهي وبين الخيال      يا حكيم النفوس يا ابن المَعَالِ  
ضمت في الشرق بين قوم هُجود      لم يُفبقوا وأمة مكسال  
قد أذالك بين أنس وكأس      وغرام بظبية أو غزال  
عشت ما بينهم مذلاً مضاعاً      وكذا كنت في العصور الخوالى  
آن يا شعر أن تفك قيوداً      قيّدتنا بها دعاة المُحَالِ  
فارفعوا هذه السكائم عنا      ودعونا نشمّ ریح الشمال  
والقائل أيضاً :

ملأنا طباق الأرض وجداً ولوعة      بهند ودعد والرباب وبوزع  
وملت بنات الشعر منّا موافقاً      بسقطر اللوى والرقتين ولعلع  
تغيرت الدنيا وقد كان أهلها      يرون متون العيس ألين مضجع

وكان يريدُ العلمَ عيراً وأينقاً متى يعبها الایجابُ في البید تظلم  
فأصبح لا يرضى البخارَ مطيئةً ولا السلكَ في تياره المتدفع  
ونحن كما غنى الأوائلُ لم نزلْ نفنى بأرماعٍ وبيضٍ وأدرع  
عرفنا مدى الشئ القديم فهل مدى لشيءٍ جديدٍ حاضرٍ النفعِ ممتعٍ ؟  
وشعره مرآةٌ صادقةٌ لمجتمعه، ونهزةٌ تحفزهم الى الأمام، ونورٌ وجهه الى  
طريق المستقبل المأمون :

قصائدهُ هي للآدابِ مفخرةٌ سارت مسير الهدى في كل مضطرب  
وما يزال دوىٌّ من وقائعها في مسمع الدهر للجلال والرهب  
في كل بيت شواظ النارِ مُزججةٌ للغاصين وهزات القنا السلب  
وكل غضبةٍ صدق منه بالغه فصل الخطاب وآيات من الخطب  
مردداتٍ بإيمانٍ كأن بها مجامع الوحي عن ماضٍ من الحقب  
وقد كان حافظ في كل شعره يعمل للتقدم ، فكان له أثره في النهضة الحاضرة  
وحتى في أمداحه « للدولة العلية » لم يكن مدفوعاً الى ذلك بحب الاستبداد وهو  
الذي كرهه منذ نشأته ، ولا بحب الرفد والجاه فقد سُدت الأبوابُ في وجهه ،  
ولا بمراعاة الاعتبار الرسمية إذ لم يكن بالموظف حينذاك ولم يكن له شأن بالقصر ،  
ولكنه كان مدفوعاً بروح السامى الذى يرى نفع أمته مرتبطاً بعظمة تركيا  
الاسلامية ، وكذلك كانت وجهة نظر المغفور له مصطفى كامل وسواه من الساسة  
المصريين في ذلك العهد الى أن ظهر أحمد لطفى السيد بك وحزب الأمة بالسياسة  
المصرية البحتة . فلئن جرى حافظ بيئته فما كان ذلك الا في الاحساس العام ولم  
تكن مجازاة الضرير ، ولئن جرى المتقدمين أحايين في أساليبه فذلك من تأثير  
محفوظه الكثير ومن تأثير تعاليم أستاذه البارودى الذى أراد أولاً أن يستعيد  
أزهى عصور الشعر العربى .

ومما عيب على معظم شعراء العربية حتى المعاصرين منهم عنايتهم بالموسيقى  
اللفظية لا أكثر ولا أقل ، ولكن حافظاً ضمن شعره الكثير من علل المجتمع  
ومارآه من العلاج لها بروح المرشد الأمين حتى لُقّب بالشاعر الاجتماعى ، فلا  
نكون منصفين إذا اعتبرنا ذلك النقد في غير تحديدٍ منطبقاً عليه . وإذا طبقناه

عليه قائما ذلك لان حافظا كانت له طبيعة شعرية عرفها جلساؤه في مرتجلاته البديعة ولكنه أفسدها بمطاوعته المتجذلين وبحرصه على ارضاء القضاة من الأزهريين وغير الأزهريين (على نحو ما فعل المرحوم شوقي بك في أحيان) فكانت النتيجة أنه صار غالباً الشاعر النحات المتمسك بدل أن يكون الشاعر الحر المطبوع ، وحبس في نفسه أو ضاع في مجالسه وفي مبادله خير شعره العاطفي الوجداني لأن التقاليد كما قدمنا كانت تأبى عليه تدوين الشعر المرتجل المطبوع ، وطالب الشهرة مضطر عادة إلى مراعاة التقاليد ، وما كان لحافظ كما لم يكن لشوقي إغفال هذا الاعتبار .

ومعرفتنا بحافظ أكثر من ربع قرن أفنعتنا بصحة فطرته الشاعرة التي زكت في بيئة الامام محمد عبيد بقدر ما أصبحت أسيرة لتقاليد الصناعة واللغة . فكان حافظ إذا أفلت من ذلك الأسرى لجيء لنا مرة بالمناز المعجب ، وأخرى بالبتذل الذي لا يعلو فوق مستوى مقالة صحفية منظومة ، وما ذلك إلا لأنه تارة يعبر عن نفسه أصدق تعبير أو يدفع دفعا بأحاساس أمته إلى ذلك من حيث يدرى أو لا يدرى ، ومرة أخرى يشعر بمنزلته من الشعب فينظم بعقله الواعي وحده لارضاء الجمهور فيبتعد بذلك عن الشعر الفني ولا ينصف سمعته الأدبية .

لم يكن حافظ إذن بالرجل الرجى وإن كان محافظاً في حدوده ، ولئن كان ممن نظروا إلى الشعر كلون من ألوان الغناء ومن آثروا اللفظ على المعنى متناسياً أن الشعر روح وتصفوه أى اندماج كوني في الجمال والحياة قبل كل اعتبار آخر ، فقد جاء شعره صوتاً للنهضة الوطنية وأحياناً دليلاً لها ، فلا يصح إذن أن يقال عن شعر حافظ إنه صيغة أخرى من السجع ومن فنون الترف والترهل الذهني ، وإن المقصود إليه من شعره مجرد الايقاع والهلو اللفظي الذي يخرج من دائرة الشعر الرفيع إلى دائرة الموسيقى المألوفة كما هو نظم الكثيرين . لقد جمع حافظ بين المتناقضات فرضخ للبيئة اللغوية المحافظة التي اتصل بها في كثير وثار عليها أحياناً ، فكان يذهب من النقيض إلى النقيض ، ولو أنه اكتفى بالتضلع اللغوي ثم أطلق نفسه على سجيته لجاءت حرية تعبيره منسجمة منظمة لا اضطراب فيها ولا تبدل ، وهو الاضطراب والتبدل اللذان يتعرّض لهما السجين الذي يظفر بحريته ثائراً بعد حبس طويل ولكن ليعود إلى ذلك الحبس ثانية ، فهي حرية غير مأمونة وتكيفها وتناجها على مثالها .

إن حافظاً شاعر حاضر البديهة سريع التأثر (impressionist) ولكنه أفسد

طبيعته بالصناعة بدل إطلاقها على سجيته ، وفلول المدرسة القديمة التي أساءت اليه وإلى الشعر العربي بتوجيهه الى ناحية النظم الذي لا ينسجم وطبيعته ما تزال تحاول الضغط على المدرسة الحديثة لتنهج ذلك النهج العقيم في حين أن لكل شاعر فطرته وطريقته التي لن يجنى خيراً ما بتجاهلها ومعارضتها . ونحن لا ندري ما ذا استفاد الشعرُ العصريُّ من اقلال حافظ الصناعي وهو المكثّر بطبيعته ، أو من مقاومة فطرته السمحة السهلة . وبقيننا أنه لو لا ذلك لكان انتاج حافظ لا يقل عن انتاج شوقي ، ولكان شعره مطبوعاً بطابع مصرى جميل ، ولجاء جامعاً للكثير من صور الحياة المصرية عاطفةً ووصفاً ، تاريخياً ووعظاً ، وتنوعت مظاهره ، وربما كان قد اكتسح المسرح المصرى أيضاً .

ولا يسع المؤرخ الأدبى الذى يترجم لحافظ أن يغفل المنافسة الشاذة التي كانت بين حافظ وشوقي ، ثم سرت عدواها إلى شعراء آخرين ، ثم تشكلت بصورة حرب بين المحافظين والمجددين من الشعراء . ولم يكن مبعث كل ذلك سوى التهافت على اكتساب الجمهور في حين أن الجمهور لا يعُدُّ الموج الصاعد الهابط الذى لا يستقر ولا يؤمن جانبه على حدّ تعبير أستاذنا مطران ، وقد كانت لمطران مواقف عديدة محدودة للتوفيق ما بين المرحومين شوقي وحافظ . فالتهافت على نيل رضا الجمهور أو النزول بالشعر إلى مستوى الجمهور كان ضرراً بليغاً للشعر ولأعلام الشعراء الراحلين أنفسهم : فقد أنقص منزلة الشعر الفنية ، ودعا الى حروب شخصية عجيبة ، كما خلق جوّاً مدهشاً من الغرور لا تزال نرى تأثيره في تهافت الشعراء والكتاب على ما كن الصدارة من هذه المجلة وغير هامة أن صفحاتها في منزلة واحدة ، ومن غرور المبتدئين الذين يتعالمون غن كلمة تنقيح أو ارشاد أو تهذيب من أساتذتهم الشيوخ ويتهافتون على ألقاب المديح السخيف . وهذه روح مريضة قلو مناهها كل المقاومة وإن رضخت لها بعض المجالات الادبية مضطرة لأسبابها الخاصة . نعم لا يجوز التغاضى عن هذه الحقيقة بل يجب أن يستفيد من دروسها المصلحون من أبناء هذا الجيل الذين يهيمهم التسامى بالشعر العربى وبمنزلة شعرائه .



وبعد ، فنحن نهدى الى روح حافظ الشاعرة الوطنية الحبيبة المبعجلة هذا العدد التذكارى من ( أبولو ) وسمته الصراحة التي تعشقها حافظ منا ومن سوانا طول

حياته. وقد وقع اختيارنا على صورة فنية للذكرى لم يسبق نشرها وهي للأديب الفنان المصرى الشهير شعبان زكى وهى تمثل دار الإمام الشيخ محمد عبده فى حالتها الراهنة — تلك الدار العزيزة التى قال عنها حافظ :

فيا منزلاً فى عين شمسٍ أطلّنى وأرغمَ حُسّادى وغمَّ عُداى

والتي كثيراً ما كانت موثله ومهبط وحيه . رأينا أن ننشرها فى هذا العدد التذكارى لأنها ألصق بحياة حافظ من كل ماعداها من المعالم المصرية ، ولأنها مظهر الذكرى الحزينة الذى لا يجب أن يخفى عن الشعب المصرى . وقد تأثر الرسّامُ الفنّان عظمير سقف الساقية المائل فتخيله كبيت العنكبوت المكبرّ رمزاً للاغفال ودليلاً على مبلغ اهمال الدولة والشعب لآثار العطاء ، وشاء الرسّامُ أن يصوّر الدار تحت تأثير غروب الشمس فى لحظة أبدت الفارق الشنيع بين حاضرٍ عافٍ وماضٍ كانت فيه الدارُ مَطْلَعَ الاشرار الثقافى والدينى فى مصر .

إن اسم حافظ لن يُنسى فى تاريخ الشعر العربى ، وأما الشعر العربى ذاته فلن يصدعه ممات حافظ ولا غير حافظ كما يؤمّ الشّداون ، فإنّ موتَ العظيم يُلهب تلاميذه وأنداده بالشعور بالمسؤولية والاندفاع الى الانجاب السامى . والواقع أنّ الشعر العربى بخطو الآت خطوات فسيحة نحو الكمال الفنّى المنشود ، وهو ما يعترف به كلّ ناقدٍ مطلعٍ يقارن بين الآثار الجديدة النابضة بالحياة فى الشعر العربى وبين الجديد من الشعر العالمى فى الاقطار الأخرى . وأمّا الذين لايزالون يبحثون فى القوافى والأوزان ، وفى تفضيل اللفظ على المعنى ، وفى أمثال هذا الهراء ، فمعدونون إذا توانوا عن الاطلاع على الأدبيات العالمية فلم ينصفوا مجهود مواطنيهم ، وهم على أىّ حال من رفقة الكسل الجميل والأحكام الطائشة . ولعلّ روح حافظ تغتبط فى عليائها بهذا التسامى الذى يتدرّج اليه الشعر العربى تدريجاً حثيثاً فتقبل من محبّيها هذا الحنان والولاء والاجلال الذى تنبضُ به الصفحات التالية من أقلام الشعراء والنقاد .



## حافظ إبراهيم

﴿ في الميزان ﴾

الصلة بين الفن والنفس

من القسوة الأدبية البالغة ، ومن الخطأ الفاضح في معرض التحليل والنقد ، أن تقصر عملنا على الأثر الفني للأديب أو الشاعر ، وأن نقطع أو نحاول قطع الصلة القائمة بين هذا الأثر وصاحبه ، ونحن نشعر في نفوسنا بقوة هذه الصلة ، ونعرف ما لها من نفوذ وسيطرة في حياتنا الأدبية التي نقول غير ملمين إنها واقعة بأسرها تحت هذه السيطرة وذلك النفوذ .

نحن نقول إن الشعر فيض النفس ، ووحى الوجدان ، فعلينا إذاً أن نضم إلى أدب الشاعر نفسه ووجدانه حين نريد أن نتعرف منزلته من الناحية الفنية ، وأن نضع له صورة صحيحة ، ومثلاً صادقاً .

للشاعر ككل فرد من الناس نفسه ووجدانه ، ومن الظلم أن ترى العاصفة تُلقي الحجارة على الينبوع المتدفق ثم تتهمة بالجود إذا احتبس ماؤه ، أو ترميه بالحق والصفاء إذا تدافعت قواه فكان منتهى ما يستطيعه أن يقذف ببعض هذا الماء من خلال الحجارة فيتطاير رشاشاً أهوج لا يأخذ نظاماً ، ولا يستقيم في مسيل .

ذلك مَثَلُ الشاعر المقتدر تكتنف نفسه أنواعُ الهموم وضروبُ الآلام فتعطل قواها المعنوية ، أو تُلقي الحجب والاستار على أشعتها فإما أن تحتبس هذه الأشعة احتباساً تاماً فيكون السكوت ، وإما أن يندفع منها قَبَسٌ ضعيف يترقق كالدمعة الحائرة في منافذ ملتوية ، ويذهب أعمى يتعسف ، فلا هو على هُدًى في ذاته ، ولا الناس يهتدون به .

وإنك لتتجنى وتذهب شططاً حين تنكر على المصباح أنه مخفق النور أو ضئيلة ، وتأبى إلا أن يكون كما تريد وتفترح إشراقاً وبهجة ، وأنت ترى زجاجة قائمة في غشاء من سواد .

## حافظ في نفسه وفنه

حافظ ابراهيم شاعر كامل العدة ، تامّ الاداة ، أخذ نفسه بأدب الفحول من مبرزى الشعراء ، وراضها عليه ، فلهحق بديوانهم ، وأخذ مكانه بين أعيانهم ، انه لكما أصفه لك ، ولكن لا تطمع أن يطربك وهو محزون ، ولا أن يرضيك وهو ساخط ، كلا - لا تطمع أن تتلقّى من فم حافظ تلك النغمات الشبيهة ، والتغاريد العذبة ، الا حين تصفو نفسه ، وينعم باله وخاطره ، هو شاعر كبير النفس ، طامح الهمّة ، يرى من حقّه أن يتخطى الناس والمراتب ، ويمشي على مناكب الايام وأعناق الحوادث ، إلى أن يقع في منزلته ، ويخلص الى مكانه .

تعب حافظ في هذا السبيل ، وتعبت معه أطعامه الثائرة ، فهو قد ظنّ أن له مكاناً في ظلال العرش المصري الذي اتجهت اليه آماله ، فهو يتحفز للوثوب ، فأخذ يضرب على قيثارته عسى أن يسمع صاحب العرش فيصغي اليه ، ويحب أن يراه ويصطنعه ، ولكن قيثارة أخرى يحملها شاعر القصر كانت تشغل سمع الامير وقلبه ، فلم يجد حافظ منفذاً لنفسه ، وعلم أن لا مكان له ولا لغيره في تلك الظلال ، واليك بعض ما توسل به الى هذا المطلب ، وأراقه من عصارة ذهنه في ذلك السبيل .

قال حافظ ابراهيم من قصيدة في عيد جلوس العباس عام ١٩٠١ :

ماذا ادّخرت لهذا العيد من أدب ؟      فقد عهدتك ربّ السبق والغلب  
هذا هو العيد قد لاحت مطالعه      وكلنا بين مشتاق ومرتب  
يا مَنْ تنافس في أوصافه كلّي      تنافس العرب الامجاد في النسب  
لم يُبق (أحمد) من قول أحاوله      في مدح ذاتك ، فاعذرنى ولا تعب  
مشيئة الله في العباس قد سبقت      الى الجدود ، ومن يأتي على العقب  
يا مَنْ توهّم أن الشعر أعذبه      في الذوق أكذبّه ، أزدبت بالأدب  
عذب القريض قريض بات يعصمه      ذكر (ابن توفيق) وعن لغو عن كذب  
ليس لنا أن نقول إن حافظاً أراد أن يخدع شوقي بتقريظه في هذه القطعة لينتفع به  
أولياً من كيده وهو يريد أن يخترق الطريق الى العرش ، فهو إنما جرى على طريقة ذوى النبل



والشرف من جمهرة الشعراء والادباء في التنويه بفضل الاكفاء والمتقدمين من اعلام الفن ، وجهاذة الصناعة ، وتلك سجية أعرفها في حافظ ، وأذكرها له من فضائله الماثورة ، ولك فيما يلي دليل واضح يرشدك إلى الحق ، ويدلك على الصواب .

قال من قصيدة أخرى في عيد الجلوس :

يا ليلةً ألهمتني ما أتيت به      على حجة القوافي ، أينما تاهوا  
أني أرى عجباً يدعو إلى عجب      الدهر أضمره ، والعيد أفشاء  
هل ذاك ما وعد الرحمن صفوته      روض ، وحر ، وولدان ، وأمواه ؟  
أم الحديقة ذات الوشي قد جليت      في منظر يستعيد الطرف مرآه  
أرى المصاييح فيها وهي مشرقة      كأنها النور والوسى حياه  
أو إنما هي ألفاظ مدبجة      وكل لفظ تجلّى فيه معناه  
أرى عليها قلوب القوم حائمة      كالطير لاح له ورّد فوافاه  
أرى أريكة عباس تحف بها      وقاية الله ، والاقبال ، والجاء  
قل للألى جعلوا للشعر جائزة      فيم الخلاف ؟ ألم يرشدكم الله ؟  
إني فنتحت لها صدرأ تليق به      إن لم تحلوه ، فالرحمن خلّاه  
لم أخش من أحد في الشعر يغلبني      إلاّ فستى ما له في السبق إلاه  
ذاك الذي حكمت فينا براعته      وأكرم الله والعباس منواه

الدليل على سماحة النفس وكرم السجية أكثر وضوحاً في هذه القطعة منه في القطعة الأولى ، حافظ يحكم لشوق على نفسه ، وهو مجال المباراة ، ومعرض المسابقة ، وليس هذا مما يسهل على كل نفس ، وله من قصيدة أخرى في عيد الفطر :

مطالع سعيد ، أم مطالع أقمار      تجلّت بهذا العيد ، أم تلك أشعاري ؟  
إلى سُدّق العباس وجهت مدحتي      بهنّة شوقية النسيج معطّار  
لك أن تقول بعد هذا ، إن حافظاً أحسن      أمراً غير رأيه في شاعر القصر ،  
وجعله يتحلل مما تقيّد به ، ولك فوق هذا أن      تضيف إلى همومه الكثيرة هماً  
جديداً ، أو أكثر من هم ، عداوة شاعر القصر ، ووعورة الطريق إلى العرش ،



وتسأولُ رجائه الذى كان يدفع به فى هذا السبيل ، وكلّ هذا مما تستفيده من قوله فى قصيدة أخرى :

مُطفً بالاربيكة ذات العزّ والشانِ  
يا عيدُ لبتَ الذى أولاك نعمته  
صُغتُ القريضَ ، فما غادرت لؤلؤة  
شكا مِعمانُ ، وضجّ الغائصون به  
كم رام شأوى ، فلم يدرك سوى صدَفٍ  
حابوا سَكوتي ، ولولاه لما نطقوا  
اليوم أنشدتم شعراً يعيد لهم  
أزفَ فيه إلى العباس غانيةً  
من الأوانس ، جلاّها براعُ فتى  
ما ضاق أصغره عن مدح سيّده  
ولا استهلّ بذكر الغيد مدحته  
واقض المناسك عن قاصٍ وعن دانٍ  
بقرب (صاحب مصر) كان أولانى  
فى تاج كسرى ، ولا فى عقد بُورانٍ  
على اللاكى ، وضجّ الحاسدُ الثانى  
ساحتُ فيه لنظامٍ ووزانٍ  
ولا جرت خيلهم شوطاً بميدانٍ  
عهدَ النواصي أو أيام حسانٍ  
غفيفة الخدر ، من آيات عدنانٍ  
صافى القريحة ، صاحٍ غيرُ نشوانٍ  
ولا استعان بمدح الراح والبانٍ  
فى موطن بجمال الملك ريانٍ

جملة شديدة ، وغارة شعواء على شاعر القصر ، ما كان لحافظ بعدها أن يطمع فى الاتصال بصاحب العرش ، وما له ولصاحب العرش ، وقد قذف بأماله من حائق ، وردّ عليه كلّ عروس من شعره فى زرى طالق ، بعد أن زفّها اليه تحمل كل ما جمع تاج كسرى وعقد بُوران من لآلىء غالية ، وبعد أن شكاه بحر مِعمان وغوّاصه لطول ما ارتكض فى نواحيه ، وتقلّب فى جوانبه ، يتصيد الدرر يهديها الى العباس فى شعره ويرصع بها تاجه ، فيزيد فى جلاله ويضاعف سنا ملكه ، واشراق عصره ؟ إنها لصدمة عنيفة لنفس حافظ ، ولأدبه وفنّه ، ولكن لا بد للنفس الكبيرة من أن تطلب حقها ، وتلتمس مكانها ، ولا بدّ للادب وفنّ الادب من نهضة بعد نهضة ، وانبعاثة بعد أخرى .

فوق عرش الامارة بمصر ، عرش الخلافة العظمى فى فروق ، ووراء هذا المجال الضيق الذى عثرت فيه آمال حافظ وهوت صريعة ، مجال أوسع يجدر به ان يتخذهُ لأدبه وفنّه . ولنفسه ومطامعه . وهكذا انصرف حافظ الى هذا المجال ، وأقبل على

أمير المؤمنين ، السلطان عبد الحميد ، يتغنى بمدحه ، ويذكر له والخلفاء  
من آل عثمان فضلهم العظيم في إقامة ذلك البناء الاسلامي الضخم الذي رفعوه على  
شفاير سيوفهم ، وتمهدوه بدماء أبطالهم ورجال دولتهم .  
قال شاعرنا الكبير من قصيدة في عيد تأسيس الدولة العلية :

مقد مكن الرحمن في الارض دولة عثمان ، لا تعفو ولا تتشعب  
بناها ، فظننتها الدراري منازل لبدر الدجى تبني ، وللسعد تنصب  
وقام رجال بالامامة بعده فزادوا على ذاك البناء وطنبوا  
وردوا على الاسلام عهد شبابيه ومدوا له جاهاً يهاب ويُرهب  
أسودته على البسفور تحمي عربنها وترعى نيام الشرق ، والغرب يرقب  
وقال من قصيدة أخرى في عيد الجلوس السلطاني :

لحت جلال العيد والقوم هيّب فعلمني آي العلي كيف تكتب  
تجلى على عرش الجلال ، وتاجه يهش ، وأعواد السرى ترحب  
وكم حاولوا في الارض إطفاء نوره واطفاء نور الشمس من ذاك أقرب  
ومنها في وصف الجيش العثماني :

يداني شغوص الموت حتى كأنما له بين أظفار المنية مطلب  
إذاثار في يوم الوغى ، مال منكب من الارض والاطواد ، وانهال منكب  
له من رهوس الشم في البر مركب ومن نائر الامواج في البحر مركب

لم ينل حافظ منالاً من جانب الخلافة ، فضاع شعره فيها كما ضاع من قبل في  
الامارة ، وقيل في بعض الانباء إن اليد التي أبعدته عن هذه لم تدعه ينعم بامله  
الجديد ، فسدت عليه السبيل بعد ان عمل بعض الاصدقاء والانصار لتمهيدته ، وبعد  
أن أوشك الشاعر العاثر الجد أن يظفر بحاجته ، ويقع على أمنيّة .

اشتدت الحركة الوطنية في مصر على يد الزعيم الوطني الاول ( مصطفى كامل )  
أوصار الشعر من عناصرها ، فغامر حافظ فيها يتوحد الى الشعب ويناصر زعماءه ،  
وفي روعه انه مفق من هذا الطريق الى ما يبتغيه من نباهة ذكر وسعة حال ،  
فنظم القصائد الحماسية الملتزمة ، وجال في ميدان الجهاد الوطني جولات واسعة

النطاق مترامية المدى ، وقد نجح من الناحية الأدبية نجاحاً كبيراً في هذا المسلك الذى لم يكن من المستطاع لشاعر القصر أن يزاحمه فيه ، أو يصرفه عنه ، ولم يقصر حافظ شعره في هذا الدور على السياسة وحدها ، ولكنه تَبَسَّطَ في أدبه فتناول الاخلاق والعادات ، وشؤون الحياة العامة وأحداثها في الامة ، فلقبوه بشاعر النيل وبالشاعر « الاجتماعى » .

وهذه أمثلة مما نظمه في هذه الوجوه والمناحي تحدثك أنه لم يُعَدَّ لصغائر الامور ، وأنه مسوق بفطرته وشعوره الى مواطن الجد في القول ، ومنازل العز والشرق في الادب ، فهو بهذا الوصف شاعر الامة والبلاد ، وشاعر الزمن والخلود .

لستُ في هذا بمتَّهم ، وما أدعى انه استطاع أن يعصم نفسه وأدبه عما لا ينبغى لمثله من زلة الرأى ، وتهافت المنطق ، فإنَّ له لقصيدتين من الشعر الشارد ، احدهما في رثاء الملكة فيكتوريا ، والثانية في تنويع ادوارد السابع وقد احترز في الاولى ولم يتحفظ في الثانية ، فقال :

لا تعجبَنَّ لملكٍ عزَّ جانبه      لولا التعاونُ لم تنظر له أثرا  
ماثلٌ ربُّك عرشاً بات بحرسه      عدلٌ ، ولا مدَّة في سلطانٍ من غدرا  
( ادوار ) دمت ، ودام الملك في رغدٍ      ودَّامَ جُنْدُكَ في الآفاق منتصرا  
هم يذكرونك إنَّ عدواً وعدولهم      ونحن نذكر إنَّ عدواً لنا (مُعمراً)  
كأنَّما أنتَ تجري في طريقته      عدلاً ، وحلماً ، وإيقاماً بمن أثرا

وان له لقصيدتين أخريين في وداع ( كرومر ) أخطأ فيها القصد ، والتوى به السبيل في أولهما التواء يسوء كل محب له ، ومطلع هذه القصيدة :

فتى الشعر ، هذا موطنُ الصدق والهدى      فلا تكذبِ التاريخ ، إن كنت منشداً  
ومنها :

سنطرى أياديك التي قد أفضتها      علينا ، فلسنا أمةً تجحد اليدا  
أمنّا ، فلم يسلك بنا الخوفُ مسلكاً      ونحن ، فلم يطرق لنا الذُّعرُ مرقداً  
وكنْتَ رحيماً القلبِ ، نحى ضعيفنا      وتدفع عنا حادثَ الدهرِ إنَّ عدا  
قال شاعرنا الكريم بعد هذا :

ولولا أسمى في دنشوائى ، ولوعة<sup>١</sup> وفاجعة<sup>٢</sup> أدمت<sup>٣</sup> قلوباً واكبدا<sup>٤</sup>  
 ورَمَيْكَ شعباً بالتعصب غافلاً<sup>٥</sup> وتصويرك الشرقى غراً<sup>٦</sup> مُجَرِّداً<sup>٧</sup>  
 لَذُبْنَا أسمى يومَ الوداعِ لِأَنَّا<sup>٨</sup> نرى فيكَ ذاك المصلح المتودِّدا<sup>٩</sup>  
 اللهم فاعفُ لحافظ ، أنها ليست من رأيه ، ولا من عقيدته .

### أُمثلة من شعره في السياسة وشؤون الحياة

قال من قصيدته ( ماذا أصبت من الاسفار والنصب ) :  
 متى أرى النيلَ لا تحلو مواردهُ<sup>١٠</sup> لغير مُمرتهبِ<sup>١١</sup> الله ، مُمرتهبٍ ؟  
 فقد غدت مصرُ في حالٍ إذا ذكرت<sup>١٢</sup> جادت جفونى لها بالثؤلؤ الرطبِ<sup>١٣</sup>  
 كأننى عند ذكرى ما أَلَمَ بها<sup>١٤</sup> قرمٌ<sup>١٥</sup> ترددَ بين الموت والحربِ<sup>١٦</sup>  
 إذا نطقتُ ففقاغُ السَّجَنِ مُتَكِنى<sup>١٧</sup> وان سكتُ ، فإنَّ النفسَ لم تطبِ<sup>١٨</sup>  
 أيشكى الفقرَ غادينَا ورائحنا<sup>١٩</sup> ونحن نمشى على أرضٍ من الذهبِ ؟  
 والقومُ في مصر كالإسفنج ، قد ظفرت<sup>٢٠</sup> بالماء ، لم يتركوا ضرعاً لمحتلبِ<sup>٢١</sup>  
 يا آلَ عثمانَ ، ما هذا الجفَاءُ لنا<sup>٢٢</sup> ونحن في الله اخوانٌ وفي الكتيرِ ؟  
 تركتمونا لا قوامَ<sup>٢٣</sup> مُتخالفنا<sup>٢٤</sup> في الدين والفضل والاخلاق والادبِ

آية بارعة من إنجيل الشعر السياسى أرسلها الشاعر الكبير تحت سماء مصر ،  
 باسم مصر ، وفي سبيل مصر ، يشكو فيها تألب الحوادث عليها ، وتشاغل الاعوان  
 والانصار عنها ، وهو حين يذكر السجن ويتخوَّف أن يُقذف به الى قاعه إن هو  
 كشف عن ذات نفسه كلَّ الكشف ، وقال كل ما يريد أن يقول ، انما يصف  
 لك خطبَ الحرية ومُصابها ، وشقاء النفس الشاعرة وعذابها ، وهذه صورة أخرى  
 من صور الحياة السياسية التى تصدَّى لوصفها ، وعمد الى تصويرها . ومن شعره في  
 هذا الباب قوله من قصيدة :

سَعَيْتُ الى أن كدتُ أنتعلُ الدِّمَا<sup>٢٥</sup> وَعَدْتُ وما عَقِبْتُ<sup>٢٦</sup> إلا التَّنَدُّمَا<sup>٢٧</sup>  
 لحا الله عهدَ القاسطين الذى به<sup>٢٨</sup> تهدمُ من بنياننا ما كهدما<sup>٢٩</sup>  
 إذا شئتَ أن تلقى السَّعادةَ بينهم<sup>٣٠</sup> فلا تكُ مصرياً ، ولا تكُ مُسلما<sup>٣١</sup>

وقوله في حادثة دنشواى من قصيدة طويلة :

أيها القائمون بالامر فينا هل نسيتم ولاءنا والودادا ؟  
 انما نحن والحمام سواء لم تغادر أطواقنا الاجيادا  
 احسنوا القتل ان ضننتم بعفوا أنفوساً أصبتم ، أم جادا ؟  
 ليت شعري أتلك محكمة الله تيش عادت أم عهد نيرون عادا ؟  
 وقوله من قصيدة أخرى في هذه الحادثة وجه الخطاب فيها الى ممثل الدولة  
 الانكليزية في مصر لدى عودته إليها :

ماذا أقول ، وانت أصدق ناقل  
 عنّا ، ولكنّ السياسة تكذب ؟  
 إن ضاق صدرُ النبل عما هاله  
 يومَ الحمام ، فإنّ صدرك أرحب  
 رفقا ( عميد الدولتين ) بأمة  
 ضاق الرجا بها ، وضاق المذهب  
 إن أزهقوا صيادكم ، فلعلم  
 للقوت ، لا للمسامين ، تعصّبوا  
 ولربما ضنّ الفقير بقوته  
 وسخا بمهجته على من يغضب  
 في ( دنشواى ) وانت عنّا غائب  
 لعب ( القضاء ) بنا ، وعزّ المهرب  
 نُكبو ، وأفقرت المنازل بعدهم  
 لو كنت حاضراً أمرهم ، لم يُنكبوا

لا تظن حافطاً يرسل هذا البيت وهو غافل عما ترى أنت فيه معنى التنزيه للممثل  
 الانكليزي ، والارتفاع به عن مواطن الظلم ، ومواضع الجور والفساد ، إنه ليعلم  
 أن كل ما حدث في دنشواى من كبار الحوادث وعظام الامور ، إنما كان بمشيئة  
 الممثل ورأيه ، وانما هو يغالط ويتهكم ، ونحن بمبيل الشعر السياسى ، وقد مضى  
 حكم شاعرنا الكبير على السياسة في قوله ( ولكنّ السياسة تكذب .. ) . قال  
 بعد هذا :

جُلدوا ، ولو منعتهم لتعلقوا بحال من شُنقوا ، ولم يتهبّوا  
 شُنقوا ، ولو مُنحوا الخيار لأهلوا بلطى سياط الجالدين ، ورجّوا  
 فاجعل شمالك رحمة ومودة ان القلوب مع المودة تُكسب  
 أنظر إلى هذا البيت ، ألا ترى فيه مصداق ما قلته لك عن غرض الشاعر ووجهته

إذ يقول ( لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا ) ؟ إنه ينصح للممثل الانكليزي أن يكون رحيماً ، ويوصيه أن يتودد الى هذه الأمة بكفّ الاذى ، وأخذها بسياسة أخرى غير سياسة العصا ، قال الشاعر يخاطبه :

وإذا سُئِلتَ عن الكِنانة ، قل لهم هي أُمَّةٌ تلهو ، وشعبٌ يَلعبُ  
وله من قصيدة يخاطب ( روزفلت ) حين قدم إلى مصر وألقى فيها خطبته السياسية الماثورة :

يا خطيبَ ( الدنيا الجديدة ) شَفِّ  
واخبر الناس كيف سُدَّتْ عَلَى النَّاسِ  
وملكتم أعنةَ الريحِ والماءِ  
قفْ وعدِّدْ ما نثر العلم ، واذكر  
وإذا ما ذكرتَ أنعمه الكبُ  
يا نصيرَ الضعيفِ ما لك تُطرى  
لم تُطيقوا جوارهم ، بل أقتم  
ليت شعري أكنت تدعو اليهم  
يوم كانوا قدّى بعين ( نُيُويُوزْ ... ك ) وداء مُستحكماً في الصدور  
يوم نادى ( واشنجتون ) قلباً  
ووثبتم إلى الحياةِ ووثباً  
يا نصيرَ الضّعيفِ حَبِّبْ اليهم  
هَجَرَ مصرَ تَفْزُ بأجرٍ كبير

لا نريد ان نستأثر بشعر حافظ فيما نكتب عنه ، فان لاصدقائه الكرام وصحابته الموفين من كتاب هذا العدد المختصر له حقّاً كبيراً فيه وفي شعره ، وحسبنا من شعره السياسي ما أثبتناه له ، فهو يُمثِّلُه لك شاعراً محباً لبلاده ، حفيّاً بأُمَّته ، يشكو ، فلا ترتاب في أنّ مصر هي الشاكية ، ويرجو فلا تأخذك شبهة في موضع هذا الرجاء من نفسها ، ومحله من فؤادها . ان في كلّ بيت من هذا المثال المقتضب لجُرْحاً دائماً من جراح مصر السياسية ، وصرخة عالية من صرخاتها العنيفة المتوالية ، وانك لترى بين هذين شيئاً آخر يندفع في روعة شديدة ، ويثور في

حرارة بالغة ، ذلك هو الأمل ، أمل مصر المعذبة ، أملها الحائر المضطرب تارة ،  
والحزين تارة أخرى . ومن شعر حافظ في شؤون الحياة المصرية قوله من قصيدة  
يدعم بها رأى ( قاسم أمين ) في الحجاب :

رجائي في قومي ضعيفٌ كأنه      جنانٌ وزيرٌ ، سودته مناصبه  
أقلمُ إنَّ القوم ماتت قلوبهم      ولم يفهموا في السفر ما أنت كاتبه  
وقوله من قصيدة في حريق ميت غمر :

أيها الرافلون في حلل الوش      يـجـرون للذبول افتخار  
إنَّ فوق العراء قوماً جيعاً      يتوارون ذلّةً وانكسار  
قد شهدنا بالامس في مصر عرساً      ملأ العين والفؤاد انبهار  
سأل فيه النَّصارُ حتى حسبنا      أن ذاك الفناء يجرى نُضار  
بات فيه المنعمون بلبيل      أخجل الصُّبح حُسنه فتواري  
يكتسون السرورَ طوراً ، وطوراً      في يد الكأس يخلعون الوقار  
ومعنا في ( ميت غمر ) صياحاً      ملأ البرّ ضجةً والبحارا  
جلٌّ من قسَمَ الحظوظ فهذا      يتغنّى ، وذاك يبكي الديارا

في القصيدة التي نجتزئ عنها بهذه القطعة البليغة وصف مؤلم للمنكوبين  
يبعث الرحمة في أشد القلوب قسوة ، ويُغري بالاحسان والبرّ أكثر النفوس تمرّداً  
على فضيلة المعروف وشريعة الخير ، ولم يكن حافظ في هذا كله وصافاً أو مصوراً  
فحسب ، كلا ، فأتانا نرى نفسه الكريمة وروحه البارة ، ممثلين في هذه القصيدة  
المؤثرة تمثيلاً ناطقاً ، ولقد عرفته رحمه الله لّين القلب ، قوى العاطفة يقف على  
السائل بين يديه ، فيقع عطاؤه في كفّه قبل أن تقع كلمته من بين شفثيه . ثم لا يقع  
بهذا ، ولكنه يبقى واجماً محزوناً من أجله فلا يكاد يعود الى الحديث الا إذا  
حمل عليه . وهذه قطعة من قصيدة له ألّفها في مدرسة البنات في بور سعيد :

كم ذا يكابد عاشقٌ ويلاقى      في حبٍّ مصرَ كثيرة العشاق  
لهفى عليك متى أراك طليقةً      يحمى كريم حالك شعبٌ راق



فَإِذَا رُزِقَتْ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً فَقَدْ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الْأَرْزَاقِ  
وَالْعِلْمُ إِنَّمَا لَمْ تَكْتَفِهِ شَمَائِلُهُ تَعْلِيهِ كَانَ مَطْبَعَةُ الْإِخْفَاقِ  
كَمْ عَالَمٌ قَدْ الْعَالَمَ حَبَائِلًا لَوْ قَبِيحَةٍ وَقَطِيعَةٍ وَفِرَاقِ  
يَذْكُرُ فِقْهَهُ السُّوءَ بَعْدَ هَذَا الْبَيْتِ ثُمَّ يَقُولُ فِيهِ :

يَمْشِي وَقَدْ مُنْصِبَتٌ عَلَيْهِ عِمَامَةٌ كَالْبُرْجِ لَكِنْ قَوْقُ تَلٍّ نَفَاقِ  
ثُمَّ يَسْتَرْطِدُ فَيَقُولُ :

وَطَيْبُ قَوْمٍ قَدْ أَحْلَى لَطَبُهُ مَا لَا يُحِلُّ شَرِيعَةُ الْخُلَاقِ  
وَهُوَ إِذَا وَفَّى هَذَا الطَّيِّبَ حَقَّهُ مِنَ الْوَصْفِ كَرَّ عَلَى (مُهَنْدِسِ النَّيْلِ) فَأَغْرَقَهُ  
ذِمًّا وَتَقْرِيبًا ، ثُمَّ انْقَضَى عَلَى الْأَدِيبِ - أَدِيبِ السُّوقِ - فَأَهَانَهُ وَدَاسَ أَدَبَهُ وَبَيَانَهُ  
وَهَذَا بَعْضُ مَا قَالَهُ فِيهِ :

فِي كَفِّهِ قَلَمٌ يَمْجُجُ لُغَابُهُ سُمًّا وَيَنْفُثُهُ عَلَى الْأَوْدَاقِ  
يَرِدُ الْحَقَائِقَ وَهِيَ بَيْضٌ تُصْعَقُ قُدْسِيَّةٌ ، عُلُوبِيَّةٌ الْأَشْرَاقِ  
فَيْرْمُذَّهَا سُودًا ، عَلَى جَبَابَتِهَا مِنْ ظُلُمَةِ التَّمْوِيهِ ، أَلْفُ نَطَاقِ  
عَرَبِيَّةٍ عَنِ الْخُلُقِ الْمَطَهَّرِ نَفْسُهُ خِيَاثُهُ يَنْقُلُهُ عَلَى الْأَعْنَاقِ  
يَلْتَفِتُ الشَّاعِرُ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ إِلَى جَهْلِ الْأَمْتِهَاتِ فِي مِصْرَ ، وَسَائِرِ بِلَادِ الشَّرْقِ

الْعَرَبِيِّ ، وَإِلَى مَا لَهُ مِنَ الْأَثَارِ الْقَدِيمَةِ فِي حَيَاةِ الْأُمَمِ الشَّرْقِيَّةِ فَيَقُولُ :  
مَنْ لِي بِتَرْبِيَةِ النِّسَاءِ ، فَاتَّهَا فِي الشَّرْقِ عَلَّةٌ ذَلِكَ الْإِخْفَاقِ  
الْأُمُّ مَدْرَسَةٌ ، إِذَا أُعِدَّتْهَا أَعَدَّتْ شَعْبًا طَيِّبَ الْأَعْرَاقِ  
سَارَ هَذَا الْبَيْتَ مَسِيرَ الْمَثَلِ ، وَهُوَ مِنَ الْحُكْمِ الْعِمْرَانِيَّةِ الْجَلِيلَةِ ، وَقَدْ ذَهَبَ  
الشَّاعِرُ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ مَذْهَبَ الْمُتَحَفِّظِ بَيْنَ أَنْصَارِ الْحُجَابِ ، وَدَعَاةِ السُّفُورِ ،  
فَقَالَ :

أَنَا لَا أَقُولُ دَعَاؤَ النِّسَاءِ سَوَافِرًا بَيْنَ الرِّجَالِ ، يَحْتَلُونَ فِي الْأَسْوَاقِ  
يَدْرُجْنَ حَيْثُ أُرْدَنَ ، لَا مِنْ وَازِعٍ يَحْدَرْنَ رَفِيبَتَهُ وَلَا مِنْ وَاقِ  
كَلَا ، وَلَا أَدْعُو كَوْنَهُ أَنْ تُسْرِفُوا فِي الْحُجْبِ ، وَالتَّضْيِيقِ ، وَالْإِرْهَاقِ  
٣٧٠ - مَجْلَةُ ابُولُلُو الْأَوَّلُ (١) -



فتوسَّطوا في الحالتين ، وأنصفوا فالشَّرُّ في التقييدِ والاطلاقِ  
رَبُّوا البنات على الفضيلة ، إنَّها في المَوْقِفَيْنِ لَهْنٌ خَيْرٌ وثاقِ  
بهذه الابيات الحكيمة ، فَصَلَ الشاعرُ العظيمُ حافظُ ابراهيم في مشكلة  
( الحجاب والسُّفور ) على السَّنَنِ الأوضح ، والطريقة المثلى . فمن حقِّ هذا  
الحكم أن يكون دستوراً لجيلنا الحاضر وللأجيال المقبلة معاً في هذه القضية  
التي تشغل الشُّعوبَ الشرقية اليوم .

قال شاعرنا العظيم من قصيدة في ( رعاية الاطفال ) :

لوفى بالزَّكَاةِ مَنْ جَمَعَ الـ... دُنْيَا وأهْوَى على اقتناءِ الخطامِ  
مَا شَكَا الجوعَ مُعْدَمٌ ، أَوْ تَصَدَّى لِرُكُوبِ الشُّرُورِ والآثامِ  
رَاكِباً رَأْسَهُ طَرِيداً شَرِيداً لَا يَبَالِي بِشُرْعَةٍ أَوْ ذِمَامِ  
سَائِلاً عَنِ وَصِيَةِ اللَّهِ فِيهِ آخِذاً قُوَّتَهُ بِحَدِّ الْحَسَامِ  
أنظر اليه كيف تناول الحياة العامة من أساسها ، وكيف برز في هذه القطعة  
من شعره زعيماً اشتراكياً كبيراً ، يجمع الفقراء حول لوائه ، ويزحف بهم في  
شجاعة وجرأة على قصور الأغنياء ، يدعوهم إلى كتاب الله ويحاول أن يقتحم  
الاسوار إلى خزائنها يستنقذ منها تلك الحقوق الصارخة المحبوسة عن ذويها  
وأوليائها .

أنظر اليه إماماً صالحاً ومعاملاً حكيماً يصف لك ما ينشأ عن تعطيل حكم الزكاة  
من سخط الفقراء على الاغنياء ونشوب العداوة بين الفريقين ، وأن ذلك مما يُبْئِرُ  
الشُّرُورَ ويدفع الى اقتراف الجرائم .

قال شاعرنا من قصيدة رثانة ألقاها في احتفال الجامعة مطلعها ( حَيَّاكُمْ  
الله أحيوا العلم والأدب ) :

هذا هو الآخرُ الباقي فلا تقفوا عند الكلام اذا حاولتموا أدبا  
ودونكم مثلاً أَوْ شَكْتُ أَوْ ضَرَبْتُ فيكم وفي مصر إن صدقاً وإن كذبا  
مَعْتُ أَنْ امراً قد كان يَأْلَفُهُ كَلْبٌ فعاشا على الإصلاح واصطحبا  
فَرَّ بِمَوْتِهِ به والجوعُ يَنْهِيهِ نَهْباً فلم يبق إلا الجلد والعصا

بيكى عليه وفي ميمناه أرغفة      لو شامها جائع من فرسخ وثبا  
فقال قوم وقد رقتوا لذى ألم      بيكى وذى ألم يستقبل العطا :  
ماخطبُ ذا الكلب؟ قال: الجوع يُخطفه      منى وينشب فيه الناب مُغتصبا  
قالوا وقد أبصروا الرُغفانَ زاهيةً :      هذا الدواء فهل طالجته فأبى ؟  
أجلهم ، ودواعى الشَّحِّ قد ضربتُ      بين الصديقين من فرط القيلى حُجبا :  
لذلك الحدِّ لم تبلغ مودَّتُنا      أما كفى أن يرانى اليوم مُمتحبا ؟  
هذى دموى على الخدين جارية      حُزناً ، وهذا فؤادى يرغى لها

يسوق حافظ الى قومه هذه القصة اللذيذة التى تصف الحنان الكاذب ، وتمثل  
الحبَّ الغادر ، ليأخذ السبيل على الذين يدعون حب مصر من أبناءها ، ويكثرون من  
زديد الاقاول الزائفة فى هذا المعنى ، حتى اذا حانت ساعة العمل تركوا البلاد فى  
غمرتها ، ووقفوا يتباكون خلف أنصارها ، أراد شاعرنا الموقر أن يأخذ السبيل على  
هؤلاء ليساهموا بأموالهم فى اقامة أكبر دار للعلم والثقافة المصرية فى مصر ، وانظر  
ماذا يقول بعد اداء قصته .

أقسمتُ بالله إن كانت مودَّتُنا      كصاحب الكلب ، ساء الامر مُنقلبا  
أعيدكم أن تكونوا مثله ، فترى      منكم بكاءً ، ولا تُنلفى لكم دأبا  
إن تقرضوا الله فى أوطانكم ، فلکم      أجرُ المجاهد ، طوبى للذى اكتبا

فى هذه الطائفة من منظومات حافظ فى هذا الباب ما يُعنى عن الاسترسال ، ويبقى  
بالمطلب المبتغى ، وقد ترامت بشاعرنا الكبير همته الادبية ، فتباعد مداه ، وتقاذفت  
فايته ، ومن الاغراض التى تناولها ونظم فيها ، وهو يسير مُمعناً ، ويذهب متدفقاً  
فى تلك المطارح البعيدة والمنازع القصية : الشمس — غادة اليابان — حرب  
اليابان — المارتينك — فيكتور هوجو — زلزال ايطاليا — أمير المؤمنين عمر بن  
الخطاب — تولستوى — وقد أجاد حافظ فى كل هذه الابواب اجادة كبيرة ، تدل على  
عبقريته وعلو منزلته . فن قوله فى مناجاة تولستوى بعد موته :

حياة الورى حربٌ وأنت تريدها      سلاماً ، وأسبابُ الكفاح كثيرُ  
أبت سُنَّةُ العمران الأ تناحراً      وكدحاً ولو ان البقاء يسيرُ

تَحَاوُلُ دَفْعَ الشَّرِّ وَالشَّرُّ وَاقِعٌ      وَتَطْلُبُ مَحْضَ الْخَيْرِ وَهُوَ عَسِيرٌ  
 وَلَوْلَا امْتِزَاجُ الشَّرِّ بِالْخَيْرِ لَمْ يَقُمْ      دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْإِلَهَ قَدِيرٌ  
 وَلَمْ يَبْعَثْ اللَّهُ النَّبِيْنَ لِلْهَدْيِ      وَلَمْ يَنْطَلِعِ السَّرِيرُ أَمِيرٌ  
 وَلَمْ يَعِشْ الْعَلِيَاءُ حُرَّةً ، وَلَمْ يَسُدَّ      كَرِيمٌ ، وَلَمْ يَرْجُ الثَّرَاءُ فَقِيرٌ  
 فَكَمْ فِي طَرِيقِ الشَّرِّ خَيْرٌ وَنِعْمَةٌ      وَكَمْ فِي طَرِيقِ الطَّيِّبَاتِ مُشْرُودٌ

### موقف تأمل

هذا هو حافظ ابراهيم ، فهل ترى وراء كل هذا مزيداً لشاعر مصرى يعيش في مصر ؟ إن في مصر حياة زاهرة ولكن لغير الاديب المهذب ، ودنيا ناضرة ولكن ليست للشاعر الحر ، وهل تظن أن حافظاً يهزل حيث يقول :

فَا أَنْتِ يَا مِصْرُ دَارَ الْأَدِيبِ      وَلَا أَنْتِ بِالْبَلَدِ الطَّيِّبِ  
 أَتَرَاهُ مَتَجَنِّياً عَلَيْهَا أَوْ ظَالِماً لَهَا أَوْ عَدُوّاً يَضُرُّهَا الْبَغْضُ وَيُرِيدُ بِهَا الشُّوْءَ ،  
 وَهُوَ الَّذِي أَذَابَ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ شِعْراً فِي سَبِيلِ حُبِّهَا وَمِنْ أَجْلِ حَيَاتِهَا ؟ أَلَيْسَ هُوَ  
 الَّذِي يَقُولُ :

لَهْفِي عَلَيْكَ مَتَى أُرَاكَ طَلِيقَةً      يَحْمِي كَرِيمَ حِمَاكِ شَعْبٌ رَاقٍ ؟  
 أَتَرِيدُ أَنْ تَعْرِفَ لَمْ يَقُولْ حَافِظُ بَعْدَ هَذَا وَغَيْرِ هَذَا (فَا أَنْتِ يَا مِصْرُ دَارَ الْأَدِيبِ ...) ؟  
 هُوَ وَحْدَهُ يُحَدِّثُكَ ، وَهَذَا جَوَابُهُ :

عَقْنِي الدَّهْرُ وَلَوْلَا أَنِّي      أَوْثَرُ الْحَسَنِ عَقَقْتُ الْأَدِبَا  
 أَنَا لَوْلَا أَنِّي مِنْ أُمَّتِي      خَاذِلاً ، مَا بَتَّ أَشْكُو النَّوْبَا  
 مَا أُرَاكَ بِحَاجَةٍ إِلَى الْمَزِيدِ بَعْدَ هَذَا ، وَلَكِنِّي أَزُودُكَ قَبْلَ الْفَرَاغِ مِنْ هَذَا  
 الْمَوْقِفِ لِتَظُلَّ ذَاكِرَاً . قَالَ حَافِظُ مِنْ قَصِيدَةٍ :

سَلَامٌ عَلَى الدُّنْيَا سَلَامٌ مُودِعٍ      رَأَى فِي ظِلَامِ الْقَبْرِ أَنْسَاءً وَمَغْمَا  
 فَا عَصَمْتَنِي مِنْ زَمَانِي فَضَائِلِي      وَلَكِنْ رَأَيْتُ الْمَوْتَ لِلْحُرِّ أَعْصَا  
 أَخَذَ حَافِظُ بِنَصِيبٍ مِنْ رَتَبِ الدَّوْلَةِ ، وَأَقِيمَتْ لَهُ حَفْلَةٌ تَكْرِيمٍ كَبِيرٍ ، ثُمَّ

استعمل في دار الكتب وكل هذا عطاء نزر ونائل مُصرَّد، وليس من هذا شيء يُرضى النفس المجيدة والعقل الكبير، فرحم الله عليك أيها الصديق.

### نظرة في شعره

أسلفنا لك أن حافظاً شاعرٌ غلُ سمكن الشعرية قليل الأنداد، وقصصنا عليك من أمره ما فيه علة لك بالغة، فكان معنا في انصافه والناس المعذرة له إذا رأته يهفو تارة أو يتبرم بالشعر فيتعسف فيه تارة أخرى. وانك لتراه على هذه الحال في القصيدة الواحدة من شعره: تراه الشاعر العبقرى المنيع في موضع منها والشاعر المتهاون المستهدف للنقد في موضع آخر. أنظر الى قوله:

ما ذا ادّخرت لهذا العيد من أدبٍ ؟ فقد عهدتك ربّ السبق والغلب  
البيت بارع يحرق على نسق جميل ناس فيه قوة الدافع الوجداني وتسمع له  
جرساً بعيد الاثر طويل الرنين . وانك لتراه مصقولاً ناعماً كثير الايمان مستطير  
البريق . ولكن أتري لو أنّ حافظاً أمعن النظر في هذا البيت أ كان يقفل صمغ فيه  
من التخاذل ؟ انه ليعلم أن قوله ( ادّخرت ) يفسد عليه غرضه وينأى به عن المنزلة  
التي أرادها لنفسه، وهل يقتقر الشاعر الفيّاض الى الادخار وهو الذي يسبق  
الاقتران ويغلبهم ؟

أعجب من هذا البيت قوله في البيت الثاني من القصيدة :

تشدو وترهفُ بالاشعار مُرتجلاً وتبرزُ القول بين السحر والعجب !  
فهو في البيت الاول شاعر مدّخر لا يأخذ موقفه الا اذا استعدّ، وهو في  
البيت الثاني حاضر البديهة متدفّق الطبع، يقول الشعر ارتجالاً ويا بعد ما بين  
الصورتين . أما قوله ( ترهف بالاشعار ) فخطأ لغويّ، يقال أرهف الرجلُ السيفَ  
ورفهه اذا شحذه ورقّق حذّه، ومراد الشاعر أن يقول إنه يشدو بالاشعار ويرفق  
صوته في انشادها فخطأ ظاهر، وقال :

وتصقلُ اللفظ في عيني، فأحسبني أرى فردّ سيوف الهند في الكتب  
أنت ترى البيت من الشعر الرثان وإنك لما أخذ بحال هذا التشبيه الذي يُريك  
رونق السيف وشاعته في المشوِّف المثلّم من الكلام، ولكنك في غير

حاجة الى الاذن إذا قلت إن جملة ( تصقل اللفظ في عيني ) ظاهرة الخلل والفساد لأن مرجع الصّور اللفظية الى الذهن — أو هو الذوق الفني — لا الى العين . فما كان لها من مختلف الآثار فتمّ الموضوع وهناك الحكم ، شأنها في ذلك شأن الصور المعنوية ولا خلاف ، والعين والكتب في البيت — أو في هذا الباب كله — يستويان حكماً لأن رونق الكلام واشراقه لا يكونان في الورق ، وأولى بهذا الوصف أن يكون في حسن الخط وجمال الرسم لا يعدوها ، ومن عبث المتنبي في هذا الباب قوله :

وَمَا قُلْتُ مِنْ شَعْرٍ تَكَادُ بَيُوتُهُ إِذَا اكْتَبَتَ يَبْيَضُ مِنْ نُورِهَا الْحَبْرُ  
وأشدُّ من هذا في معرض العبث أن يقول :

وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا الشَّعْرِ كُلَّهُ وَلَكِنْ لَشَعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شَعْرٌ  
قال شاعرٌ قديمٌ في حسن الخط :

يَا مَنْ إِذَا خَطَّ الْكِتَابَ يَمِينُهُ أَهْدَى الْبِنَا الْوَشْيَ مِنْ صَنْعَاءِ  
والشطر الثاني لا بي تمام وأصله ( أهدى إليها ) . وقال التنوخي في هذا الباب :

وَكَاثَهُ لَيْلٌ يَمْوُجُ خِلَالَهُ صُبْحٌ مُنِيرٌ  
وبدائعٌ تدع القلوبَ بَ تَكَادُ مِنْ طَرَبٍ تَطِيرُ  
ومنه قول كشاجم :

وَكَاثُ الْبَيَاضِ وَالنَّقْطِ السُّوْ دَعْبِيرٌ رَشَّشَتْهُ فِي مُلَاءِ  
وَكَاثُ السُّطُورِ وَالذَّهَبِ السَّاءِ طِعَ فِيهَا كَوَاكِبُ فِي مَاءِ  
وأين شاعرنا من المعاني يصفها ويقول لنا ماهي ؟ أترأى اكتفى من وصفها بقوله في البيت السابق « وتبرزُ القولَ بين السّحر والعجب » ؟ كلا ! فما هذا من الوصف الفني في شيء ، وإليك بعض ما قيل في وصف الكلام . قال أبو تمام في الحسن بن وهب :

تَنْشَقُّ فِي ظِلِّ الْمَعَانِي إِنْ دَجَتْ مِنْهُ تَبَاشِيرُ الْكَلَامِ الْمَشْرِقِ  
وقال البحتري :

وبديع كأنه الزهر الضا حاك في رونق الربيع الجديد  
مشرق في جوانب السمع ما يحل لمقه عوده على المستعيد  
أما المتنبي فيقول :

إذا ما صافح الاسماع يوماً تبسمت الضمائر والقلوب  
لا أزيدك على هذا فحسبك أن تعرف المذهب وترى تصرف القوم فيه وأحسب  
لو أن البحترى قال « مشرق في جوانب النفس » لكان أجود وأنّ البون لكبير  
بين « سمع البحترى » و « عين حافظ » .

قال حافظ في هذه القصيدة :

اني دعوت القوافي حين أشرق لي عيد الأمير فلبت غرة الطلب  
غرة كل شيء أوله ، يريد أن القوافي لبته مشرعة وهو مأخوذ من  
قول ابن الرومي :

يا من تنافس في أوصافه كلّي تنافس العرب الاجاد في النسب  
وهو مأخوذ من قول أبي تمام :

تغايّر الشعر فيه إذ سهرت له حتى ظننت قوافيه ستقتل  
وفي بيت أبي تمام من التهويل الشعرى ما ترى . وقال في قصيدته ( باليلة  
أطعنى ما أتته به ) :

اني أرى عجبا يدعو الى عجب الدهر أضمره والعيد أنفاه  
يقول هذا البيت في وصف المشاهد التي رآها ليلة المهرجان فانظر كم بينه وبين  
قول ابن الرومي في تهنئة بعيد النيروز :

لم يبق للأرض من سر تكامه الا وقد أظهرته بعد إخفاء  
قال حافظ يصف حديقة الازبكية في قصيدته هذه :

أم الحديقة ذات الوشي قد جليت في منظر يستعيد الطرف مرآه  
المنظر والمرأى واحد ، وقد أراد شاعرنا أن يقول ان الحديقة برزت في منظر  
أنيق يعرى العين بآدمان النظر فوضع ( مرآه ) موضع ( رؤيته ) فخطأ وقال :

أرى المصاييحَ فيها وهى مُشرقةٌ كأنها النُّورُ والوسمى حَبَاهُ  
تشبيه معكوس لأن المصاييح أشد إشراقاً من الزهر، ولعل الصورة التشبيهية  
هنا قائمة في اختلاف ألوان المصاييح ومحاكتها لألوان الأزهار، وهو ما لا يستفاد  
من هذا البيت أو سواء من أبيات القصيدة، واليك ما يقوله أبو الحسن التهامي  
لتعرف مأخذ التشبيه :

وإذا تأملت الكواكب خلتها زهراً تَفَتَّحَ ، أو عُيُوناً حَوَّلا  
وانظر ما يقول ابن النبيه :

والليلُ تجرى الدردارى في مجرَّتِهِ كالروض تطفو على نهر (أزاهره)  
وأزاهره في البيت خطأ، فالصواب ، زهر وأزهار وأزاهير — قال حافظ بعد  
البيت المتقدم في صفة المصاييح :

أو إنما هى ألفاظٌ مُدَبَّجَةٌ وكلُّ لفظٍ تَجَلَّى فيه مَعْنَاهُ  
شبهه شاعرنا المصاييح في البيت السابق بالأزهار، ثم عاد فشبهها في هذا البيت  
بالألفاظ المدبجة ومعانيها فلم يتجاوز ما قدمناه لك من بيان وإيضاح، فانت ترى  
الانتحال ظاهراً في البيتين بل نحن نزيدك فنذكر لك قول المتنبي :

كأن المعانى فى فصاحة لفظها مُنْجِومُ الثرى أو خلائقك الزُّهرُ  
قال حافظ :

أرى (مُسموٌ خديونا) وقد بُسِطَتْ بالعدل والبذل مُيمناه ويسراه  
رحم الله شاعرنا الفحل انى لأظنه تردد كثيراً في (سمو خديونا) هذه فلما  
أبت أن تفارقه وطن لها نفسه وأدخلها بيته كارهاً ثم ذهب يردد قول جرير :  
إنَّ البغيض له منازل عندنا ليست كمنزلة المحبِّ المُكرَّم  
وبعد، فبيت حافظ صورة من قول البحرى :

ولى البلادَ فكان عدلاً شائعاً ينقى الظلام ونائلاً موهوباً  
وللقوم مذهب معروف فى هذا الباب يقع فيه قول الخطيئة :  
يداك خليج البحر ، احداها دمٌ يَفِيضُ ، وفى الأخرى عطاء ونائل  
وقول مسلم بن الوليد :

وما مرَّ يومٌ قطَّ إلا جرت به على الناس من كفيك بُؤسٌ وأنعم  
وقوله :

فاد على كسبِ المحامد رائحٌ في راحته منيةٌ ونشورٌ  
وقول ابن هانيء الاندلسي :

ولدهر سيجلٌ من حياؤٍ ومن ردَى ولكنّه من بين كفيك ينهى  
قال حافظ :

أرى أريكةَ عباسٍ تحفّ بها وقايةُ الله والاقبال والجاه  
يقال حفّةٌ وحفّ حولهٌ وحفّةٌ بالشئ فقله (تحفّ بها) خطأ لا يسوغ.

وفي القرآن الكريم (حافّين من حول العرش وحفّناهما بنخل) وقال البحتري :  
يحفّون مرّجواً كأنّ سبوبةً سيّوح الحيراق غزّرها وفورها  
ويقول جرير :-

وبنّو الوليد من الوليد بمنزل كالبدْرِ حُفّاً بواضحات الأعمام  
ومن قول الاخطل في الخمر :

لها ردّ آئن ، نسج العنكبوت وقد حفّت بآخر من ملين ومن قار  
وقد وقع ابن هانيء الاندلسي فيما وقع فيه حافظ من الخطأ . فقال في القائد  
جوهر :

يحفّ به القواد والأمر أمره وَيَقْدُمُهُ رَأْيِي الخِلافَةَ أجمع  
ومّا نُسب الى عنبرة وهو بعيد :

حفّت بهنّ متّاصِلٌ وذوا بيلٍ ومشت بهنّ زوا بيلٍ ونواج  
ولعلّ هذا وأمثاله منشأ الخطأ في قول حافظ - قال في (جائزة الشعر) :

إنّني فتحتُ لها صدرًا سَلِيقُ به إن لم تحلّوه فالرحن حلاه

كانت الجائزة الاولى في هذه المسابقة نوطاً ذهبياً وهي التي عاناها حافظ  
وقد حُكِمَ بها لقصيدته هذه . يقول إنه فتح لها صدره وفتح الصدر هنا لامعنى له  
فهي لا توضع داخل الصدر ولا تُعلّق على ظاهره فيحلّ الشاعر ما يليه من الازرار



ويعيط ماعليه من النياب ، وهو لو فعل ذلك لبقى صدره مُتَقَفلاً فالتعبير اذا طامس محض مانشك في أن شاعرنا الكبير تَرَخَّصَ فيه لِيُدَاعِبَ المحكِّمين ويشغلهم بقصيدته .

قال في عيد تأسيس الدولة العلية يذكر خلفاء آل عثمان :

وقام رجالٌ بالامامة بعده فزادوا على ذاك البناء وطنيوا  
وقال جرير :

ان الوليدَ خليفةٌ لخليفةٍ رَفَعَ البناءَ على البناءِ الاعظمِ

قال شاعرنا من قصيدة أخرى يصف شجاعة الجيش العثماني وشدة مخاطرته :

يُدَانِي شُحُوصَ الموتِ حتَّى كأنما لَهُ بين أَظفارِ المنيةِ مطلبُ

الوصف في المنزلة العليا من البراعة ، ولكنه ليس بالجديد ، فهو قد تقلب في صُورٍ شتى من الشعر القديم ، وما يزيدُ لك إلا أن تنفقه في الأدب ، فإليك طائفة من هذه الصُور ، قال أبو تمام :

مُحْتَرِّسِلِينَ إلى الخُتُوفِ ، كأنما بين الخُتُوفِ وبينهم أرحامُ

وقال المتنبي :

وَقَفَّتْ ومافى الموتِ شكٌ لواقفٍ كأنك في جفنِ الردى ، وهو نائمُ

وقال ابن هاني :

ولقد تكون لك الأُسنةُ مضجعا حتَّى كأنك عن حمامك غافلُ

وهذا ابن معتوق يقول :

وَحُضَّتْ إليها الخُتَفَ حتَّى كأننى أَقْتَسُ أَحْشَاءَ المنيةِ عن سرِّ

قال حافظ :

مَلَكْتَ عليهم كُلُّ فَجٍّ ولُجَّةٍ فليس لهم في البرِّ والبحرِ مهربُ

ويقول ابن هاني :

أين المفرَّ ولا مفرَّ لهاربٍ ولكَ البَسِطَانِ : الثرى والماءُ

قال حافظ :

تَقَادَفَهُمْ أَيْدَى اللَّيَالِي كَأَنَّهُمْ  
وَقَالَ أَبُو تَمَامٍ :

أَبْنَى عَلَى جَوْلَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُنْفَى  
وَقَدْ أَبْرَزَ الْمُتَنَبِّي هَذَا الْمَعْنَى فِي صُورَةٍ أُخْرَى فَقَالَ :

يُخَيِّلُ لِي أَنِّي الْبِلَادَ مَسَامِيحٌ وَأَنْتَى فِيهَا مَا تَقُولُ الْعَوَاذِلُ  
وَمِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَامٍ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ :

كَأَنَّ لَهُ دَيْنًا عَلَى كُلِّ مَشْرِيقٍ مِنْ الْأَرْضِ أَوْ ثَارًا لَدَى كُلِّ مَغْرِبٍ  
قَالَ حَافِظٌ مِنْ قَصِيدَتِهِ (مَاذَا أَصَبْتَ مِنَ الْأَسْفَارِ وَالتَّعَبِ ؟) :

أَنْتَى احْتَسَبْتُ شَبَابًا بَيْتٌ أَنْفَقَهُ وَعَزَمَةً شَابَتِ الدُّنْيَا وَلَمْ تَشِبِرْ  
وَيَقُولُ الْبَحْتَرِيُّ :

صَحِبُوا الزَّمَانَ الْقَرُطَ إِلَّا أَنَّهُ هَرَمَ الزَّمَانُ وَعِزُّهُمْ لَمْ يَهْرَمْ  
وَيَقُولُ أَبُو تَمَامٍ (شَابَتِ نَوَاصِي اللَّيَالِي وَهِيَ لَمْ تَشِبِرْ) . وَقَالَ حَافِظٌ مِنْ  
هَذِهِ الْقَصِيدَةِ :

مَتَى أَرَى النَّيْلَ لَا تَحُلُو مَوَارِدَهُ لَغَيْرِ مُرْتَهَبٍ لِلَّهِ مُرْتَبِ؟  
وَيَقُولُ أَبُو تَمَامٍ فِي الْمَعْتَصِمِ .

تَدِيرُ مُعْتَصِمٌ بِاللَّهِ مُسْتَقِيمٌ لِلَّهِ مُرْتَبِ فِي اللَّهِ مُرْتَهَبِ  
قَالَ حَافِظٌ :

وَكَمْ لَبَسْتُ الدَّجَى وَالتَّرَبُّ نَاعِصَةٌ وَاللَّيْلُ أَهْدَأُ مِنْ جَائِشٍ لَدَى الثُّوَبِ  
الَّتَرْبُ اسْمٌ مِنَ التَّرَابِ زَعَمَ حَافِظٌ أَنَّهُ جَمَعَ فَأَنَّهُ خَطَأٌ وَلُبْسُ الدَّجَى أَوْ  
اللَّيْلِ مِمَّا كَثُرَ تَدَاوُلُهُ عَلَى أَلْسِنَةِ الشُّعْرَاءِ . قَالَ حَاتِمُ الطَّائِي :

وَكَلِيلٌ بِهِمْ قَدْ تَسَرَّبَتْ هَوْلُهُ إِذَا اللَّيْلُ بِالنَّكْسِ الضَّعِيفِ مَجْمَعًا  
وَقَالَ الْعَتَابِيُّ :

مَسَحَتْ لَهُ ذَيْلَ السُّرَى وَهُوَ لَا بَسَ دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى مَحَّ ضَوْءُ الْكَوَاكِبِ  
إِذَا ادَّرَعَ اللَّيْلُ الْحَبْلَ وَكَانَتْ بَقِيَّةُ هِنْدِيٍّ حُسَامِ الْمَضَارِبِ

ويقول ابن الرومي :

لَبِيتُ دُجَاهُ الْجُونِ نَمَّ هَتَكْتُهَا      بِوَجَنَاءِ يَنْمِيهَا غَرِيرٌ وَشَدَقَمُ  
ومن شعر البديع الهمداني ( عَلَيَّ أَنْ أَلْبَسَ الظُّلَمَاءَ وَالْيَلْبَاءَ ) ويقول غيره  
( ويلبسُ من ظلماتها ثوبَ ثاكل ) فامّا قول شاعرنا ( والليل اهدأ من جاشي لدى  
النوب ) فأخوذ من قول أبي طالب الرقي :

ولقد ذكرتك والظلامُ كأنه      يومُ النَّوَى وَفَوَادُ من لم يَعِشْ  
قال حافظ من قصيدته ( طُفَّ بِالْأَرِيكَةِ ) :

شَكَا عُمَانُ وَضَجَ الْغَائِصُونَ بِهِ      عَلَى اللَّائِي وَضَجَ الْجَاسِدُ الشَّانِي  
كم رام شأوي فلم يدرك سوى صدفٍ      سَاحَتْ فِيهِ لِنِظَامِ وَوَرَّانِ  
ومُحَصِّلُ الْبَيْتَيْنِ فِي قَوْلِ السَّرِيِّ الْمَوْصِلِي :

وَالشَّعْرُ بِمَحْرٍ حُزْتُ أَنْفَسَ دُرِّهِ      وَتَنَاقَسَ الشُّعْرَاءُ فِي حَصْبَائِهِ  
وقال من قصيدته في تتويج الملك ادوارد :

يُصَرِّفُ الْأَمْرَ مِنْ مِصْرٍ إِلَى عَدَنِ      فَالْهَنْدُ فَالْكَابِ حَتَّى يَعْثُرَ الْجُزُرَا  
ويقول المتنبي في كافور :

يُدَبِّرُ الْمَلِكُ مِنْ مِصْرٍ إِلَى عَدَنِ      إِلَى الْعِرَاقِ فَأَرْضَ الرُّومِ فَالنُّوبِ  
وقال :

سَعَيْتُ إِلَى أَنْ كَدْتُ أَنْتَعِلُ الدِّمَا      وَعُدْتُ وَمَا أَعْقَبْتُ إِلَّا التَّنْدُ مَا  
وقال ازهر بن هلال التميمي يصف جواده :

أُتَانِكَ مَا وَلَّيْتُ حَتَّى تَبَدَّدْتُ      رَجَالِي وَحَتَّى لَمْ أَجِدْ مُتَقَدِّمًا  
وَحَتَّى رَأَيْتُ الْوَرْدَ يَدْمِي لِبَانَتِهِ      وَقَدْ هَاجَهُ الْإِبْطَالُ ( فَاتْنَعِلُ الدِّمَا )  
وقال ابن هاني في خيل المعز :

لَهُ الْمُقْرَبَاتُ الْجُرْدُ ( يُنْعَلُهَا دِمَا )      إِذَا قَرَعَتْ هَامَ السُّكَاةِ السَّنَابِكُ  
ومعنى البيت كله مأخوذ من قول الشاعر :

وما زلتُ أقطعُ عرض البلاد من المشرقين إلى المغربين  
وأذرعُ الخوف تحت الدُّجى وأستصحبُ النَّسرَ والفرقدَيْنِ  
وأطوى وأنشرُ ثوبَ الهُموم إلى أن رجعتُ بِخُفَّتِي حُنينَ  
وقال :

نُكبوا وأفقرت المنازلُ بعدهم لو كنتَ حاضرَ أمرهم لم يُنكبوا  
وهو من قول المهلهل في كليب :  
وتكلموا في شأن مُكلٍّ عظيمة لو كنتَ شاهدَ أمرهم لم ينبوا  
قال في قصيدة (روزفلت) :

واخبر الناسَ كيف سُدتم على النَّا س وجفتم بمعجزاتِ الدهورِ  
اخبرَ من الافعالِ الرباعية وحكمه حين يكون فعل امر ثبات حركة الهمز في  
اوله فيقال ( اخبر ) ، وعندنا ألا رُخصة في قواعد اللغة فلا يشفع في مثل هذا  
الخطأ البيّن ان يكون البيت مُستقيم الوزن . قال حافظ بعد هذا البيت :  
وملكتم أعنةَ الرِّيحِ والمالِ ء وَدُسْتُمْ على رقابِ العصورِ  
يقال داسَ الرجلَ والشئَ لادّاسَ عليه فالفعل مُتَعَدٍّ بنفسه والخطأ في  
البيت واضح ، وقوله ( الدهور ) في البيت الاول و ( العصور ) في الذي يليه من  
أشنع عيوب القافية . ومن قوله في هذه القصيدة :

قف وعدد ماثر العلمِ واذكر نِعَمَ اللهِ ذكر عبدٍ شكور  
في مادةٍ عددَ شبهات لغويّة لم تفصل المعاجم في امرها وقد اختلف في  
تفسير قوله تعالى ( الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ) فقالوا جعله عُدَّةً للدَّهرِ وقالوا  
غير ذلك واليك طائفة من اقوالهم .  
قال الخازن : وَعَدَّدَهُ أَي أَحْصَاهُ مِنَ الْعَدَدِ ، وقيل هو من الْعُدَّةِ ،  
استعدّه وجعله ذخيرةً وَغْنَى لَهُ .

وقال البيضاوى : جعله عُدَّةً للنوازل ، أو عُدَّةً مرةً بعد أخرى ، ويؤيده  
أنّه قرئَ وَعَدَّدَهُ على فك الادغام .  
وقال الألويسي : عُدَّةً مرةً بعد أخرى حُبًّا لَهُ ، وشغفًا به وقيل جعله

أصنافاً وأنواعاً ، وقال غير واحد ، أى جعله عُدَّةً ومُدَّخراً لنوائب الدهر ومصائبه ، وقُرِئَ وَعَدَدَهُ أى قومه الذين ينصرونه .  
وقال الطبرى : عَدَدَهُ أَحصى عَدَّهُ .

وقال الفخر الرازى : فيه وجوه ، أحدها أنه مأخوذ من العُدَّة ، وهى الذخيرة ، وثانيها عَدَدَهُ أى أحصاه ، وجاء التشديد لكثرة الممدود كما يقال ( فلان يُعَدِّدُ فضائل فلان ) وثالثها عَدَدَهُ أى كثره ، وقرأ بعضهم وَعَدَدَهُ بالتخفيف .

أمّا الزمخشري شيخ اللغويين فيقول : عَدَدَهُ جعله عُدَّةً لحوادث الدهر ، وقُرِئَ وَعَدَدَهُ بالتخفيف من قولك له عُدْدٌ وَعَدَدٌ ، وقيل وَعَدَهُ بمعنى وعده على فك الادغام ، نحو ضننوا .

هذه أقوال المفسرين ، أمّا معاجم اللغة فتقول : عَدَدَ المال تعديداً جعله عُدَّةً للدهر ، قال الاخفش : ومنه قوله تعالى ( جمع مالاً وَعَدَدَدَهُ ) ويقال جعله ذا عدد ، وَعَدَدَ المَيْتَ عَدَّ مَنَاقِبَهُ .

يعوزنا بعد كل هذا أن نستشهد بالشعر من أقوال النقات ، ولا يحضرنا الآن من الشواهد سوى قول أبى تمام :

وقائع أصلُ النصر فيها وفرعُهُ إذا عُدَّدَ الإحسانُ أولم يُعَدَّدِ  
وقول الشريف الرضى فى تهنئة أخيه الشريف المرتضى بمولوده .

لله شمسٌ علّاً جاءت بجمهورية غراء من قرٍ بالمجدِ مسعودِ  
ما عَدَّدَتْ منك إلا نطفةً سلكتُ إلى الأمانى طريقَ الماءِ فى العُودِ  
يدل سياق الكلام فى بيت أبى تمام على أنه يريد الإحصاء ، أمّا الشريف الرضى فيذهب الى معنى آخر ، والمعول فى كل هذا على العرب ، فالشبهة ما تزال قائمة ونحن نتجاوز بيت حافظ الى قوله :

ليت شعرى أكنتَ تدعو اليهم يومَ كانوا على تحوُمِ النفور ؟  
اختلف علماء اللغة فى كلمة ( تحوُم ) فقال بن السكيت إنه سمع أبا عمرو يقول المفرد تحوُم بالفتح والجمع تحوُم كَصَبُورٍ وَصُبُورٍ .  
وقال الفراء ، انما هى تحوُم ، واجدها تحوُمٌ وتحوُمٌ ، وقد أخذ حافظ بهذا

القول كما أخذ به أبو تمام من قبل فقال :

أَحْلَمُهُمُ النَّدَى سَطَهَ الْمَعَالَى إِذَا نَزَلَ الْبَخِيلُ عَلَى التَّخُومِ

قال حافظ من قصيدته في كتاب قاسم أمين :

رَجَائِي فِي قَوْمِي ضَعِيفٌ كَأَنَّهُ جَعَانُ وَزِيرٌ سَوَدَّتْهُ مَنَاصِبُهُ

يجرى الشاعر في هذا البيت على نسق الظاهر الحرمي إذ يقول :

وَلَيْلٍ كَوَجْهِ الْبَرْقَعِيدِيِّ ظُلْمَةٌ وَبَرْدٌ أَغَانِيهِ ، وَطُولُ قُرُونِهِ

قَطَعْتُ دِيَابِجِيهِ بَنُومٍ مُشْرِدٍ كَعَقْلِ سُلَيْمَانَ بْنِ فُهَيْدٍ وَدِينِهِ

بَذَى أَوْلَقٍ فِيهِ التَّفَاتُ كَأَنَّهُ أَبُو جَابِرٍ فِي خَبَطِهِ وَجُنُونِهِ

إِلَى أَنْ بَدَأَ وَجْهُ الصَّبَاحِ كَأَنَّهُ سَنَا وَجْهَ قُرَاشٍ وَضَوْءَ جَبِينِهِ

وقال في حريق ميت غمر :

جَلٌّ مِنْ قَسَمَ الْحُظُوظَ فَهَذَا يَتَغَنَّى ، وَذَاكَ يَبْكِي الدِّيَارَ

وهو ينظر إلى قول الشاعر :

سَبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْحُظُوظَ ظَ - فَلَ عَتَابَ ، وَلَا مَلَامَةَ

قال حافظ من قصيدة أنفذها من السودان إلى الأستاذ الشيخ محمد عبده :

فَنَادَيْتُ بِاسْمِ الشَّيْخِ وَالْقَيْظُ جَرُّهُ يُذِيبُ دِمَاعَ الضَّبِّ وَالْعَقْلُ ذَاهِلُ

فَصَرْتُ كَأَنِّي بَيْنَ رَوْضٍ وَمَنْهَلٍ تَدْبُ الصَّبَا فِيهِ وَتَشْدُو الْبَلَابِلُ

وهو صورة محرفة من قول الشاعر :

وَلَيْلٍ وَصَلْنَا بَيْنَ قُطْرَيْهِ بِالسَّرَى وَقَدْ جَدَّ شَوْقُهُ مُطْمِعٌ فِي وَصَالِكِ

أُرَبَّتْ عَلَيْنَا مِنْ مَنْ دَجَاهُ حُنَادِسُهُ أَعْدَنَ الطَّرِيقِ النَّهْجَ وَعَرَّ الْمَسَالِكِ

فَنَادَيْتُ يَا أَمَمَا بِاسْمِكَ فَانْجَلَتْ وَأُسْفَرَ مِنْهَا كُلُّ أَسْوَدٍ حَالِكِ

وفي هذه القصيدة يقول شاعرنا :

فَقُلْتُ إِذَا شَاءَ الْإِمَامُ فَأَوْبَتِي قَرِيبٌ ، وَرَبْعِي بِالسَّعَادَةِ أَهْلُ

وَالْإِلَّاهُ فَانِي قَافٍ رَوْبَةٍ لَمْ أَزَلْ بَقِيدُ النَّوَى حَتَّى تَغُولَ الْغَوَائِلُ

البيت الأول من قول الشاعر :

عليك سلامٌ لا زيادةَ بيننا ولا وصلَ إلا أن يشاءَ ابنُ مَعمرٍ  
والثاني من قول المعري :

مالى غدوتُ كفافِ رؤبةٍ فُيِّدَتْ في الدهرِ لم يُقدرْ له إجراؤها؟  
وقد نبّه شارحُ الجزء الاول من ديوانه على المأخذ الثاني ولكن هذا التنبيه  
لا يشفع له ، ورؤبة هذا هو رؤبة بن العجاج التميمي من أكبر الرّجّازين وأقدرهم ،  
وقافه قاف أرجوزته التي يقول في مطلعها :  
وقاتمِ الاعماقِ خاوى المحترقِ مُشْتَبِهِ الاعلامِ كَمَاعِ الخفقِ  
وقال من قصيدة أخرى يمدح بها الاستاذ :

طلعتَ لها باليمنِ من خيرِ مطلعٍ فكُنْتَ لها في الفوزِ قدحَ بنِ مُقبلٍ  
الضمير في ( لها ) مائد على الأُمّة ، وكان الوجه أن يقول ( طلعت عليها ) ومن  
الشواهد على ذلك قولهم ( طلع البدر علينا ) و ( طلعتُ عليها بالردى أنا والفجرُ )  
طلعوا على مروانَ يومَ لقائه من كُلِّ أَرْوَعَ بالقنا دَعَّاسٍ  
وفي قدح بن مقبل يقول الصفيّ الحلّي :

ومازلتُ فيهم مثلَ قدحِ بنِ مُقبلٍ بِسَبْعِينَ أَمْسِي فائِزاً غيرَ خائبٍ  
وقال حافظ :

رأيتك والأبصارُ حولك خُشَعُ فقلتُ أبو خَفَصٍ بُردِيكَ أم علي؟  
وقال البحري :

بَارُوعَ مِنْ طَيِّ كَأَنَّ قَمِيصَهُ يُزَرُّ عَلَى الشَّيْخَيْنِ زَبْدٌ وَحَامٍ  
وقال غيره :

وَقَدْ يَتَعَابَى الرَّءْ عَنْ عَظَمِ شَأْنِهِ وَمِنْ تَحْتِ بُرْدِيهِ الْمَغِيرَةُ أَوْ عَمْرُو  
وقال فيه من قصيدة أخرى :

كَأَنَّ فَوَادِي إِيرَةَ قَدْ تَمَغَطَسَتْ بِحَبِكَ ، أَنِّي حُوِّلْتُ عَنْكَ تَعَطُّفُ  
تخطئ قوله ( تمغطست ) إذ لا رأيَ لنا فيها بعد أن تواضع كُتّابُنَا على  
هذا النحو من الرطانة ، وحسبنا أن نذكر لك شيئاً مما قيل في هذا المعنى . قال  
الصفيّ الحلّي :

اتّما هذه القلوبُ حديدٌ ولذيدُ الالفاظِ معنّاطيسُ  
وقال آخر :

وَقَفَ الهوى بي حيثُ أنتَ فليس لي متّأخّرٌ عنه ولا مُتّقدّمُ  
وقال حافظ :

له كُلُّ يومٍ في رضى الله موقِفٌ وفي ساحةِ الاحسانِ والبرِّ موقِفٌ  
وفي الموقفِ الاول ما يغنى عن هذه الزيادة ، وقال :

كَانَ براعى في مديحك ساجدٌ مدايمُهُ من خشيةِ الله تذرِفُ  
وقال بعض المتقدمين في القلم :

وذى خضوعٍ راعٍ ساجدٍ ودَمْعُهُ من جَفْنِهِ جَارُ  
مواظبِ الخمسِ لأوقاتها مُنْقَطِعٌ في خدمةِ البارى

وقريبٌ من هذا قول ابن المعتز :

خاشِعٌ في يَدَيْهِ يَلْسَمُ قِرْطًا ساءَ ، كما قَبِلَ البَيَاطُ شَكُورُ  
وقول محمود بن احمد الاصمغانى :

أُخْرَسَ يُنْشَبِكُ إِطْرَافُهُ عَن كُلِّ ما شِئْتَ مِنَ الامرِ  
يُنْذِرِي عَلَى قِرْطاسِهِ دَمْعَةً يُبْذِرِي بِها السَّرَّ ، وما يدرى

كعاشقٍ أُخْنِي هواهُ ، وقد تَمَّتْ عَلَيْهِ عِبْرَةٌ تَجْرى  
وقال حافظ في الامتاذ من قصيدة أخرى :

قالوا صدقتَ ، فكان الصدقَ ما قالوا ما كُلُّ مُنْتَسِبٍ للقولِ قَوْلُ  
وقال صفي الدين :

وَمَا كُلُّ مَنْ هَزَّ الحِسامَ بضاربٍ ولا كُلُّ مَنْ أَجْرَى اليراعَ بكَاتبٍ  
وقال فيه :

لي كُلُّ حَوْلِ لَبِيتِ الجاهِ مُنْتَجِعٌ كما تُشَدُّ لَبِيتِ الله أُرْحالُ  
المنتجع المكان يُقصد ، والشئ يُطلب ، وبيتُ الجاه في قول حافظ هو المكان ،

فالخلل في البيت ماموس ، وجمعُ راحلٍ على أُرْحالٍ خطأ ، والصواب رَحالٌ وأُرْحُلُ .  
- ٣٨٥ مجلة ابوللو الاول (١) -



قال يعصف مدحته :

تَفْتَحَ الحَمدُ عنها ، حين أسعدها منك القبولُ ، وفيها نَوْرُ القالِ  
وقال المتنبي :

قَطَفَ الرجالُ القولَ وَقَتَ نَبَاتِهِ وقطفتَ أنتَ القولَ لما نَوْرًا  
قال حافظ في الشيخ من قصيدة أخرى :

ما أجزلَ اللهُ ذُخْرِي قبلَ رُؤيتِهِ ولا انتفعتُ بإيمانٍ ونوحيدٍ  
وقال ابن هاني في المعز :

لولاكَ لم يكنَ التَّفَكُّرُ واعظاً والعقلُ رُشداً ، والقياسُ دليلاً  
لوم تكن سَبَبَ النِّجاةِ لأهلها لم يُعْنِ إيمانُ العبادِ فتيلاً  
قال شاعرنا في رثاء الشيخ :

لقد كُنْتُ أخشى عادي الموتَ قبلَهُ فأصبحتُ أخشى أن تطولَ حياتي  
وقال النابغة الذبياني :

فإنْ نَحَى لا أَمَلُ حَيَاتِي وإنْ نَحَتْ فأنْ نَحَى لا أَمَلُ حَيَاتِي بعد موتكَ طائلُ  
وقال البحترى في غلامه نسيم :

أَعْظَمُ الرُّزْءِ أنْ تُقَدَّمَ قَبْلِي وَمِنْ الغَبْنِ أنْ تُؤَخَّرَ بَعْدِي  
ولصنى الدين الحلي في المعنى :

ما بَقائِي مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ إلاَّ كَبَقَاءِ الرِّياضِ بَعْدَ السَّحابِ  
قال حافظ يتغزل من قصيدة في الشاعر العظيم محمود سامي البارودي :

تَيَمَّمْتُهَا والليلُ في غيرِ زِيَةٍ وحاسدها في الأفق يُغري بِي العِدَى  
لا نريد الاستقصاء في النقد وسرد المآخذ ، ولسنا بمتجاوزين قول المتنبي :

أزورهم ، وسوادُ الليلِ يَشْفَعُ لي وأنثى ، وبَيَاضُ الصُّبْحِ يُعْرِى بِي  
قال :

وقال كبيرُ القوم قد ساءَ فالنَّا فانا نرى حتفاً بجحفٍ تَقَلَّدَا

فليس لنا الاّ اتقاء سبيله وإلاّ أعلّ السيف منّا وأوردّا  
يقال تقلّد السيف لا تقلّد به ، والمعنى أنه كان متقلداً سيفاً وأنه كان  
كالسيف في مضائه وحدته ، وهو مأخوذ من قول الشاعر :  
مَتَى تَهْزُرُ بَنَى قَطَنَ تَجِدُهُمْ سَيُوفًا ، فِي عَوَاتِقِهِمْ سَيُوفُ  
وقوله أعلّ وأورد في البيت الثاني متنافر ، والسبيل أن يقال أعلّ وأنهل .  
قال الشاعر :

تَحُومٌ وَتَغْشَاهَا الْعِصَى ، وَحُومًا أَفَاطِيعُ أَنْعَامٍ تُعَلُّ وَتُنْهَلُ  
وقال البحتري :

يَا دَارُ لَا زَالَتْ رُبَّاكَ مَجُودَةً مِنْ كُلِّ غَادِيَّةٍ تُعَلُّ وَتُنْهَلُ  
قال ، يعنى ( فتاة الخدر ) :

وترجو رجاء اللص ، لو أسبل اللص على البدر سترًا حالك اللون أسودًا  
ولو أسبهم قدّوا غدائر شعرها فأكفوا له منها نقابًا إذا بدا  
قوله ( وترجو رجاء اللص ) من التعابير النابية في مثل هذا المقام ، وقوله  
( غدائر شعرها ) من التراكيب الفاسدة ، وهل كانت الغدائر شيئاً آخر غير  
الشعر ؟ والمعنى في البيتين مطروق . ومنه قول ابن هاني في البيت الثاني :

يَعْرِى عَلَى الْحَسَاءِ أَنْ أَطَا الْقَنَا وَأَعْتَرَفَ فِي ذَيْلِ الْخَيْسِ الْعَرْمَرِ  
تَوَدُّ لَوْ أَنَّ السَّيْلَ لُفَّ بِشَعْرَهَا لَيْسَتْ أَوْضَحَ الْجَوَادِرِ الْمُسَوَّمِ  
قال :

إذا ذكروا منه السَّيْبَ رَأَيْنَا وَدَاعَى الْهَوَى مِنْهَا أَقَامَ وَأَقْعَدَا  
وإن ذكروا منه الْحَمْسَ حَسِبْتَنَا نَرَى الصَّارِمَ الْخَضُوبَ حَدَّ أُمُورَدَا  
يصف حافظ شعر البارودى في هذين البيتين ، وفي البيت الاول من سوء  
التركيب ما لا يخفى على الناقد البصير ، فأنت ترى إن كلمة ( منّا ) وما وراءها صورة  
ناطقة من صور العجز عن أداء المعنى وإصابة الغرض على وجه مقبول ، ونسق سائغ ،  
وقوله ( أقام وأقعد ) من الكلمات التى أفرط الشعراء فى استعمالها ومجافوا بها عن  
مواطن الرفق ، ومواضع الاناة ، وإنى لمقتصدك فى إيراد الشواهد . قال بعضهم :

(وأقام قلبي في الغرام وأقمدا).

وقال الشريف الرضي في البرق :

كلما أنجد عُلُوِيَّ السَّنا قُام بالقلب اشتياقٌ وَقَعْدُ  
وقال :

وإنَّ قوامَ الدين قد عَبَّ بَحْرُهُ وعِيداً أقامَ الخالعين ، وأقمدا  
وقال المتنبي :

أبدى العُدَّةُ بك الشُّرورَ كأنهم فَرَحُوا ، وعندهم المقيمُ المُقعدُ  
أما قوله ( الحماس ) في البيت الثاني خطأ لغوي ، والصواب الحامسة ، ومعنى البيتين  
يتمثل في قول السري الموصلي :

جَدُّ يَطِيرُ شِرَارُهُ وفُكَاهُهُ تَسْتَعْفِفُ الأُحبابُ للأحبابِ  
وفي عجز البيت معنى مُفْتَع من قول عنترة :

قَوَدْتُ تَقْبِيلَ السَّيْفِ لَأَنِّي لَمَعْتُ كِبَارِقِ ثَغْرِكَ المُتَبَسِّمِ  
يقول حافظ إن الحامسة في شعر البارودي تدفع بالمرء إلى غمرات القتال فإذا به من  
شدة الشوق إليها ، وفرط الشَّغف بها ، يري السيف المُخَضَّبَ بالدم في صورة الخدِّ  
المورَّد اشراقاً وحسناً — يقول حافظ هذا ، فماذا ترى أنت ؟ ألا ترى الرجل  
مُقبِلاً على السَّيْفِ يُقبِّله ؟ هذا ما أَرَادَهُ الشاعر ، وهو معنى قول عنترة :

كم وقفةً لك ، والأبطالُ طائِرةٌ والحربُ تضربُ صُنْدِيداً بصُنْدِيدِ  
تقولُ للنفس ، إن جاشت اليك بها : هذا مجالكِ سُودِي فيه أو بِيَدِي ا

في البيت الاول صورة من قول مسلم بن الوليد :

يَلتَقِي المنيَّةُ في أمثالِ عُدَّتِهَا كالسَّيْلِ يَقذفُ جُلُوداً بمُجَمُودِ

أما البيت الثاني فيقع فيه كثير من الصُّوَرِ ، وإنَّا لذا كرون لك شيئاً  
منها . قال الشاعر يعني نفسه :

وقولي كَلِّا جشأتُ وجاشتُ مَكَانَكَ مُتَحَمِّدِي أو تستريحِي

وقال غيره : ( لنا الصدرُ دونَ العالمين أو القبرُ )

وقال المتنبي :

عِشْ عَزِيزًا أَوْ مِتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ      بَيْنَ طَعْنِ النَّفَا وَخَفَقِ الْبُؤْسِ

وقال ابن هاني : ( فامّا حياة أَوْ حَمَامٌ مَوَاشِكُ )

وقال أبو تمام :

فَأَثْبَتَ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رَجُلَهُ      وَقَالَ : لَهَا مِنْ تَحْتِ أَخْمَصِكَ الْحَشْرُ

قال حافظ في رثاء عثمان بك السيد أباطه :

يَا سَاقِيَّ أَرَانِي قَدْ سَكَنْتُ إِلَى      مَاءِ الْمَدَامِ عَنْ مَاءِ الْعِناقِيدِ

وقال مسلم بن الوليد :

لَا أَجْعُ الْحَلَمَ وَالصَّهْبَاءَ قَدْ سَكَنْتُ      نَفْسِي إِلَى الْمَاءِ عَنْ مَاءِ الْعِناقِيدِ

وقد ختم شاعرنا الكبير قصيدته بقوله :

وَعَظَّمَ اللَّهُ فِي عِمَامٍ أَجْرَكَو      فِي رَحْمَةِ اللَّهِ أُمْسَى خَيْرَ مَغْمُودٍ

وهو ظاهر العيوب ، فلا طائل في نقده ، وما أشبه الشطر الثاني من البيت

بهذيان المؤرخين من اخواننا الشعراء .

وقال في وصف السفينة التي رجع عليها الاستاذ الشيخ محمد عبده من

الجزائر إلى مصر :

فَهْنَى تَسْرِي كَأَنَّهَا دَعْوَةُ الْمُضْ      طَرٌّ فِي مَسْبَحِ الدُّعَاءِ الْمُجَابِ

وقال شاعر قديم في حجة كنيقة :

لَوْ أَنَّهَا دُونَ السَّمَاءِ غَمَامَةٌ      ضَاقَتْ مَسَالِكُ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ

وقال من خمرياته :

خَمْرٌ قِيلَ إِنَّهُمْ عَصَرُوهَا      مِنْ خُدُودِ الْمَلَحِ فِي يَوْمِ عُرْسِ

ويقول أبو تمام :

وَرَدِيَّةٌ يَمَحُتُهَا شَادِنٌ      كَأَنَّهَا مِنْ خَدِّهِ تُعْصَرُ

وقال ديك الجن :

مَعْتَقَةٌ مِنْ كَفِّ ظِمِّهِ كَأَنَّمَا      تَنَاوَلَهَا مِنْ خَدِّهِ فَادَارَهَا

ومما قيل في المعنى لشاعر قديم :

أقول له ، وقد حيّا بكأس      لها من مسك ريقته ختام  
أمين خديك تُعَصِّرُ ؟ قال : كلاً ؟      متى عُصِرَتْ مِنْ الوردِ المدام ؟  
قال من قصيدته ( غادة اليابان ) :

هكذا الميكادُ قد عَلَّمَنَا      أن نرى الاوطانَ أمّاً وأبا  
ملكٌ يكفيك منه أنه      أنهضَ الشرَقَ ، فهزَّ المغرباً  
وقال ابن هانيء في المعتمد على الله :

ملكٌ يكفيك منه أنه      وجدَ الدنيا ، فأعطى ما وجدَ

### كلمة الختام

للقند الفنى الصحيح سُنَنٌ صَمَاء ، وأحكامٌ مُسْتَبَدَّة ، أَوَّلُ واقعٍ نَحْت  
سلطانها القاهر شخصُ الناقدِ وأدبُه ، وفكرُه وأرادُته ، فهو أسير هذا السلطان  
الذى يتحكّم بكلِّ قُوَّته في كلِّ نفس قويّة الشعور بواجب الامانة ، شديدة  
الايمان بحق النقد الزيه ، وقداسة العدل الادبى ، وليس لك في هذه القضية من  
مرشد أمين كنفك ، فانت حين تقرأ لاحد النُقَّاد شيئاً لا تملك الا أن تضع  
الناقد منذ الكلمة الاولى في المحلّ الاول من مكان النظر ، وموضع التأمل ، فهو  
يتلقى الحكم في مساقط النظرات ، ومواقع الفكر والخواطر التى تستولى من  
جهتك على ما أثبت في كتابه من وجوه النقد وأساليبه ، وصوره وأوضاعه ، وليس  
للمنقود من هذا الحكم الا أثرُه يخلصُ اليه من وراء الناقد كما يخلص اثر الكتابة  
من الصحيفة العليا الى التى تحتها بفعل ( الورقة السارقة ) . ويَجْمَلُ القول في النقد  
انه مُدَّةٌ من العلم والدوق ، في نصاب من العدل والامانة .

أعلمُ هذا حقَّ العلم ، وأُحِبُّ أن يكون غيرى من أدبائنا وكتّابنا على علمٍ صادق  
به ، وما أريد أن أعيب أحداً ، ولكنى أؤثّرُ أن يكون لنا نقاد مُدْرَبُونَ  
أصحاء العقول والاقلام ، وأُهِيبُ بالذين لا يملكون هذه الأداة أن يراعوا حرمة  
الأدب ، وأن يكون لهم من نفوسهم زاجرٌ عن الاغارة على حرمة المقدس طابئين  
مُعْرِدين ، ولقد جهدتُ طولَ حياتى ألاّ أجعل لهذه المُدَّةِ الجارحة سبيلاً إلى

يدى ، فلملّى لا أراها وقد وُضعت فيها مرة أخرى ، وعسى ألاّ أكون قد جرحت  
نفسى بما كتبتة عن الصديق حافظ ، وما أدعى أنى وفيت النقد حقّه ، فقد تجاوزت  
عن كثير ممّا يقع فى هذا الباب ويدخل تحت حكمه .

وبعد ، فليس بمنصف من يظن ان هذه الأخطاء وما إليها فى شعر حافظ مما  
يجرح أدبه ، ويضع من مقامه وقدره ، فقد وقع لكثيرين من خول الشعراء ،  
ومنهم : أبو تمام ، والبحتري ، ومسلم بن الوليد ، والمتنبى ، وابن هانى ،  
وابن الرومى ، مثل ما وقع له من هذه الهنات ، فما غصّ من أقدارهم ، ولا زحزحهم  
عن مراتبهم .

والشاعر اذا كثرت محفوظاته ، ازدحمت للصور اللفظية والمعنوية فى ذهنه  
فاختلط بعضها ببعض اختلاطاً يجعل الاحتراس من أشقّ الأمور وأصعبها ، فقد  
يقع المعنى ، أو الشطر من البيت ، أو البيت كلّّه ، من هذه المحفوظات فى شعره ،  
وهو يظنّه من وحى شاعريته ، وفيض قريحته ، وقد يتبين ذلك ويعرفه بعد حين ،  
وهذا ما نقوله عن ذلك القسم فى شعر حافظ ، فإما الاخطاء اللغوية فنشأ الكثير  
منها شيوع هذا النوع من الخطأ فى الصحف والمجلات ، وفى الكتب التى لاسلطان  
لأدب اللغة عليها .

وقد كان من شاعرنا الكبير أن نظم قصيدة رنانة فى ( ذكرى شكسبير ) قال  
فى مطلعها :

يُحْيِيكَ مِنْ أَرْضِ الْكِنَانَةِ شَاعِرٌ شَعُوفٌ بِذِكْرِ الْعَبْرِيِّينَ مُعَرِّمٌ

وحدث أن لقينته بعد نشرها فقال لى : أقرأت قصيدتى فى شكسبير ؟ قلت :  
نعم ، وابتسمت . فضحك رحمه الله وقال : وماذا نصنع يا أخى وقد ابتلانا الله بلغة  
الصحف ؟ لقد أغرم كتابها بكلمة ( شعوف ) فهى لاتتأرق أقلامهم ، ولا تنجلي  
عن شفافها ، والصواب ( مشعوف ) كما تعلم ، لقد جعلت مكانها كلمة ( ولوع )  
وانتهى الامر .

رحمك الله يا حافظ وأحسن اليك

## مرثية مطران لحافظ

عَظَّمَ اللهُ فِيكَ أَجَرَ الصَّادِ وَبَنِيهَا مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادٍ  
 رَاعَ آفَاقَهَا نَعْبُوكَ حَتَّى لَكَانَ التَّعْيَى بُوقُ التَّنَادِ  
 كُلُّ قَطْرٍ فِيهِ فَتَى عَرَبِيٌّ حَدَّثَ النَّهْبَ الصَّدُورَ التِّيَامَ  
 مِنْ سَمَاءِ الْإِهْرَامِ جَلَلَ قَيْسُو وَاعَى بِهِجَةَ الْمَرَابِيعِ فِي لُبِّهِ  
 لَيْسَ بَدْعًا أَذَى تُعْمَى الشَّامُ وَالْأَحْزَ أَنْ فِيهِ مُتَقَضُّ كُلِّ وَسَادٍ  
 مَا تَرَاهُ يَقْضِي الصَّدِيقَ الَّذِي بَادَى بِالْفَضْلِ مِنْ حَقُوقِ الْوَدَادِ

\*\*\*

كَيْفَ حَالُ الْإِخْوَانِ فِي مِصْرٍ يَا حَا فَظُّ مِنْ وَحْشَةٍ لِهَذَا الْبَيْعَادِ ؟  
 أَيْنَ زَيْنُ النَّدَى مِنْهُمْ - وَهُمْ فِي الظَّرْفِ مَا هُمْ - وَأَيْنَ أُنْسُ النَّادِ ؟  
 كُلُّ حَفْلٍ شَهْدَتُهُ كُنْتَ فِيهِ قِبْلَةُ السَّامِعِينَ وَالْأَشْهَادِ  
 يَأْخُذُونَ الْحَدِيثَ عَنْكَ كَمَا يَشْتَفِي مَنْ يَرْتَوِي مِنَ الْوُرْدِ  
 فَإِذَا مَا تَنَادَرُوا وَتَنَادَرِ تَفَاجُعٌ بِوَرَى تِلْكَ الزُّنَادِ  
 فَطِنٌ تَشْرَحُ الصَّدُورَ وَمَا تَوْ ذِي دُعَابِهَا سِوَى الْإِنْكَادِ  
 رُبَّمَا كَانَتْ الْعِظَاتُ الْغَوَالِي فِي شَطَايَا ابْتِسَامِهَا الْوَقَادِ

\*\*\*

كَيْفَ حَالِي وَأَنْتَ أَدْرِي بِمَا خَلَقْتَ لِي مِنْ فَجِيعَةٍ وَسَهَادِ ؟  
 أَسْعَدِي يَا هَوَاتِفَ الْإِلَيْكَ نَوْحِي أَنَا فِي حَاجَةٍ إِلَى الْإِسْعَادِ  
 أَبْتَغِي الْبَثَّ وَالشَّجَا غَضٌّ مِنْ صَو قِي وَحَرُّ الْأَمْسِ أَجْفٌ مِدَادِي

\*\*\*

وَيْحَ أُمِّ اللُّغَاتِ مِمَّا دَهَاهَا فِي طَرِيفِ الْفَخَارِ بَعْدَ التَّلَادِ  
 ذَاكَ الشُّكْلَ فِي بُنْوَانِهَا الْإِحْجَادِ بَعْدَ الْإِبْوَءِ الْإِحْجَادِ



في رفاقٍ ردّوا على كلّ أصلٍ من عَلاها نفاذةً الاعوادِ  
نَصَرَ الله عهدَهُم وسقاَهُم ماسقٍ الاولين صَوْبُ العِهادِ

\*\*\*

نَجْبةٌ قلّما أُتِيجَ لعصرٍ مثل مجموعهم من الافرادِ  
أيقظوها من الرقادِ وقد جا ز مداهُ أقصى مدى الرقادِ  
وأعادوا جاهلاً في زهاه يترأى قديمُهُ في المعادِ  
أبن سامٍ وأبن صبرى وحفى ورفاقُ جاروهمُ في الهوادِ ؟  
لحقَ اليومَ حافظُ بالمجلين وما كان آخراً في الطرادِ  
شاعرُهُ لم يُبَارِهْ أحدُهُ في الأخذِ بالمستحبِّ والمستجادِ  
يُحْكِمُ الصَّوْغَ في القِلَادِ فإيا تى صناعٌ بمنلها في القِلادِ  
ناثرُهُ تنفثَ اليراعةُ منه نَشْوةُ الخمرِ في مجاجِ شِهادِ  
لم يَكْذُ في مصايدِ اللؤلؤِ الفا خررُ يُبْقَى فريدةً لا صطبادِ  
في تراكيبه وفي مفرداتِ الله ظر حارت تقاسمُ الحُسادِ  
كان في سَمْعِهِ رقيبٌ عليه يَقِظُ من جَهايزِ النُقّادِ  
يقع الزَّيْنُ منه في موقعِ الزَّيْ بَسْنَى الحُلِيِّ والأبرادِ  
فاللعاني تَتَبُّهُ بين المعاني بَمتينِ الاسبابِ والاوتادِ  
والمباني تعزُّهُ بين المباني

\*\*\*

عَدَّ عن وصفك الأديبَ وقلّ ما شئتَ في الفاضل الوفيّ الجوادِ  
مَنْ يَعزِي عنه المروءةَ أَمَسَتْ وبنوها الابرارُ غيرَ عدادِ ؟  
شيمةٌ لا يطيقُ كلفتها غيسرُ أولى العزمِ والحماةِ الجمعادِ  
مَنْ يَعزِي عنه الوفاءَ وقد كا ن يرى نقضَهُ من الإلحادِ ؟  
خُلِقَ ليس في الضعافِ وما يحم لُ أعباءُهُ سوى الأجلادِ

لم يساوم به فينعم بالاً  
 مَنْ يعزّي عنه الصراحة ؟  
 لم يسعه وفي الضمير خلاف  
 ما فتوح الآراء والجن بطوي  
 من يعزّي القصّاد — علماً توخوا  
 ذي الأيادي من كل لون ، واغلا  
 لا ، ولم يرع فيه جانب آد  
 ن الغرم فيها والغنم في الإهداد  
 أن يرى الاعتدال في المناو  
 ها كطى النصال في الانماد  
 أو نوالاً — عن مسعف القصّاد  
 هن في المائزات بيض الأيادي ؟

\*\*\*

مَنْ يعزّي كنانة الله عن را  
 عن فتاها الشاكي السلاحين والماضيها في شواكل الاضداد ؟  
 مى عداها بسهم المصراد ؟

\*\*\*

انما حافظ فتاها ومنها  
 نشأته وأبدته بروح  
 بعد أن كان حاكياً وهو يشدو  
 وبها نخره على الأنداد  
 عبقرى من رُوحها مستفاد  
 جعلته المحكى بين الشوادي

\*\*\*

نظم الشعر في الصبي نظم واع  
 بادى صوغه وفيه فنون  
 ما تعاصى عليه عن عفو طبع  
 لقين ناشئ على استعداد  
 بارعات لا يتسقين لبادى  
 ردّ طوماً له بفضل أجهاد

\*\*\*

غير أن القريض لم يك في مضطرب العيش معنياً من زاد  
 أوجب الرزق فانتأى حافظ يكدح في بيئة من الأجناد  
 موحشا في مجاهل النوب والسودان بين الأغوار والآنجاد  
 تنقضى أيامه في ارتياض وعلى أهبة لغير جلا  
 ولياليه في الخيام ليالى وسن رازح من الإجهاد

في الصميم الصميم من نفسه الحرَّ قَهْمٌ مُصْرَوِّحٌ ومُفْغِدِي  
أَيَّ جيشٍ يدرَّبون لمصرٍ وولاءُ التدريب فيه الاعادي ١٢  
وَلَمَنْ تَمَلَّأَ الفُضَاءَ وعِيداً عُدَّتْ من حديدِ الرِّعَادِ ١٢  
ذلك ما ظلَّ فيه حيناً وحَسَبُ النفس شغلاً به عن الإغرادِ  
غيرَ بَثٍّ يَبْنُوهُ إِنْ أَنَاهُ طَائِفٌ من خياله المعتادِ

\*\*\*

للمقادير في شئون الجماعات تصاريفُ رائحاتُ غَوَادِ  
فُتِنَ الجيشُ والبواعثُ كُثُرٌ فتنَةٌ لم تكن بذاتِ امتدادِ  
فاستطار السُّوَّاسُ واضطربتْ أحلامُ زُرُقِ العيون في القوَادِ  
راهم حافِظٌ فعُوقِبَ في جِلْسَةٍ مَنْ عاقبوه بالإبعادِ  
أخذوه بالظنِّ من غيرِ تحقيقٍ وما آخذوا على أفنادِ  
فتولَّى ، وما لمؤتلفِ العيش بعينه من ضياءِ هادِي  
والجديدان يضربان عليه كلَّ رَحْبٍ في مصرٍ بالأسدادِ  
موغراً صدره لما سيم في غيرِ جُنَاحٍ من جَفْوَةٍ واضطهادِ  
عاطلِ الثوب من كواكبه الزُّهْرُ ومن سيفه الطويلِ النجادِ  
فهو في مصرٍ والبجادُ من الرِّقَّةِ في الحال غيرِ ذلك البجادِ  
لَقِيَ البُؤْسَ ، والاديبُ من البُؤْسِ قديماً فيها على ميعادِ  
حائراً في مذاهبِ الكَسْبِ لا يفرقُ بين الإصدارِ والإيرادِ  
عائفاً خطَّةَ الجُداةِ وفيه طَبَعُ حُرٍّ يَجُودُ لا طَبَعُ جَادِي  
ولقد زاده شَجَى أَنْ سُوِّقَ العلمُ كانت في مصرٍ سوقُ كسادِ  
وسجايَا الرجالِ رانت عليها لَوْنَةٌ من قديمِ الاستعبادِ  
فهمُ وادعوى لاهُوتِ بالزيناتِ والتَّشْهِاتِ والأعيادِ  
عَبَرَتْ مرَّةً في جوانحه ما لَاحَ منها مرَّةً النِّصَالِ الحِدادِ

\*\*\*

فَتَعْنَى - أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ - بَلْ نَاحَ نَوَاحًا يُذِيبُ قَلْبَ الْجَمَادِ  
بَاصِيًا شَجْوَهُ تَرْنُ قَوَافِيهِ رَنِينَ النَّبَالِ فِي الْاَكْبَادِ  
ذَاكَ وَالْقَوْلُ لَيْسَ يَعْدُو شِكَاةً لَوْ جَرَتْ أَدْمَعًا جَرَتْ بِجَسَادِ  
وَعَتَابًا لَوْلَا الْبَرَاءَةُ مِنْهُ عَاجِلًا كَانَتْ سُبَّةَ الْآبَادِ

\*\*\*

بَرِئْتُ مَصْرُ مِنْهُ بِالْحَقِّ لَمَّا  
طَرَأَتْ حَالَهُ تَبَقَّظَ فِيهَا  
فَإِذَا حَافِظُهُ وَقَدْ بَشَّرَ مَا فِي  
وَبَدَأَ لِلْنِّى الْجَلَائِلُ فِيهَا  
مَا نَجَلَى نَبُوغُهُ كَتَجَلَّيْهِ  
يَوْمَ نَادَى الْفَتَى الْعَظِيمُ فَلَبَّى  
وَوَرَى ذَلِكَ الشُّعُورُ الَّذِى كَا  
فَتَأْتَى بَعْدَ الْقَنُوطِ الدَّجُوجَى رَجَاءً لِلشَّاعِرِ الْمُجَوَادِ  
مَصْرٌ مِنْهُ السَّوَادُ فَانْبَجَسَتْ نَارُهُ وَنُورُهُ مِنْ طَلَى ذَلِكَ السَّوَادِ

\*\*\*

أَكْبَرَ الدَّهْرُ وَثَبَةً وَثَبَتَهَا  
وُثْعَاءُ غَدَا هَزِيمًا فَالْتَقَى  
مَا الَّذِى أَخْرَجَ الشُّجَاعَةَ مِنْ حَيْثُ طَوَّعَهَا قُرُونُ الْاِسْتِبْدَادِ  
وَجَلَا غُرَّةَ الصَّلَاحِ فَلَاحَتْ  
فَإِذَا أُمَةٌ أَيْبَةٌ ضَمِيمٌ  
نَهَضَتْ فَجَاءَةً مُتَنَافِحُ فِي آ  
أَجْنِبِيًّا أَلْتِى الْمَرَامَى حَتَّى  
وَهَوَانًا كَأَنَّمَا طَبَعَ الشَّعْبَ  
حَلَبَةً يُعْذَرُ الْمُقْصَرُّ فِيهَا  
لَيْسَ تَغْيِيرُ مَا يَقُومُ بِسِيرًا  
مَصْرٌ مُفْتَنَكَةً مِنَ الْاَصْفَادِ  
رُعْبَةً فِي مَرَابِضِ الْاَسَادِ  
تَزْدَهَى مِنْ غِيَابِ الْاَفْسَادِ  
مَا لَهَا غَيْرَ حَقِّهَا مِنْ عِتَادِ  
نِ عَدُوِّينَ أُسْرَفَا فِي الدَّدَادِ  
تَقْلَعُ الرَّاسِيَاتِ فِي الْاَطْوَادِ  
عَلَيْهِ تَقَادُمُ الْاِخْلَادِ  
وَالْخَوَاتِيمُ رَهْنُ تِلْكَ الْمُبَادَى  
كَيْفَ مَا عَوَّدُوهُ مِنْ اِمَادِ؟

غير ان الإيمان كان حليفاً      لقلوب الطبيعة الانحدار  
فاستعانوا به على ما ابتغوه      ، غير باغين ، من بعيد المراد

\*\*\*

لم يَطْلُ عهدُ مصر بالوثبة الأولى      ودون الوصول خَرَطُ القناد  
فتراحى فيها وثيقُ الأواخي      ووَهى الجَزَلُ من عُرَى الاتحاد  
آيةٌ أَحَقَقَتْ فَقِيضَ أُخْرَى      أثرٌ من عناية الله باد

\*\*\*

فزعت دنشوائى تحمى حماماً      من مُلَمِّين كالذئاب الاوادي  
فتصدى للذود عنه جفاةً      من شيوخ بها ومن أولاد  
حادثٌ روعَ العبيد — أبجشاء      وسلطانُهُ وطيءُ العماذ ؟  
لا ، ولكنَّ عزَّةً أخذته      عن غرورٍ بيأسه واعتداد  
سَقَمَهُ جرأ العبيد المناكيد      على معتقيهم الاجواد  
فخلق بهم أشدَّ قصاصٍ      حلَّ بالآبقين والمراد  
ساقها مُثَلَّةً توهمها خيراً      وكانت عليه شرٌّ نادر  
ذاع في الشعب وصفها ففتت آلامها في القلوب والاجساد  
وكان السباط يحززن في أجلاده والحبال في الاجياد

\*\*\*

أى على الجبين فى الرّوع قاضى      ظالمهم بجأره الهداد  
كان ترجيعُ حافظٍ نوحَ مو      توره فدوى كالليث بالايعاد  
فى قوافى بهن تنطق لو أو      تبت النطق ألسنُ الاحقاد  
علمت خافضى الجناح لباغٍ      كيف شأن الحمام والصياد

\*\*\*

وعد الصابرون بالفوز وعداً      حقّقته أنباؤهم باطراد

انما الصبر في النفوس جنين  
كيف يأتي به ارتجال ولم يأ  
يرهُقُ الحاملات قبل الولاد  
ت ارتجالاً يوماً بقول مجاد  
ط تكاليفه وفي الآحاد  
ير فالتفت لغاصب بالقياد

\*\*\*

بعد وثب في إثر وثبٍ عفيف  
ساور الأمة التردد والتا  
وارتداد في الشوط غب ارتداد  
ث عليها في السير وجه الرشاد  
ع جرت إقدام أهل الفساد  
حولها للسوام أو للرواد  
دق في ملتقى الخطوب الشداد  
كلما ازدادت الصعاب أبوا إلا كفاحاً وعزمهم في ازدياد  
يبدلون القوي وفوق القوى غير مبالين أنها لنفساد  
والزعيم الأبرُّ أطيهم نفساً  
عن النفس في صراع العوادي  
يئس الشعب هل ينجيه إلا  
حدت من خوارق المعتاد  
مصطفى مصطفى بحسبك إن يُذكَ  
كسر فداء أن كنت أول فاد  
مصطفى مصطفى ليهنئك أن أحييت  
قوماً بذاك الاستشهاد  
دب فيهم رُوحٌ جديدٌ له ما  
بعده في القلوب والاخلاد  
تنقضي الحادثات بعدك والرؤ  
وحٌ مقيمٌ فيهم على الآباد  
كاد يوم شُيِّعت فيه نورهم  
لحة من جلال يوم المعاد  
صدروا عنه بالتعارف فيما  
بينهم وهو قوة الاعداد  
واستشفوا لبأسهم فيه مرراً  
كم نحامي أن يدركوه العادي

\*\*\*

هذه مصر الفتية هبت  
رجل مات مخلفاً منه جيلاً  
في صفوف فتية للذباد  
رابط الجأش غير سهل المقاد

إن دعاهُ الحفاظُ أقبل غلما      نَّ سراعُ من القرى والبوادي  
أحدثوا في البلاد عهدَ لجاجٍ      في تقاضى حقوقها وعنادٍ

\* \* \*

عهدُ بثٍّ من أنفُسٍ تلتطَّى      بعدَ طول الحمودِ والاحقادِ  
تخذتْ عبقريةُ الشعرُ فيه      سلماً للعروجِ والإصعادِ  
أبلغتْ حافظاً من الحظِّ أوجاً      راد منه العلياء كل مرادِ  
من رأى الشاعرَ المنفوعةَ يوماً      وحواليه أمة في احتشادِ  
موفياً من منصةِ القولِ يرنو      باتِّشادٍ ولحظه في اتِّقادِ  
واسع المنكبين منفرج الحق      وين يخطو خطاهُ كالتهادى  
باسماً أو مقطّباً عن حيّا      بارز العارضين فوق الهادى  
عزّ منه العذار إلا تفاريق      خفافاً في الوجنتين بدادِ  
ينشد الحفلَ فائتاً كلَّ لبٍّ      ببديع الأيماء والانشادِ  
وبشعرٍ لا يطرف الجفنُ فيه      صادرٍ عن حميّة واعتقادِ  
من رأى حافظاً نذيراً بشيراً      جائلاً صائلاً بغير اتِّشادِ  
غرَداً كالهزارِ أنا وآنا      حرّداً كالخِصمِ ذى الازبادِ  
ينبر النبرةَ العزوفَ فأتد      مع إلّا أصدائها في الوادى  
وكأنّ الاثيرَ يحمل منها      كهرباءَ تهزُّ كلَّ فؤادِ  
فهى عزٌّ للأرْـيحيى المفادى وهى ذلٌّ      للخائس المتفادى  
وهى خفقُ اللواءِ يحدوه من إيقاعِ أبطاله      إلى المجدِ حادِ  
ذاك أن الرُّوحَ المردّدَ فيها      روحُ شعبٍ والصوتُ صوتُ بلادِ

\* \* \*

أيها الراحلُ الذى ملأَ العصرَ      ر بآثاره الرّغابِ الجيادِ  
أعجزتْنى قبل التمامِ القوافى      والقوافى تغضُّ بالامدادِ



قَدْ كَمُنْهَا بِيَانٍ مَفْخَرَةٌ وَاءِ نَذَرِ قُصُوراً بِهَا عَنِ التَّعْدَادِ  
بِتَ قَرِيرَا فَإِنْ ذَكَرَكَ فِينَا أَجْدَرُ الذِّكْرِيَاتِ بِالْأَخْلَادِ  
مُحَلِّيلِ مَطَرِهِ

### حَافِظُ

فِي رَأْيِ مَطْرَانِ

— ١ —

بين الشعراء والنقاد اليوم معركة حادة عنيفة غير حازمة ، تجاوزت الانصاف والفن وعدت على الخلق ، وخرجت من هذه الدائرة السامية دائرة التهذيب والابتكار إلى نوع من المهارة يضر الشعر والفن وينفسد الصلة بين الأدباء جميعاً : فكل فريق سئ الظن بصاحبه يتهمة بالعجز والقصور ، هؤلاء النقاد لا يكادون يعرفون للشعراء كفاية أو جهدا ، ويقولون ليس عندنا شعراء يستطيعون الاضطلاع بما تستلزمه النهضة الادبية المعاصرة ويسدون فراغ هؤلاء الذين أدركهم الموت وكانوا أبراراً سابقين .

وأما الشعراء فلا يبالون بهذا كله ، فهؤلاء النقاد جاحدون وهم أعجز عن تقدير الشعر ، وتدقيق جماله ، واستبطان دوائله وأسراره ، وقد خرجوا من ذلك بقاعدة عدوها أو حسبوها جديدة : هي ألا ينقد الشاعر إلا شاعر .

على أنك إذا نظرت إلى رأى الشعراء بعضهم في بعض رأيت شراً مستطيراً ، واختلافاً كبيراً ، وسوء ظن يربي على ما بين الشعراء والنقاد . فالمسألة في الحقيقة ليست مسألة شعراء ونقاد وإنما هي مسألة طبيعية ، ونتيجة لازمة لاختلاف الأذواق والشخصيات ، واختلاف طرائق النظر والتفكير ، ثم هي بعد ذلك مسألة هذه الصلات الاجتماعية والخاصة التي تصل بين الناس جميعاً ، وتعرض روابطهم إلى الاستقامة أو الاضطراب . فإذا نحن حمدنا هذه الشخصيات ونزعناها إلى الاستقلال فقد يكون حمدنا أكثر إذا وُجِّه هذا الخلاف إلى الشعر وخدمته دون هذا التناوب والمهارة .

وأما نقد الشاعر صاحبه وعرفانه ذلك فهي مسألة قديمة عرفها السابقون وحاولوا صرف النحاة واللغويين والعلماء الخلف عن نقد الشعر ، وقالوا لا يعرف الشعر الا من دفع به الى مضايقه ، فالناقد في الاصل نصف شاعر بل ويجب أن يكون نصفه شاعراً ونصفه الآخر مالماً ، فالشاعر وحده يحكم إلى ذوقه ومذهبه الفني وفي هذا جور واعتساف ، والعالم وحده يحكم إلى الافكار والمذاهب العلمية فيفسد الفن وجماله . ولكن الناقد يجمع بين الذوق الفني الجميل والمقياس العلمي السديد ، ويلازم بين هذين العنصرين ويكون منهما أحكامه التفسيرية او الابتكارية الخالقة . وكل ما يعينني اليوم من هذا الصراع أنه دليل الحياة والشعور بالحاجة الى نهضة إن لم تصل بالشعر الى أسمى درجاته فهي محاولة تضع الاسس وترسم السبيل الى مستقبل وطيّد زاهر .

## — ٢ —

ومع ذلك فأحب أن أقرب من جماعة الشعراء ، ولكنه قرب لا يفيدهم شيئاً ، أحب أن أعرض عليهم صورة من نقد شاعر لشاعر ، بل من نقد شاعر زعيم ، نقد مطران لحافظ ، ولا يظن هؤلاء الشعراء أن هذا فناء في مذهبهم واعترا ف بتفاصيله . كلا ، فليس مطران عندي شاعراً من هذا النوع الذي يشيع بين شعراء العربية قديماً وحديثاً ، وإنما هو طراز جديد في الشعر العربي ، هو شاعر العقل والشعور جميعاً ، وقبلما تجد هذا النوع بين السابقين وإن حاول بعض المعاصرين أن يكونه . مطران فيما أرى عالم وأديب معاً ، وهو إذن ناقد ، وإذا كان لا بد من الافصاح فيجب أن نلاحظ أن هذا الثالث المقدس — الذي جمع بين حافظ وشوقي ومطران على زعامة الشعر الحديث — ليس متحد المزا ج والطبيعة وإن تجانس في الدرجة والتسامي ، فهم شعراء كبار يتفقون في ذلك ولكنهم يمايزون بعد ذلك في كل شيء أو في أغلب الأشياء ، فإذا كان لحافظ سرعة البديهة ، وحلاوة النفس ، وصفاء العبارة وترديد آمال مصر وآلامها ، فان لشوقي براعة الغناء ، وقوة الاسلوب ، وحسن التصوير ، وإن لمطران صحة الفكرة . ووحدة القصيدة ، وصدق النظرة ، والثقافة الشاملة وسماحة الطبع وسمو الأخلاق ، ومعنى هذا للمرة الثانية أن مطران ليس شاعراً فقط أو هو شاعر من هذا الطراز المثقف ، هو عالم وأديب : صياغة بديعة ، وشعور صادق ، وخيال ، خيال عام ، وأفكار سديدة . فإذا التمس عند حافظ وشوقي الجمال الفني فالتمس عند مطران والتمس معه اللذة .

العقلية ، وغذاء الفكر والعاطفة أو غذاء النفس جمعاء . مطران هو الخطوة الموفقة السابقة أمام شكرى وأبى شادى والعقاد والمازنى وأضرابهم من شعراء الثقافة الحديثة .

أليس مطران شاعرا فذاً فى بابهِ ؟ ألسنت أنا محققاً فى اعتبار مراثيته دراسة نقدية لزميله فوق أنها قطعة شعرية باكية ؟

الحق ان هذه المراثية مظهر صادق لرأى مطران فى حافظ فهمى تاريخه أو ترجمته ، ومظهر صادق لشعور مطران نحو حافظ فهمى تمثل عاطفة الشاعر نحو الشاعر ، وهى عاطفة مزدوجة فيها حزن الصداقة الشخصية ، وحزن الربطة الأدبية ، . فكيف أرّخ مطران زميله ؟

### — ٣ —

لدارسى الشعر مذاهب ثلاثة مشهورة . ومن العجيب أن مطران يلمّ بها جميعاً فى قصيدته ويوفق فى ذلك توفيقاً بارعاً ، نعم هو توفيق بارع يجمع بين هذا التقرير العلمى الصحيح ، وهذا التصوير الفنى المؤثر الجميل :

فهذا المذهب التاريخى الذى يعدّ الشعر مرآة الحياة الاجتماعية ، ولا بد لفهم الشعر من فهم هذه الحياة ، ومذهب السير ذلك الذى يعد الشعر مرآة حياة الشاعر ، ولا بد إذاً من درس سيرة الشاعر حتى يفهم شعره فهماً صحيحاً ، ثم هذا المذهب الفنى الخالص الذى يقف عند النصوص الشعرية ويتبين خواصها الفنية شارحاً معللاً . ولكل مذهب أنصاره ومحاسنه ، وهى كلها فى رأى مطران — وأنا أوافقه على ذلك — لازمة لفهم الشعر ونقده نقداً منصفاً سديداً ، وقد فعل . نعم فعل وزاد — كما قلت لك — حرارة العاطفة وبراعة التصوير .

ولست الآن أدرس مطران حتى أقف عند فنه وشخصيته ، ولكنى أدرس حافظاً فى رأى مطران ، فلاأسرّ فى طريقى وليعذرني القراء إذا عرضت لمطران فيما مضى أو فيما يلى فذلك لاني أحببت أن أشركه مع النقاد أو أضمه حيث يجب أن يوضع فى إستواء تفكيره واكتمال نواحيه ، وذلك لأننى قد اتفق معه فى الآراء عن حافظ وقد أخالفه . فهو إذاً مميرى وزميل فى هذه الدارسة ، بل هو أساسها كما علمت . وقد عرض لى أن أذهب هذا المذهب المدرسى فأرتب القصيدة ترتيباً علمياً ، أبدأ بهذه القطع التى تدرس العصر ، وأثنى بسيرة الشاعر ، ثم بفنه ...

ولكنني اعتبرت ذلك عدواناً على أسلوب مطران فاحتفظت به ووقفت عند استعراض أبواب المراثية وتسجيل ما يعنى من الملاحظات .

أما مطلع القصيدة فعاطفة عامة تنظم حزن الشرق العربى لوفاة حافظ وتمثل الرابطة اللغوية ، وهو مطلع لا يوازيه فى صدق العاطفه إلا مطلع رثاء مطران لشوقي على فرق بين عاطفة الأخوة هناك وعمومها هنا ، فتلك عاطفة حادة باكية ، وهذه عاطفة جليلة حزينة ، حافظ له هذه المنزلة الأدبية فى بلاد الشرق العربى التى فقدته ماتمها جميعاً ، ثم نرى شخصية حافظ الفكهة المحبوبة تأتلف حولها القلوب وترى فى أفا كيه حافظ مسرة النفس ، ومرارة النقد ، وخالص الموعظة ، ولكن مطران أشد الناس حزناً لفقد صديقه ، واللغة ذهبت بموته بعد أصحابه السابقين الذين يمتاز منهم بحسن اختيار الألفاظ وضوع العبارات وحسن التأليف ومرامة مقتضى الحال .

حافظ وفى كريم ذو مروءة وصراحة ، مخلص لأمته :

بعد أن كان حاكياً وهو يشدو جعلته المحكى بين الشواذى

نشأ حافظ يمرن على قرض الشعر معتمداً على الطبع والمرانة جميعاً ، يوفق أحياناً ويخفق حيناً ، ولكن الشعر لا يقوت صاحبه فاذا بحافظ بين الجنود فى السودان يضيق بقيود العسكرية الصورية التى يدرب مصر فيها أطا دها ، وينفس عن نفسه بالقريض ، ولكن فتنة ثور فى الجيش ويبعد حافظ على أثرها من السودان . وتضيق به سبل العيش ويشمله البؤس ويحترق بين فقر مدقع وعزة نفس عزيزة فيبكي ويكون شعره باكياً حزيناً يصور نفسه المتألمة :

باكياً شجوه ترن قوافيه رنين النبال فى الأكباد

ثم تكون الحركة الوطنية بزعامة مصطفى كامل . وإذا بهنضة تكافح عدوين : أجنبىً محتلاً ، وداخلىً هو ذلك الهوان الذى طال مداه على البلاد فصار كالطبع الذى يصعب انتزاعه ، والذي يستلزم من الزعماء صبراً ودهاءً وبراعة وإيماناً وطيداً . وكانت حوادث دنشواى وعسف الانجليز وازدراؤهم بالمصريين ، فكان حافظ لسان مصر الغاضبة الحاتقة ، وحافظ مونتور لنفسه ولمصر معه .

وكثر فى تلك الايام السعاليات وكثر المارقون ، ولكن الخلفاء بزعامة مصطفى

صبروا وصابروا وبثوا في الأمة روح التألف والتعارف ، وامتدت آثاره إلى اليوم ، فكان حافظ شاعر مصر الناهضة .

## — ٤ —

أرأيت أن مطران استطاع أن يؤرخ عصر حافظ وأن يلم بسيرة حافظ ، وأن يدرس فنَّ حافظ فيجمع بذلك بين هذه المذاهب الدراسية الثلاث ؟

نعم استطاع أن يبين أهم الحوادث السياسية والاجتماعية الاولى التي أثرت في شعر حافظ وانشأته ولا سيما شعره في الشباب والرجولة ، ثم صور لنا حياة حافظ وبؤسه ، ومزاجه وخلقه وطريقة تكوينه الشعري . ثم هذه الاطوار الشعرية التي امتاز بها شاعر مصر الكبير ناشئاً ، وشاكياً ، ومترجماً روح مصر ونهضتها الاولى ، وأخيراً هذا الرثاء الحار الجليل .

وأنا لا أحب أن أزيد على ذلك شيئاً ، إلا أن هناك أموراً ثلاثة يجب الوقوف عندها :

فأولها أن مطران لم يتناول جميع الحوادث التي تتصل بشعر حافظ ، ولم يذكر كلَّ الرجال الذين اتصلوا به وبشعره كالشيخ محمد عبيد والشيخ أبي خطوة وغيرها . ولا بأس في ذلك فما كان الشعر مجال الاستقصاء الشديد وإلا فسد وذهب جماله ، وحسب الشاعر الإلمام والايحاء وكفى .

وثانيها أن مطران لم يستكمل حياة صاحبه واعتذر بالقافية ، وفي رأي أن ليس هذا عذراً كافياً ولا سيما لدى مطران فيستطيع تغيير القافية ويستطيع تكرار القافية . . ويستطيع غير هذا . . ولكن هل أستطيع أن أرد ذلك إلى أسباب أخرى سوى ما ذكر ؟ أيكون السبب أن مطران لم يشأ التورط في هذه الفترة الأخيرة التي تضطرب حولها السياسة الحاضرة والتي قد يكون أكثرها سراً مكتوماً ؟ مهما يكن من الأمر فعذر مطران هنا ضعيف .

وثالثها أمر يتعلق بفن مطران نفسه ، والحق أنه فنٌ عجيب : فيه كما قلت لك شخصية علمية أدبية مزدوجة لم تتوافر لغير مطران بهذه السعة والقوة والجمال ، وأرجو أن أفرغ لدرس مطران نفسه في فرصة أخرى .

رحم الله حافظاً ومدَّ في عمر مطران ما

## حافظ ابراهيم

ناحية من أثره في الأدب

حقاً لقد جلت مصيبة مصر في حافظ أديباً وكاتباً وشاعراً ، ومحاضراً ومفكهاً ومنداراً . وحافظ في هذا كله حقيق من مؤرخي الأدب العربي بأن يعقدوا له الأبواب ، ويسبقوا الفصول . ولست أسوق هذه الكلمة القصيرة لأدل على موضعه في الأدب العربي ، وأثره بمنظومه ومنشوره فيه . فذلك شيء قد فرغ منه ، أو هو شيء لما يئن بعد الحديث فيه ، على ما يظهر . أما أنه قد فرغ منه فذلك بأن أديباً أو متأديباً في العالم العربي لا يحفل حظ حافظ من هذا أو يقدره حق قدره . وأما أنه لم يئن بعد ، فلقد تظاهر صدر من صفوة العلماء والشعراء والكتاب على أن يدونوا في حافظ ضخام الكتب يحصون فيها شعره ، ويستقرؤون نثره ، ويطلبون المأثور من كلمه ، وكل طريف من بدائمه في مناقلاته ومنداراته ، وكلها حلو طريف ، وبعد أن شمر القوم في هذا واجتمعوا له وجعل يستحث بعضهم بعضاً فيه ، طاف بهم أوبنا على الصحيح ( فإبرؤ نفسي ) طائف من السكون والفتور ، والجود والركود ، فما عدت تسمع من أحده فيه حساً .

وأكبر الظن أن السبب في هذا يرجع الى السياسة ، فإخواننا من السياسة في شغل لقد صرفهم عن كثير ، حتى عن الوفاء بما اجتمعوا له واستحسوا من خدمة الادب العربي في ذكر حافظ ابراهيم .

وبعد ، فانما أسوق هذه الكلمة القصيرة لأدل على ناحية واحدة مما أجدي به على الأدب العربي هذا الشاعر العظيم :

رُزق حافظ ، رحمه الله ، الى الطبع وإدراك الملكة ، خلافاً ثلاثاً لا تستوى لكثير : سلامة الذوق ورهافة الحس . والثانية قوة الحافظة . والثالثة نفاقة اللسان . وكان حافظ رجلاً يهره حسن الصياغة ، ويأخذ فيه جمال التعبير ، فما يسقط في قراءته في فنون الشعر والنثر ، على لفظ شريف أو صيغة ناصحة مشرقة ، كل بهاؤها وترقق ماؤها ، الاتهافتت نفسه عليها وراح يلتهمها التهاماً ، وهي آخذة منه مأخذ أحلى الأصوات في أدق الآذان .

ولقد قلت لك إن حافظاً كان قوى الحافظة ، ولقد بلغ من هذا موضعاً عجباً .

ولو قد كان حافظ فيمن لم ندرك أيامهم ، فلم نشهدهم ونلابسهم لأحلتنا ما يروى عنه في هذا على ما يتزيد به القصاص ، ويسرفون في المبالغة فيه طلباً للافلاق والاغراب .  
ولقد كان ، رحمه الله ، يتناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير ، أو المقالة لكاتب مبرز ، فإذا عيناه تجمزان فيها جمزا حتى يأتي على غايتها . ثم يطرح الصحيفة ، حتى ما تشك في أنه إنما كان يطلب نماذج من بعض أقطارها ليعجل عليها الحكم السريع النظر ، فإيروك بعد أيام ، بل بعد شهور ، بل بعد سنين طوال ، إلا أن تبعث المناسبات ذكر هذه القصيدة أو هذا المقال ، فإذا حافظ يروى ، بظهر الغيب ، أخفر ما فيه أو أحقه بالزراية لبلوغه الغاية من الفسولة والاسفاف !

على أنني شهدت أن حافظاً لم يكن يعلق بحافظته مما يقرأ إلا ما يستجيد ويستملح ، وأحياناً ما يستسخف ويستقبح إذا كان لبعض من يكرههم ويرتصد لتشهيرهم والزراية عليهم .

والمعجب أن الشائع في الاعتقاد أن من كان سريع الحفظ كان سريع النسيان فإذا صحت هذه القضية فقد حق أن يستثنى عليها هذا حافظ إبراهيم !

وقبل أن أتحوّل عن هذا الموضوع من الحديث أقول إن حافظاً قبض إلى رحمة ربه وليس في داره من الكتب إلا ثلاثة أجزاء أو أربعة من الأغاني ( طبعة بولاق القديمة ) وكتاباً أو اثنين في الفرنسية ، وأثارة من الأقاصيص ( الروايات ) العصرية المترجمة إلى العربية في لهجة أدنى إلى العامية ، فلقد كلف دهرأ بقراءة هذه الأقاصيص حتى إذا غادر داره دستها في ( جيبه ) ليقرأها كلما تهيأ له ذلك .

وتسألني : كيف أنه على كثرة محصوله ووفرة محفوظه من بارغ الشعر ورائع النثر لا يجمع من الكتب إلا ما أحصيت ؟ فأجيبك بأنه لم يدع ديواناً لشاعر متقدم إلا قرأه ، وكذلك قرأ كثيراً من كتب أعلام البيان ؛ على أنه ما قرغ من قراءة ديوان شعر أو كتاب تمحوّل فيه ألوان البلاغات إلا خلاه ودفعه عنه باهداء أو طرحه مطرحة حيث كان تغنياً بما أصاب منه وشكته حافظته العاتية . ولقد أذكر أنه من نحو اثنتي عشرة سنة دفع إلى كتاب ( المكافأة ) لأحمد بن يوسف الكاتب المصري ، واستعجني على قراءته وتقليب الذهن فيه تروياً من ناصح بلاغته ، فقرأت الكتاب مرة بعد مرة ، وتعلقت بحافظتي منه كلمات وصيغ سرطان ما تخاذل أكثرها وتماقط عنها مسقط البقلة الذابلة . ثم إذا صاحبتنا بعد السنين التوالى ينتظمه المجلس ،



فيروى القصة من الكتاب بومتها كما جرى بها قلم الكاتب ما تكاد تنشر عليه منها كلمة ، وخاصة ما أشرق لفظه ، وتبهجت ديباجته . وما شاء الله كان !

ولقد زعمت لك أن حافظاً كان نقطة ذرب اللسان ، وكان الى هذا رجلاً يألف ويؤلف فكان يطالب مجلسه المتأدبون ، وكان هو عظيم التفقد لمجالس الاسمار كثير الاطلاع عليها فلا تراه قط الا جياشاً بلسانه في المجلس ، يتنقل في خفة وظرف ، بين جد القول وهزله ، وهو أثناء هذا وهذا ينبوع يفيض بالأدب فيضاً ، ويأبى إلا أن يدفع في حديثه بأحلى ما وقع له من رائع الصيغ .

دعك مما أفاد حافظ نفسه في هذا الباب ، في شعره ونثره جميعاً ، وما أجدى به على من قرؤوه شاعراً ومن قرؤوه كاتباً ، فذلك مما يخرج عن حدود هذا الحديث . وإنما الذي أريد أن ا قوله إن حافظاً ، رحمه الله ، كان مجلة ادبية حية متحركة يُنفى فصيح العربية حيث كان ، ويصلح للمتادين أخطاءهم البليانية ما وقعت له . وكثير من الشعراء لقد كانوا يعرضون عليه قصائدهم قبل ان يطلعوا بها على الناس فيثبت لهم المتجمل ، ويقوى المنخزل ، ويرفع المسف ، ويدكي الخابي . فحافظ من هذه الناحية كان قوة قوية في إشاعة فصيح العربية وإظهار المتأدين على كرائم المحفوات من ألوان بلاغاتها . فكان أثره واضحاً فيما نشهد اليوم من إشراق الديباجة ، وتلاحم النسيج ، وفحولة الكلام . ولا يذهب عنك بعد هذا ان حافظاً قد استظهر صدى صالحاً من الصيغ والتعبيرات الجميلة أدت في صفاء وسلامة كثيراً من متخير المعاني التي جاءت بها الحضارة الحديثة .

وقبل ان أختم هذا الحديث اذكر عن حافظ خلة من خلاله إنصافاً للحق وإثباتاً لصحيح التاريخ : ذلك بأنه مما انعم الله به عليه انه كان قليل الصبر على النظر في كتب العلم والاجتماع في حفظ قواعده والمطالوة في تفهم قضاياها واستخراج مسائله . علوم اللغة وغيرها عنده في هذا بمنزلة سواء ، بل لم يكن له صبر على مراجعة معاجم اللغة فيما ينعم عليه من مفرداتها ، ولعل الامر إذا كثرته في بعض هذا تقدم الى غيره به فرجع اليه بما اصاب . أوكد ان حافظاً قد ثوى وليس في داره معجم واحد من معاجم اللغة . ولكن لقد تهيأت للرجل فرصة لم تهيأ لكثير ، فقد عاش من اول شباب السن الى غاية العمر اعلام العلم واللغة والادب في عصره ، وداخلهم ولا بسهم وحضر مجالسهم وحاضرهم ونادرهم وأخذ عنهم . فانسقت له بهذا مجموعة

قيمة من علوم اللسان وسواها من قضايا الدين وعلوم الحياة. وناهيك عن طوى العر كله في مصاحبة الشيخ محمد عبده والأشياخ حمزة فتح الله، وإبراهيم اليازجي، ومحمد المهدي، وحفي بك ناصف، وسامي باشا البارودي، وإسماعيل باشا صبري، وسعد باشا زغلول، وأخيه فتحي باشا، وأحمد حشمت باشا، وإبراهيم بك المويلحي، وولده محمد بك، وعمه عبد السلام باشا، وإبراهيم بك اللقاني، والشيخ علي يوسف، وأستاذنا أحمد لطف السيد بك، وعبد الحميد بدوي باشا، وأحمد بك أمين، والمرحوم عبد الحميد باشا مصطفى، وأستاذنا العظيم الشيخ أحمد بك إبراهيم، وأصدقائنا الدكتورين هيكمل وطه حسين والأستاذ الجليل خليل مطران وغيرهم، وسواهم من كل من يجري في أبواب العلم والأدب على عرق كريم، حتى وهو ضابط في السودان، لقد لازم أستاذنا العلامة المرحوم الشيخ الخضري بك، وراجعته كثيراً، وروى عنه في قوانين اللغة كثيراً، ولعله كذلك قد اتصل هناك بأستاذنا العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار وأخذ عنه وذلك مما لا أتبينه إلى الآن.

ولعله قد تعاضمك بادي الرأي ما زعمت في بعض هذا الكلام من أن مما انعم الله به على حافظ رقة الصبر على الأكباب على كتب العلم، وفيها علوم اللسان ولعله لو قد فعل لما كان منه كل حافظ إبراهيم!

حافظ إنما طلب العلم في أصنى موارد، وحصله من أكرم مناجه. وانت خير بأن العلماء إذا أقبلوا في إسمارهم على مذاكرة العلم، تخيروا اللب والمصاص، واصطفوا من مسائله ما جلّ معناه وقويت أسبابه، وخاصة ما اتصل منها بوسائل الحياة، وأطرحوا ما لا غناء فيه مما يكظّ الذهن ولا يكاد يجدي في تطبيق قضاياها الكثيرة، وقواعده الوفيرة في دنيا ولا في دين. وحافظ كان رجلاً متسّر الذكاء، صافي الذهن، جوهرى الطبع، قوى الحافظة، كما أسلفت عليك، فأصاب مع هذا من صحة من ذكرت من أولئك العلماء، وطول مذاكرتهم ومراجعتهم من الفوائد العلمية في شتى العلوم ما لا يكاد يدركه الحساب.

وإن تعجب فعجب اننى أرى أن عدم إكساب حافظ على مراجعة معاجم اللغة قد أجدى عليه في صنفته كثيراً! ذلك بأنه — وأرجو أن يعي هذا الناشئون في الأدب بوجه خاص — ذلك بأنه ليس كل كلمة في المعجم تصلح للاستعمال دائماً في المعنى الذى وجهها عليه، فإن الكامة قد تصلح في هذا المقام ولا تصلح لذلك،

وقد تنسقى لهذه الصبغة وتحلو وترقّ، إذ هي تنشز على تلك وتستصعب .  
لهذا أثر حافظ أوشاء له القدر ألا يأخذ مفردات اللغة إلا من أكرم مناجمها، وألا يطالعها إلا وهي في عقود نظامها، فيما حصل من رائع الشعر، وما استظهر من قاتن النثر، فعرف في شعره ونثره كليهما، كيف يضع كل كلمة في موضعها، وكيف يضم الجنس الى جنسه، ويضيف الشكل الى شكله. ومهما اختلف النقد في شعر حافظ وفي شاعريته فانهم لم يفترقوا قط في أنه كان أمهر الصاغة في هذا الزمان .

وخلة أخرى تتصل بهذا المعنى، وهي أن بعض الشعراء إذا أعوزتهم القافية فزعوا الى المعاجم حتى إذا سقطوا عليها استكروها على النظم فخرجت، في الغالب، غريبة شامسة، أو قلقة نابية. أما حافظ فقد سلم من هذا، وإنك ما تكاد تطالع صدر بيته حتى تراك قد أطللت من نفسك على القافية .

\*\*\*

هذه ناحية من جدوى حافظ إبراهيم على اللغة والأدب . أسأل الله تعالى أن يرحمه الرحمة الواسعة، وإن يعوض الادب العربي عنه خير العوض .  
عبد العزيز البشري

\*\*\*\*\*

## حافظ إبراهيم

بين ظرفه ومجونه

وماذا أقول عن حافظ إبراهيم، وأي جانب من جوانبه أتناول بالنقد والبحث والتمحيص؟

إنما أود أن أمرّ في هذه العجالة على ناحية مع نواحيه البارزة الممتازة التي تبيح لي أنشاء اتصال به ردحاً من الزمن أن أنينها وأعجب بها: تلك هي روحه الفكاهة الطروبة، بل نفسه المرححة الضاحكة، بل قلبه العامر بالظرف والايمان مما كان يبدو في نظر بعض الناس استهتاراً وقلة اكتراث .

أتحدث في هذه الكلمة القصيرة عن ظرف حافظ، ومجون حافظ، وخفة حافظ، وكرم أخلاق حافظ، بل سعة نفسه إلى أبعد مدى وأقصى حدّ .

كان حافظ في أخلاقه ومزاجه وروحه ونفسه وسخائه وشجاعته ومنطقه وحديثه بل في كل حركاته وسكناته وسائر مزاياه أديباً كل الأديب .

وإني لا أذكره في جلسته في « بار اللواء » وقد التفّ من حوله الصحفيون والأدباء والمتأدبون وداروا حوله في شبه حلقة وحافظ لا ينقطع « الجرسون » عن التردد على مجلسه ذهاباً وجيئة فإذا ما انتهى مجلسه كان حسابه غير يسير .

وإني لا أذكر صحفياً يُعتبر الآن من ذوى اليسار راهن حافظاً على أمر من الأمور فلما خسر حافظ الرهان أخرج من جيبه فدية رهانه ورقة مالية من فئة الحسين جنبها ، وكان موقفاً عجيباً كاد يُخيّل إلى بعده أني لا أعيش في هذا العالم المادي العنيف !

وأذكر أني دعوتُ حافظاً إلى القناطر الخيرية حيث كنت أسكنها عام ١٩٢٣ إلى غذاء متواضع وقد جاء إليها في بعض أصدقائه كلهم أيسر منه حالاً وأوفر مالاً ، وكانوا يركبون في ذهابهم وعودتهم سيارة « تاكس » وقد دفع لسائقها مائة وخمسين قرشاً وهي تربو على تكاليف غذائي . فلما أظهرت له دهشتي أظهر لي دهشة أشدّ منها وعجب كيف أني أود أن اعلمه الاقتصاد في آخر الزمن !

وإني لأعلم انه جنى من آخر طبعة لكتابه « البؤساء » حوالى ألفي جنيه أنفقها جميعها في نفس الشهر الذي استولى عليها فيه !

أليس عجيباً أن تتاح لحافظ فرص عدة للثراء ثم يموت دون أن يقتنى منزلاً يسكنه في حياته أو كفافاً من المال ينفع من بعده من ذوى قرابته ؟

وشهدت حافظاً في داره بمحلوّان في رمضان وقد استوى للافطار على مائدته جمع من أصدقائه وألوان الطعام تغدو وتروح من كل شهي الطعم جيد الصنع ولكن في أطباق من الصاج ، والتمر الهندي يقدم في بواق من الصاج أيضاً .

وإني لا أذكر في تلك الجلسة أديباً كبيراً وقد قال : « لا ينقص هذه الأكلة الشبهة إلا النلج وهو لا يتكلف ملائيم » فبادره حافظ : « فلتفرض أنك في بيتك ! »

وأذكر أنه سُئل عن صديق من أصدقائه الأفاضل وكيف أن صديقه هذا يفضل الولائم والتردد على الموائد وهو والله الحمد في عيشة وارفة راضية بل كيف أن صديقه على ضعف صحته شديد النهم فقال : « إنه قضى أربع عشرة سنة بأكل ( اردفر )

في الازهر ! »

وأذكر ان اصدقائه أرادوا ان يعشوا معه ويماجنوه في ليلة من ليالى رمضان ويختبروا مائدته وكانت مضرب المثل ومهبط الأدياء والعطاء فاقسموا فريقين وقد دخل فريق منهم في ساعة الغروب فلم يكادوا ينتهون من إفطارهم حتى هاجمه الباقون، ومع ذلك فقد استطاع حافظ ان يستمر موقفه وان يرد كيدهم ويدحض غلة من مجونهم وان يقدم لهم الوفير من الطعام في أصنافه التي كان يولع بها ويمجدها طاهيته الماهرة .

وخرج حافظ الى مقهى الجندي في الاوربا — وكان يتردد عليه أخيراً من داره بالجيزة عصر كل يوم ، يدفع أجرة للعربة أكثر من ثلاثين قرشاً ذهاباً ورجيئة ليندخن نرجيلته هناك في حوالى خمس دقائق ، ثم يدفع ثمنها لخدام القهوة وينقده أكثر من ثمنها نظير خدمته وينصرف — والتقى به إذ جلس في ذلك المقهى أحد أصحاب الصحف الأسبوعية وقال له : « إنما كنت أنفقك لاقترض منك جنيهاً أنا في أشد الحاجة اليه » فضحك حافظ وقال له : « عمرك اطول من عمري ا »

إنى لن أنسى له رحمه الله جلسات رائعة في دار المغفور له محمد عثمان اباضه باشاً برعاية من اعمال مركز منيا القمح ، فقد كان مجلسه فيه ندوة أدبية معدومة النظير أذكره وقد رأى شابين أحدهما وسيم الطلعة والآخر دميمها فقال من فوره للديم مشيراً لصاحبه الوسيم : « هكذا أبناء الامهات الذين تدفع المهور الغالية لأمهاتهم ا » كما لن أنسى طرفه لأحد أدبائنا الافذاذ إذ بادره بقوله : « وعلى هذا القياس تكون المرحومة والدتك قد دفعت ( دوتا ) للمرحوم والدك ا »

ودعاه صديق له ليطلعه على مقبرة بناها لوالده فقال له حافظ : « كم كلفتها ؟ فقال الصديق : « مائة جنيه بالميت ا » فقال حافظ : « دى رخره تبة تردّ الروح ا » وسمع حافظ أن امام العبد لا يفتأ يذكر أنه هو الذى خاق حافظاً فلما التقى امام بحافظ دلف اليه في شأن مادي فقال حافظ : « والله يامولاي كما خلقتنى ا »

ورأى حافظ اماماً يكتب والقلم يتساقط منه المداد فقال « جفف عرقك يا امام ا » ورأى اماماً في بذلة بيضاء وقميص أبيض وربطة عنق سوداء فقال له : « زرر قميصك الافرنجى ا »

وكان حافظ رحمه الله كثير التشكك في صحته مشغولاً بها، يتوهم في نفسه الأمراض

كلها ، لا يسأل عن علة إلا سأل عن عوارضها ليرى أهى منطقية عليه أم بعيدة عنه ، ثم يميل فى النهاية إلى الأخذ بأنه مريض لمجرد تشككه فى شعوره بعارض من عوارضها . وقد ينتهى بالأحاساس بها فيتداوى منها ويتحدث طول وقته عنها . التقي بطبيب من أصدقائه فبادره بشكواه من الأعور وأشار إلى أعلى فخذ الأيمن فردّه صديقه الطبيب بأن وهمه بعيد عن الواقع الذى يعترف به الطب لأن الأعور يكون فى الجهة اليسرى فعارضه : « وانت مالك يا أخى يمكن يكون أعور يمين ! »

ولو حاولت أن أسرد كل نواذر حافظ لامتدّ بى الوقت فلا ترك المقام لغيرى يتناول بقية جوانبه الممتازة وكلها بارزة ، فقد كان حافظ رحمه الله رجلاً بكل معانى الرجولة ، أديباً بكل معانى الأديب ، وكان طيب القلب طاهر النفس صافى الروح لا يحمل لأحد حقداً ولا يحاول الكيد لأحد .

وكان حافظ ينمى على أهل هذا الزمن وهذا البلد بوجه خاص ذلك القتال العنيف من أجل تلك الحياة القصيرة الزائلة ، بل ذلك النضال القوى من أجل ذلك العيش التافه المحدود ، وكان لا يرى المال إلا وسيلة من وسائل العيش لا غاية من غايات الحياة .

وكان رحمه الله يعرف الشئ الكثير عن رجالات هذا البلد ماضيهم وحاضرهم فقد أدرك أكثرهم فى صدر شبابه وبدء صباه ، وكانت صلته بالمرحوم الشيخ محمد عبده تمكّنه من الاشراف من كتب على تصرفات كثير من الناس وحرركاتهم وسكناتهم ومحاولاتهم ، لهذا لم يكن يرى واحداً منهم بالعين الأخيرة الكبيرة بل كان ينظر لهم دائماً بالعين القديمة الصغيرة ، يذكر عن كل واحد من البارزين حادثة أو موقفاً أو مناسبة ثم يعلق عليها بطرفة من طرفه أو فكاهة من فكاهاته ويتندر بذلك فكان حديثه لا يملّ وكلامه لا يرغب عنه .

وكان حافظ يتبرم بميل طائفة كبيرة من جبهة الناس هنا إلى المبالغة : فالعرب كل واحد منهم « شيخ عرب » ! وأين العرب أنفسهم ؟ علم ذلك عند الله ! والنبوغ لا يتسع إلا لواحد : فالدكتور على باشا إبراهيم جراح وكل من عداه « حمار » وسامى الشوا موسيقار وكل من عداه « حمار » ، ومحمد عبد الوهاب « المطرب الوحيد » وإذن فليس مطرب سواه ، وهذا المهندس ليس فى مصر غيره ، وذلك

الكاتب أكتب الكتاب، إلى غير ذلك من المبالغات التي تواضع الناس على أنها الاصل المقبول والواقع المعقول !

وكان حافظ يشكو من تدخل بعض المصريين فيما لا يعنيههم وانصرافهم عن شئونهم للاعتكاف على شئون غيرهم . وينعى على مصر اشتغالها كلها بالسياسة سواء في ذلك صغيرها وكبيرها ، عالمها وجاهلها ، ذكيها وأبلهها ! وقد سمعته يقول إن إنجلترا وهى سيدة الممالك تترك لعشرات من رجالها الاشتغال بإدارة دفة سياستها ، أما مصر فإن بها أربعة عشر مليون سياسى ! وكانت له رحمه الله نظرات ثاقبة فى المواقف السياسية وفى المشتغلين بها ونبوءات تحقق منها الشيء الكثير .

وبالرغم من أن حافظاً قد تعرض لكثير من سخط الدهر وقسوة الزمن وشظف العيش وخشونته إلا أن شيئاً من ذلك لم يؤثر فى خلقه ولا فى رأيه فى غيره من الخلق بل ولا فى الزمن والعيش والحياة .

رحم الله حافظاً وعزى عنه أسرة الأدب وألهمهم السداد والتوفيق فى القيام ببعض ما لهذا الأديب الفذ عليهم وعلى البلاد من حق ، وكفاء ما كان له فى الأدب المصرى الوطنى من أثر ؟

من العظيم

### حافظ واللغة الفصيحة

كنت وعدت الصديق العزيز محرد ( أبولو ) أن أكتب كلمة للعدد الخاص بذكرى حافظ ، وأخذت أسوف ، ولى أعذار فى التسويف حتى كاد يونية ينصرم ، وعدت أفكر فى التحلل من ذلك الوعد ، فأتى على سفر ، وفوق كاهلى واجبات لا بد من انجازها .

ولكن ذكرى حافظ كانت تهيجنى فى كل لحظة ممثلة فى بيته الحزين :

مرضنا فما عادنا عائد  
ولا قيل أين الفتى الالمى

ومر بالبال أتى شُغلت عن شهود جنازته ، فمن المروءة ان لا أشغل عن شهود ذكره .



وأنا أقف في موكب هذه الذكرى عند نقطة صغيرة : هي عمل حافظ في انهاض اللغة الفصيحة .

١ — كان حافظ من المفتونين بأدب اللغة العامية وكان يحفظ كثيراً من الماويل والازجال ، وكان ينشد محفوظاته تلك في حماسة وإعجاب ، ولكن اتصاله بالامستاد الامام محمد عبده حوّل الى قوة طاغية في مناصرة اللغة الفصيحة ، وصادفته للوزير المصلح احمد حشمت باشا فدفعته الى التفكير في رياضة تلامذة المدارس على فهم لغة القرآن ، فأنشأ قصيدته المشهورة على لسان اللغة العربية :

أنا البحر في أحشائه الدر كامنٌ      فهل ساءلوا الغواصّ عن صفداتي  
وأخذ يخلق المناسبات للسخرية من أقطاب الأدب الحديث الذين عجزوا عن وصف ما جدّ من المخترعات على حين استطاع البدوي ان يسبغ على ناقته ابلغ الصفات واشرف النعوت ، واليك قوله في مقدمة ترجمة البؤساء :

« تباركت اسمائك اللهم ! أيدعي البعير ، وهو ذلك المركب الخشن بهذه الاسماء التي تضيق عنها بطون الكتب وهذه مراكب البخار والسكرباء لانكاد نجد لأسمائها مرادفاً في هذه اللغة ؟ فاعسى ان تكون حالنا بجانب ذلك العربي الذي يقول في وصف عيشه :

الايضاض أبردا عظامي الماء والفتّ بلا إدام  
وهو فوق راحلته ظالع على قتب يكاد يدمى عجانته تحت شمس تكاد تأكل ظلها في مفازة .

تمشى الرياحُ بها حيرى موهبةً      حسرى تلوذ بأكتاف الجلاميدِ  
اذا أردته على ان يصف تلك الراحلة العجفاء ، وأردتنا على ان نصف ونحن نستطيب من صنوف الطعام ما يضيق به صدر الخواص ، ونقبوا أريكة « الاوتميل » تحت ذلك الظل الظليل ، في مخارف ضفاف النيل ، على فراش وثير ، ومتكأ من حرير ، بين نسيم عليل ، وماء سلسبيل ، ذلك المركب الذلول الذي لا تلحق به صافنات الخيول ، فوقفنا أمامك موقف الحائر ، لا نعرف له اسماً يدل على مسماه ، ولا مرادفاً في اللغة يؤدي معناه ! نخذوا ايها القادرون على الاصلاح بيد اللغة ، وانظروا كم ادخل فيها آباؤكم من كلمة فارسية . وهذا كتاب الله بين ايديكم يأذن لكم بما ندعوكم اليه ، وهذا باب الاشتقاق وباب النحت لا يزالان بحمد الله مفتوحين لم

يصيبهما ما أصاب باب الاجتهاد فادخلوا منها آمنين .

وخلاصة هذه الكلمة أن تخلف اللغة عن وصف المخترعات الحديثه ليس من عيوبها ، وإنما العيب عيب الكسالى العاجزين الذين لم يخلقوا من الألفاظ والتعابير ما حق البدوى الضال في الصحراء . وسخرية حافظ التي قذف بها الأدباء منذ عشرين عاماً لا يزال لها مكان : فعندنا بحمد الله مئات من الأشباح الجبيلة ترمى اللغة بالضعف والتخلف ، كأن اللغة تخلق نفسها خلقاً ثم تتقدم طائفة خاشعة لخدمة الأدباء سكان القهوات !

٢ - ومن أجل ما قرأت لحافظ رأيه في قوة الاصطلاح ، وهو رأى نشره في مقدمة كتاب الاقتصاد الذى اشترك فى ترجمته مع الأستاذ الجليل خليل بك مطران . وهو يرى أن الاصطلاح ليس بأوهى قوة من النقل ولا هو بدونه فى مراتب الهيمنة على اللغات « فامن كلمة تنبت ولا من لفظة تذوى الا وللاصطلاح يد فى حظها من الموت أو الحياة » .

وكانت حياة حافظ نفسها دعاية لقوة الاصلاح ، وان كنا لاحظنا أنه كان يخالف بين قوله وفعله ، فكان فى مجالسه من أوسع الناس صدرأ ، وأعرفهم بحرية رأى ، فاذا نظم قصيدة أو انشأ رسالة تكلف وتحذلق واستوحى المعاجم واغلق الباب فى وجه الاصطلاح !

٣ - واهم خدمة قدمها حافظ فى حياته الى اللغة الفصيحة هو تمكنه من الأدب القديم ، فقد كان يشعر كبحودة محفوظه وتنوعه ان العرب أفصح الناس وابلغ الناس ، وكان يتدفع فى انشاد الشعر القديم تدفع السيل ، ثم يطوف بمحذلق الملح والفكاهات البدوية والحضرية ، فلا تنصرف الا وانت أشوق الى دراسة الأدب الفصيح الذى يمكن مثل هذا المحدث من ناصية اللبابة والظرف وحلاوة الحديث .

وبعد ، فهذا ما سمح به المخاطر المكشود ، ولنا عودة فى الذكريات المقبلة ، فلن يكون هذا آخر العهد بشاعر مصر والنيل

زكى مبارك

## صفحة مجهولة

من حياة حافظ

من أوليائه

في صيف سنة ١٣٠٥ هجرية كنت طالباً في الجامع الأحمدي بطنطا وقد سافرت في أيام العطلة الى بلدنا القرشية ، ثم عدت في أواخر شعبان من تلك السنة الى طنطا ، فاذا باخواني واصدقائي يلوذون بفتى غص الاهاب جديد الشباب وقد أمرعوا بتقدمي اليه وتقديمه الى "باصم الأديب الشاعر" محمد حافظ ابراهيم ، ولم تمر الا عشية أو ضحاها حتى أحسست من تقسي ميلا اليه بمجاذب من الأدب الذي كان نعمة تقسي حتى آل ذلك الى غرام بأدبه وما يشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة وبديهة مطاوعة وسرعة خاطر وحضور نادرة .

وكان دأبنا في رمضان تلك السنة أن نصلي المغرب والعشاء والتراويح معاً ثم نلبث في صومر ممتع ومطارحة للشعر ومذاكرة في نوادر الأدب وما كان يطرف الحضور به مما يقف عليه من جيد القريض الى أن يأتي وقت السحور . ثم نعود بعد السحور إلى ما كنا فيه الى انبثاق الفجر فنؤديه ثم نخرج بغلس الى خارج المدينة حتى نصل الى قرب بلدة قعاقفة ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلوع فيذهب كل واحد منا الى بيته ثم نعود الى مثل ذلك إذا جن الليل .

وكان الذين اعتادوا الخروج معنا الى ما نخرج اليه هم :

- (١) محمد حافظ ابراهيم (٢) محمد حلمي الجيزي أفندي عمدة الجيزة سابقاً
  - (٣) السيد محمد ابراهيم صلاح التاجر بطنطا الآن (٤) الشيخ محمد ابراهيم البيومي من مدرسي الازهر الآن (٥) كاتب هذه السطور عبد الوهاب التجار .
- ظل هذا دأبنا مدة شهر رمضان وفي أواخره بصرنا ببشروش جميل الصورة في حديقة مدرسة الفرير ، فتقدم واحد منا وطرق بحلقة الباب ليفزعه فكان المنظر جيلاً . فعاودنا ذلك العمل ثلاث ليال . ولكن جماعة الفرير ظنوا تعمد ذلك لافلاق راحتهم ، فلما كانت صبيحة آخر يوم من رمضان خرجنا من المسجد بغلس وأمرعنا الخطأ حتى أتينا إلى مدرسة الفرير والظلام لم يقوض خيامه ، وما أن تقدم واحدنا لتحريك حلقة الباب حتى هب جماعة من الفلاحين قد أكنههم جماعة الفرير للقبض

علينا فعلقت حبائلهم بمحمد حافظ ابراهيم شاعر النيل ومحمد حلمى الجيزى افندى .  
أما أنا والشيخ محمد ابراهيم البيومى فاسلمنا أرجلنا للريح وطرنا مع البازى عليه  
سواد ولما أمتنا الطلب وقفنا ننتظر اخوينا الى ان فضحنا النهار ولم يبق للانتظار  
فائدة فذهبنا بحمرة ما بعدها حسرة — وكان السيد محمد ابراهيم صلاح قد  
تخلف عن الذهاب معنا فى هذه المرة .

ولما كان هذا اليوم آخر أيام رمضان ذهبت إلى بلدنا لقضاء العيد هناك وقد  
اتفقت مع السيد محمد ابراهيم صلاح والشيخ محمد ابراهيم البيومى على أن يكتبنا  
إلى بما يتم من أمر حافظ ومحمد افندى حلمى وأن يلحنا لى لحناً أعرفه، وذهبت وأنا  
على أحمر من الجمر — وفى اليوم الثانى من أيام العيد وافتنى تذكرة بوسنة من المرحوم  
حافظ بك بماتم :

وذلك انه لم يرتفع النهار حتى ذاع الخبر وأرسلت التلغرافات لقنصلية فرنسا .  
وعلم كل من المرحومين نيازى افندى مهندس تنظيم طنطا وهو خال حافظ والشيخ  
محمود الجيزى شقيق حلمى افندى ، فذهبا إلى جماعة الفرير وكلهما فى هذا الشأن  
فرضوا باطلاقهما ( وكانوا قد سلموها إلى الضبطية ) بشرط أن يعودا إلى المدرسة  
ويستسمحا ، ففعلا واتهى الأمر باطلاقهما .

ومما حصل لحافظ فى ذلك العهد أن خاله أغلظ له القول مرة فى شأن من الشؤون  
وزجره ، فكتب إلى خاله :

تقلت عليك مؤونتي إلى أراها واهية  
فأفرح فاني ذاهب متوجه في داهية ١

وكان كثيراً ما يشكو الدهر ويندب سوء حظه ويتبرم بأحداث الزمن ويتمنى  
لو يوافيه حمامه — فمن ذلك قوله :

عجت لعمري كيف مُدَّ فطالا وما أثرت فيه الهموم فزالا  
وللموت ما لى قد أراه مباعداً وجل مرادى ان أوسد حالا  
فللموت خير من حياة أرى بها ذليلاً ، وكنت السيد المفضلا

ولقد أوردت عليه هذه الأبيات قبيل وفاته فتمعجب أن يكون هذا الشعر  
صادراً منه .

ومن آيات ذكائه أنه كان يسمع الفقيه في بيت خاله يقرأ سورة الكهف أو سورة مريم أو سورة طه فيحفظ ما يقول ويؤديه كما سمعه بالرواية التي قرأ بها الفقيه !

وكان إذا وقف على بيت نادر أو شعر بارع يبادر إلى قبل أن يُسمعه انساناً آخر ويسمعي ما أعجبه ، وكان لا يُعجبه الا كل مرقص مطرب .

### حافظ المحامي

كانت المحاكم الأهلية حديثة الوجود ، وليس للمحاماة قانون مسنون ، ولا توجد شهادات حقوقية في طائفة المحامين ، ولم يكن نظام الامتحان قد استحدث ، فكل ذي قضية جاء بشخص وقال إني وكلته قبل منه .

وقد ضجر حافظ من فراغه ، فذهب إلى المرحوم الشيخ محمد الشيمي المحامي بطنطا ( بك فيما بعد ) واشتغل عنده في مكتبه ، وكان يسافر إلى المحاكم الجزئية القريبة من طنطا ويرافع في القضايا ويكسبها .

وخلاف حصل بينه وبين محمد الشيمي بك ترك كتبه وترك له هذين البيتين :

جِرابُ حَظِّي قد أفرغته طمعاً      بباب أستاذنا الشيمي ولا عجباً

فعدا لي وهو مملوء فقلت له :      ممّا ؟ فقال : من الحشرات واحرباً !

فأسف المرحوم الشيمي بك لخروجه وحاول استرضائه وعودته إلى العمل معه في مكتبه فلم يقبل .

انتقل بعد ذلك حافظ إبراهيم ليشغل في مكتب محمد أبي شادي بك بطنطا فكث معه مدة كان فيها مغتبطاً كل الاغبطاء ، وكان أبو شادي بك يرى نفسه قد عثر على كنز ثمين فكانا يتنادران بالأدب ويتطارحان الأشعار إلى أن خرج حافظ من مكتبه إلى مكتب عبد الكريم فهم أفندي المحامي فكث فيه مدة من الزمن يشغل عنده . وكان مكتب عبد الكريم فهم أفندي ومكتب إبراهيم الهلباوي بك متجاورين ومحلهما كان بالوكالة التي جُمعت فيما بعد المعهد الاحمدى ، وكان كثيراً ما ينتقل إلى مكتب إبراهيم الهلباوي بك الذي يسمّى بمجديته وأدبه .

## ﴿ مرثية حافظ ﴾

لاستاذه وصديقه القديم محمد ابى شادى بك

كان المرحوم حافظ مولواً فكان قليل الكتابة بل نادرها ، وكان لا يأنس إلى تدوين شعره مكتفياً باملائه عن ذاكرته القوية ، ولذلك نجد نماذج خطه نادرة وخاصة شعره . بيد أننا نجد حافظاً يشدّ عن هذه القاعدة في مرثيته البليغة المؤثرة لأستاذه في المحاماة وصديقه وزميله في الأدب المرحوم محمد ابى شادى بك . وإليك نصّها الكامل كما كتبها ، وهى منال من وفائه الرائع :

عجبتُ أن جعلوا يربا لذكر اكا  
 كأننا قد نسينا يوم متعاكا  
 اذ كنت يا ابا شادى طويحاً  
 ذكر الهيل شق أنا شلوفاكا  
 لاجبة النيل والوادي رسا كينه  
 جمع لصولك موصول يذراكا  
 دعشت قينا نيمرا طاب موردا  
 أسمى سجايا الفتى أدنى سجاياكا  
 فما كأولائك في بر وفى كرم  
 أولى كريم ولا عقبى كعقبياكا

فضيلة الوتر المعبود من ثلاث  
 أخاء فمكة تغلوا عنه فضايا كما  
 أبدلت يد نداء الحليد الح  
 دكان سر ملك أني شئت فتلا كما  
 أجهلت ما فصلوه في تصايدهم  
 متى لقد نظروا بالحد مشوا كما  
 لم يبق لي قيد شبر صاحب دلم  
 بئس لي القود لا بعد ولا ذاك  
 يا ندم من الذكر والنسب كشتا  
 ها انا والحمد قد جادرت مولانا  
 لو لم يكن لك دينا لك نصر  
 سوى ركني لقد جملت دينا كما  
 مفضة

\*\*\*

رحل بعد ذلك حافظ ابراهيم الى مصر ودخل المدرسة الحربية وكان دخولها منتهى ما يتمناه . وعقب ذلك رفعت دعوى على خاله محمد نيازي افندي بمحكمة طنطا الاهلية وحُكم عليه بسنتين . فنظم حافظ قصيدة للخديوى المرحوم محمد توفيق باشا يستعطفه بها على خاله ، فوفقت قصيدته من نفس الخديوي موقعا حسنا فأصدر عفوه عن خاله وعينه مدرسا للامراء أحمد سيف الدين ومحمد ابراهيم وشويكار هانم ، وبقي بعد مفارقتها عهد الدراسة يستولى على مرتبه الى وفاته .

وأما حافظ فقد تخرج من المدرسة الحربية سنة ١٣٠٩هـ . وتقلبت به الاحوال الى أن صار شاعر النيل غير مدافع . فرحمه الله رحمة واسعة وعوض مصر والعربية فيه خيرا ما

عبر الوهاب النجار

\*\*\*\*\*

## حافظ لسان عصره

أصبحت أجفل من الشعر وأفرق من الكلام فيه وأستجير منه بالحذر ، وأحسب ذلك لآثي طائفت أزم التعبير به زمنا فأخفقت ، وعدت أندم على ما أضعت فيه من جهد وعمر ، وأعجب للفرور الذي كان يزين لى الزهو به . ولست أتكلف التواضع ، فإن هذا ما أنطوى عليه الآن من احساس ورأى ، وقد يتفق لى أحيانا أن تقع عيني على جزء من ديوانى فأفتحها وأقلب صفحاتها وأقرأ ابياتا هنا وأخرى هناك ثم أطوى الكتاب وأرده الى حيث كان مدفونا وليس بى الا الدهشة من أنى كنت أعد هذا كلاما يستحق النشر والاذاعة . وكنت قديما أتناول على الشعراء وأنناول بالنقد واقسو فى ذلك عليهم واعنف ، بل لقد افتتحت — اوعلى الأصح كان مما افتتحت به — سيرتى فى الكتابة بأن نقدت حافظا رحمه الله فى سلسلة مقالات كنت أعز بها وأعتدها شيئا ثمينا فجمعتها ونشرتها فى كتاب بيع من نسخة القليل وتكسدا اكثرها عندى فبعته لبقال رومى — لعله أمى أيضا — ليلف فى ورقاته ما شاء من جبن وزيتون أو يفعل بها ما هو شر من ذلك . وقلت



وقد خلصت أنفاسي واستراح قلبي : هذا خيرٌ ، فما يستحق مثل هذا النقد الا هذا المصير .

ولم يتغير رأيي في الشعر ولكنني صححت موقفي من حافظ ، فهو عندى لسان العصر الذي عاش فيه ، وصوت الشعب الذي انجبه : ولم يكن العصر يحتاج الى ارفع من هذه الطبقة ، ولا كان الشعب يقدر ان يحسّ روحه الا في مثل شعر حافظ . نعم ظهرت المدرسة الحديثة في الشعر والأدب على العموم منذ أكثر من عشرين سنة ولكنها لم تكن مدرسة « شعبية » فلم تستحوذ على الجمهور استحواذ حافظ عليه ، ولم تستولر على هواه مثل استيلائه ، ولم يتصل ما بين هذه المدرسة الجديدة وبين الشعب الا بعد أن أخذت دائرة الثقافة في الاتساع .

حافظ شاعر شعبي ، ولست أقصد الى الاضرار به أو الغضب منه ، فإريد أكثر من ان اقول انه يصور روح الشعب الموجد الحزين المتجملد في شيء من الوجوم والدهشة والحيرة : الحيرة في امر نفسه ، والحيرة في امر هذه المقادير التي لا تجري الا بالدواهي والأرزاء . وما قرأت شعراً لحافظ الا أحسست ذلك منه . واكبر ظني ان غيري من القراء مثلي . وليس بالقليل ان يكون رجلٌ لسان أمة والهاتف بنجوى ضميرها وسر روحها ، مهما كان الرأي في قيمة الشعر من حيث هو شعر وبغض النظر عن بواعثه وعن الروح التي صدر عنها الشاعر والغاية التي اعتمدها وقصد اليها ؟

ابراهيم عبر القادر الماضي

## موبك الذكريات

أو

النأي الباكي . . .

( مهداة إلى روح المغفور له محمد حافظ ابراهيم شاعر الجلال والذكريات )

مالك اليومَ واجماً يا خيالي كيف لا ترسمُ الدموعَ الغوالي ؟  
سقطت فوق صفحة الخلد دُرّاً وتهادت مضيئة كاللآلئ

هبطت : كلُّ دمةٍ كوكبٌ نفمٌ ، عظيمُ الضياء ، ساميُ الجمالِ  
وبروحى أفديك من ألمِ الوجدِ ، حياتي ، ومن ضنى وهزالِ  
« . »

وعجيبٌ يا فتنتي أن نلوحى ثرةَ الدمع ، وهو من قبسِ روحى  
كان خيراً — لو ترأفين بحالى — حبسه ، إننى كثيرُ الجروحِ  
أفلا تعلمين أن فؤادى منبعُ العشق والهوى والطموح ؟  
أوهل تُنكرين أن دموعاً منك تُعري شغافَ قلبى الطليح ؟  
« . »

ولربِّ ابتسامةٍ منك بالأمس أضاءت بيسمةٍ للسعادةِ  
وأحاطت روحى بهالةٍ حُسنِ طالما قد خصصتها بالعبادةِ  
وفؤادى يا طالما عندها صاغ قصيداً مُنصّداً فأجادهِ  
صاغه من نسائمِ الفجرِ شعراً وسقاه وجدانه وودادهِ  
« . »

والذى يقتل الشعورَ أدكارى زمنَ الوصلِ إذ وقفتِ جوارى  
والعيونُ الظَّاهِةُ تُوحى مع الصمتِ كلاماً يهيج منه أوارى  
والشفاهُ الرقاقُ تهفو على القُربِ لرشفِ محبِّبٍ واعتصارِ  
ولهيبٍ من وجنتيك مضى خمةَ الليل ... ياله من نارٍ !  
« . »

كيف أنسى النخيلَ فى جانبِ الجدولِ طالت تروم لمسِ السماءِ  
ترسل اللحنَ ، حينما تخطر الريحُ حزيناً ومُشجياً كالرثاءِ  
شربتُ من دماءِ قومٍ تولّوا فاستطالت فروعُها فى الفضاءِ  
وكذاك الحياةُ تُفنى لتعطى وعطاءِ الحياةِ بابُ الفناءِ  
« . »

كنتُ يا طالما أُصوّبُ طرفي في فضاء الوجود أنشدَ فَنَمَا  
لم أجِدْ غير أننا في وجودٍ يُدْهِلُ العالمَ البصيرَ فيمعى  
كلُّ ما فيه مُلغِزٌ ، لستَ تدريه ، ولو كنتَ قد تمكنتَ عِلْمَا  
بَيِّدُ أَنَا ، هُنَا ، نحاولُ بالشـ\_\_\_\_\_رِ بياناً لكل لُغزٍ مُعَمَّى

« . »

وإذا ما التوى على الفهم شئٌ فابعتُ الشعرَ صوبَه يَتَهَادَى  
إن بالشعر ينجلي كلُّ غيَمٍ وبه تُصْبِحُ الوهادُ مهَادَا  
أرغى العيش ، مزهرُ الروح ، نجواه سدادٌ لمن أراد السدادَا  
يرسم الكونَ كيفما شاء ، لا يتبع رأياً ، ولا يلين انقيادَا

« . »

يا عزاء النفوسِ في ساعة اليأسِ ، وساقى النفوسِ راحَ السرورِ  
قُمْ ، تَحَدَّثْ عن الفؤادِ ورجِّعْ نغماتِ الآسى ولحنَ الجبورِ  
لا تُفَرِّقْ بالله بين شجونى وسرورى ، فكلُّ ذاك شعورى  
مثلهم الروح .. قُمْ أيا شعرٌ واهتفِ أنتَ خدنى ، وناصحى ، وأميرى

« . »

ما الغرامُ الذى به نَتَغَنَّى كلَّ يومٍ في نثرنا والقصيدِ ؟  
أهو حُبُّ الجمال والعقل ، أم هل هو حُبُّ الغنى وحُبُّ الخلودِ ؟  
الغرامُ الغرامُ نورٌ من الروح ، سَبَّوحٌ بروحِ طيرٍ شريدِ  
ساربٌ في صماوة الكونِ يرتادُ فضاءَ مُنْزَهاً من حُدودِ

« . »

يُدْهِلُ الناسَ طائراً ، فإذا حطَّ بقلبٍ ، أصابه فاعْتَلَا  
هو نُورٌ ، لكنه حينما يطرق القلبَ سَعيَرٌ في نارها القلبُ يَصَلَّى  
هو روحُ الحياة ، يستعذب الخلقُ الأمانى متى بدا وأهلاً

يخلق العلمَ والنبوغَ ويُفنى كلَّ فنٍّ إذا طغى وتَوَلَّى

« ٠ »

يا فتوادي ، أعِذْ عليَّ غرامي وتحدث عن شقوتي وسقامي  
بُثَّ في الشعر ما عرفت عن الغيد ، ولمُنَى إذا رأيت ملامي  
علم الله كم قصرتُ بياني وقربضى على الهوى والتسامي  
ولكم كنتُ أنفع الغيد بالشعر ، فما كنَّ يستسفن كلامي !

« ٠ »

كيف بالله يستسبح جهولٌ آيةً من بلاغةٍ وبيان ؟  
كيف بالله تفهم الشعرَ أو كيف تحبُّ البيانَ هذى الغواني ؟  
هن برزْنَ في مغازلة الناس ، وقد فُتُنَّ في صنوف الدهان ...  
ولقد كنتُ كيفما شئتُ دهرًا ذا مجونٍ وخبرة بالחסان !

« ٠ »

وسقى الله ذلك العهدَ ، قد كنتُ سعيداً به وكنتُ طروباً  
حيث كنا نزعى الكواكبَ زهراً ونرى في السكون سحراً عجيباً  
غمر الحُسنُ كلَّ شيءٍ فبقنا نحسب الخلدَ في الحياة قريباً  
يارعى الله في ثرى (أجلد) كوخاً صغيراً لقيتُ فيه الحبيباً ...

« ٠ »

ضرب الدهرُ بيننا فغدا الجسمُ محيلاً كدارسِ الاطلال  
ونرى الشوقَ بالفتود فغنى باكي الشوقِ في القوافي الطوال  
وله العُذرُ ... كيف ينسى التلاقى في ضياءِ الهلال والعيشُ حالي  
والسكون المقيمُ أرخى سدولاً تحجبُ الحبَّ من أذى العُدالِ

« ٠ »

والنسيمُ البليلُ من جانبِ الجدولِ ، يهفو بعانق الأرواحِ  
هبَّ يُبذِكِي الغرامَ في خافقينَا ثم بُنَضِي عن النفوسِ الجراحِ

يدفع القلب لاهتـ الثغر للرشف ، فيحسو من اللي أقداحا  
والعناق العنيف كم جمع القلبين في سورة الغرام فناحا

« . »

من يقول الغرام اثم وعار قل له أنت جاهل لست تدري  
أنظر الحب في الحائل يا غر ، عنيفا ما بين زهر وزهر  
وانظر الحب في الربى كم تبدى عاصف الشوق بين طير وطير  
إنما آية الحياة هي الحب ، فن لم يحب عاش كصخر

« . »

رُبَّ حُسنٍ في الروض أيقظ حسى وأهـاج الكين من أفكارى  
كم مشى القلب صوبه يتغنى بنشيد ممت به أشعارى  
حبذا وقفتى مع الزهر في الروض ، أقول القصيد في الابدكار  
والطيور الخفاف تطفر نشوى وسكارى ، وما انتشت من عقار

« . »

آه .. ما غرر الجمال بقلبي فدهانى وصرت منه المعنى ؟  
أهو أنى نفحته وجدانى ودمائى مراقبة ، فتجئى ؟  
أهو أنى بكرت كالبلبل الصّداح في الروض ساجعا أنفنى ؟  
أهو أن الدموع مئى حررى صغفها في مديحه خير معنى .. ؟

« . »

وأنا شاعر الملاحه مذ كانت ، وفي أى صورة تتجلى  
أجتليها بخاطرى وفؤادى وبفكري ، مما ترى العين ، أحلى  
نظرة القلب بعدها نظرة العين ، وشتان بين عليا وسفلى  
رُبَّ أعشى العينين ينظر للشئ بقلب منور يتملى !

\*\*\*

( روضة الشمر ) كيف أزهارك اليوم ، وكيف الطيور في عذباتك ؟  
 كيف حال ( البحيرة ) الضحلة الماء ، وكيف ( النخيل ) في جنباتك ؟  
 كيف ( دوحاتك ) البواسق أسدلن شعوراً ، وكيف حال ( مسهاتك ) ؟  
 تمتلئ ( الفلك ) في ( البحيرة ) جذلي ونشم العبير من زهراتك

« ٠ »

تبعث الشجوة في الفؤاد بمجداف اذا صافح ( البحيرة ) رتل  
 وتغنى فينصت الطير في الدوح ، ويسبي الغناء أرخم بلبل  
 زهرة الروض في الاصيل وفي الفجر ، وريحانة الفؤاد المبلبل  
 طالما صفت في هواك قريضاً زاهياً كالورود ، بل هو أجل

« ٠ »

وحينى إلى لقائك يدوي بفؤادي دوى حيران جائر  
 يرسل الدمع والأنين هباءً وإذا همم ، أقعدته المقادر  
 حزبه الأيام في ميعه العمر ، وقدته بالسيوف البواز  
 حطمت كوخ حبه ونفته عن فتاة الاحلام أخت الجاذر

« ٠ »

رب ، ماذا جناه قلبي فيشقى وبخمر الصدود والهجر يسقى ؟  
 ماوني الدهر عن هواه ، فأرداه وشيكاً وسامه الخسف رقا  
 رب إني جئت من وثبة الدهر ، واني أكاد أزهر عشقا  
 وترى عائد حبيبك يا قل ب مثنياً ، أم عاف حبك حقاً

« ٠ »

وتعالى يا طير واسمع شكائي آخر الليل في خفوت وهمس  
 أرقب النجم في الدجى رفقا كفؤادي إذا طغى بي يأسى  
 وأقول القريض فيه عزائي وبه راحة قلبي وجسى

وإذا عصَّك الأسي ، فالتقوا في عند جاماتها شرابُ التأمي  
« . »

وإذا ما أردتَ نظمَ القوافي فليكنْ في المروج والأزهار  
إنها — لو عقلت — أظهُرُ روحاً من ملاح ، غرامُها كالقمار  
وقلْ الشعرَ في جمال الأماصي وترنم بحسن شمس النهار  
حسن كلِّ ما على الأرض من زهر ومن أنهر ومن أطيار  
« . »

ولماذا الأنيثُ ؟ حطمتَ نفسك وعلامَ النحيبِ والعيشُ زهرُ ؟  
أتعدُّ الحياةَ خلواً من الخير ، وفي كلِّ ما ترى العينُ خيرُ  
لا تُحقرْ مستصغراً وضعيفاً ربما منه قد يُصيبك برُ  
رُبَّ كلبٍ أطمعته ، يمنع الضَّرَّ إذا ما أصاب بيتك ضرُ  
« . »

وعزاة النفوس أن تُرسلَ الشرَّ ، إلى باري الدنيا قربانا  
يغمر الروحَ عند نجواه نورُ يُفعم القلبَ رحمةً وحنانا  
ويشيع الهدوءَ في كلِّ فجٍّ وتُغني قيثارتى الإيمانِ  
تَنشُدُ الخالدَ الجلالةَ والحُسْنَ ، فمن حُسْنِهِ قَبَسْتُ البيانَا  
مُخْمار الوكيل



### حافظ كما عرفته

حافظ — ومن أمماه فقد كنَّاه — يظلمه من ينظر إليه شاعراً فقط ولم ينظر إليه  
« رجلاً » كاملَ الرجولة . يعلو عن قشور النائر إذا ما ذكر الأدب بشعره الفعل  
في الشعر ونثره الفعل في النثر ، وبقوة بيانه وبلاغة لسانه وبعدوبة حديثه إذا حدث  
وسعة ذاكرته إذا روى كأنما تلك الذاكرة الواسعة دواوين عن الشعر ومؤلفات

جمة من روائع البلاغة والحكمة ومعجم عربى لا نقصان فيه ولا أخطاء .

أما اذا ذكر صفاء الذهن ورقة الخلق وبسطة الكف والسماحة وصدق الود والوفاء وسداجة الحلم والقناعة والوفاء وكل ما عده العرب في شعرهم وجحكمهم وبلاغتهم من الفضائل فان حافظاً — رحمه الله — كان الأول فيه والأخير أو بعد الأخير في ما يذم ويستنكر .

أما وطنيته الصادقة فلا يعادلها الا دينه المحمدى المتين . فلك من حافظ ما شئت الا أن تنال من هاتين الخلتين دينه ووطنيته ، ولك أن تحيله عما شئت لما طبع عليه من سماحة الخلق وحسن الطوية الا عن هاتين العقيدتين اللتين تقيدهما ، وقد طبع على ألا يتقيد بشيء حتى التقاليد والنقل ومتابعة الناس بعضهم لبعض في ما يجمعون عليه اما بعد البحث والتروى واما بالتصديق والمتابعة بلا بحث ولا تدقيق . فالناس جميعاً معجبون بمحضارة أوروبا وتقاليد الاوروبيين ، أما حافظ فانه طاف مدن أوروبا فلما عاد منها عاد ساخطاً على تلك المدن والتقاليد « التي تجعل الناس سجناء وتحرّمهم الحرية باسم الحرية » في ما يسمونه أوطانها .

هكذا كان يقول لنا حافظ الذى كان يكره التقيد في ما تواطأ الناس على التقيد به سواء أكان في مأكلهم أم مسكنهم أم أفراحهم أم أحزانهم أم مجالستهم أم مسائرهم أم معاملتهم ومع ذلك كان الشاعر الفحل المقيّد بالقافية والروى وكان الكاتب البليغ القذ المقيّد بالسجع والعبارات الموجزة كأنها في أوزانها قطع من الموسيقى بمقاطعها ومصارعها .

حافظ يظلمه من ينظر اليه من ناحية واحدة ولم ينظر اليه رجلاً بارزاً كل البروز من كل ناحية من نواحي نفسه وخلقه ، سواء اتفق ذلك مع خلقنا ونفسيّتنا أم لم يتفق وسواء أكان مما ألفنا مدحه لانطباعنا عليه أم لم نألفه ، وسواء اتفق الناس على عده حسناً مواتياً أم لم يتفقوا ، حافظ كان شخصية بارزة وأول الأدلة على بروز شخصيته انك اذا التقيت به مرة واحدة كانت هذه اللقيا الواحدة كافية لأن تطبع في ذهنك صورة جسمه القوي العضل الطويل العريض المتناسق المتلائم الاعضاء ورقة صوته وغنته وحركة يديه الفصيحة وتهديل جسمه اذا مشى على حركة يدين كمجذبي السفينة وارسال عباراته في التبسط أو في الجواب كأنما كل نبذة توكيد جازم قاطع لا يقبل جدلاً ولا حواراً . كذلك هيّأت الحكمة في ذهنه



يجرى على لسانه وكأنها قطعة من الوحي بعبارة وجيزة ولفظ جزل تنفذ كالسهم المطلق الرنان فتقفل باب الحوار والجدل وتكون الحجة الدامغة والبرهان القاطع .

حافظ شاعر ، والشعر قطعة من الموسيقى أو هو هي ، والشرقيون موسيقيون بطباعهم ومزاجهم يستهوهم اللحن والنغم ، لذلك غلبت الشعرية في حافظ ووصفه وصفاته مع اني لا أجد مفاضلة بين شعره المنتقى ونثره المنمق المتين البليغ العبارة فقيم كانت شاعرية حافظ غالبية على نثره اذا نحن لم نضع في احدى كفتي الميزان الى جانب الشعر او النثر طائفة القاريء العربي ونفسيته ؟

أما الخيال وأما التخيل في شعر حافظ فقد يكون أقل منه في شعر سواه من خول الشعراء ، وأما الحكمة وأما الديباجة وأما الحقيقة والواقع فهي في شعر حافظ أقوى منها وأمتن وأصدق من شعر كبار الشعراء ، فهو بشعره يتحدث الى النفوس بقوة الحجة حتى تخال البيت اذا تلاه حافظ يدوى كالقذيفة وينفذ كالسهم ، فاما أن يخلق في نفس السامع عقيدة واما ان يهدم ايماناً ، وهو في الحالتين يملك العقل ويغلب القلب ويتولد عنه الإعجاب والاقناع . واي نفس لا تستثار بمثل قوله وهو يصف هلال غرة السنة وقد أطل على الالوان . . . ؟ واي نفس شموس تنفلت من قوله وهو يرثي أحب الناس اليه الشيخ محمد عبده و«سلامه على الاسلام بعد محمد» ؟ وأية عقيدة لا تنزعزع وحافظ يقول في تعيين رجل الأمة سعد زغلول وزير المعارف « فادام في قصر الدوبارة ربّه — فسمدودنوب لعمرك واحد » فهل هناك خيال فتان ساحر أم هناك حقائق رائعة ليست انغم كساء من اللفظ الجزل الموسيقى ؟ ألم يقض حافظ بيت من شعره على تلك الحملة الهوجاء التي أثرت على السوريين من أجل خطبة احدى الصحف بقوله عن الأمة السورية « فصاخوها نصافح نفسها العرب » ؟ ان الذين عاشوا تلك الحقبة يذكرون ان هذا الشعر من نظم حافظ كان كافياً لحو مجلدات من أقوال الصحف ومجلدات من أقوال الخطباء فيمن نعتوهم يومئذ بالدخلاء . . . .

كان حافظ كثير العناية بشعره ونثره يصقله ثم يصقله ثم يصقله ، حتى اذا ما تم صقله ووثق بانه صار صخرة صادقة لما يريد تصويره تغنى به وردده فاذا أطرب واذا هو طرب لتلاوته عرضه على محبة من الادباء الذين يختارهم لنقده ، فلا يستكبر ولا يعاند بل يباحث فاذا هو اعتقد بأن الصواب ما قاله ناقده لا يمز عليه هدم ما بنى

وتشديد سواه ، أو نثر ما نظم ونظم غيره . وأول مختار به كان المرحوم اسماعيل باشا صبرى وثانيهم خليل مطران الذى كان يقدمه على سواه ويخلص له فى السر والعلانية وينزهه عن الغيرة والمزاحمة ويمتد أنه إذا نظم « حلق بخياله الى جو عال يكاد لا يلحق بنفسه فيه » لحافظ على متانة نظمه ونثره وعلى سعة معرفته بلغته وعلى سعة روايته التى لا يلحق به فيها لاحق كان أقل الشعراء والكتاب استثنائاً برأيه وأكثرهم تساؤلاً وسؤالاً واستفهاماً ، والأثرة والانانية بالادب أول دليل الفقر بالبضاعة والجهل بالصناعة .

إذا لم يكن حافظ ممن ارتدوا فضيلة ضبط النفس فكان يقول للأعور يا أعور بلا محاسنة ولا مصانعة فإنه كان شديد العناية بالانتقاد فانظر اليه وهو ينتقى الفاظه للنظم وعباراته للنثر تجده فيها الصائغ الذى يقلب جواهره ، وانظر اليه وهو ينتقى جلاسه وعشراءه تجده الحصيف الذى يبحث عن اللطافة والذكاء والانانية فلو أنه خير بين معاشره أكار العالم ومعاشره الشيخ عبد العزيز البشرى ومحمد البابلي لما تردد فى نبذ الأكار واختيار هذين العشرين وأمثالهما ليروح عن نفسه ما يكرهه وليجد فى هذه النكتة مظهر الذكاء والفظانة واللفظ ، وإذا ثارت نفسه لأمر استحال عليه أن يضبط جراحها ليجامل أو يصانع .

وإذا هو لم يوهب حب النظام والأناقة حتى شعره ونثره كان يكتبه على تنف من الأوراق تذوب بين أصابعه ، فإنه أوثق قوة الذاكرة حتى يستطيع أن ينشد :

علمى معى حيثما بعت يتبعنى      صدري وعائله ، لا بطن صندوق

إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى      أو كنت فى السوق كان العلم فى السوق

فليس اذن من العجيب ألا يجدوا شعر حافظ بين أوراقه وليس من العجب ألا يجدوا بين مخلفات حافظ ورقاً فكل ما نظم حافظ كان مطبوعاً فى ذهنه ، وكل ما حفظه حافظ كان مصوناً فى ذاكرته ، والمحفوظ من نظمته هو القليل النادر كالقصائد التى أملاها على صديقه محمد ابراهيم هلال فطبعتها فى مجلدين كالقصائد التى نشرتها الصحف . وأما ما نظم ولم ينشر — لأن نشره غير موقوف على بلاغته — فكثير ورواياته قليلون لأنه كان يكتفى أن يرضى نفسه بنظم ما هو فيض منها وغفو السجية دون أى اهتمام بحفظه أو تدوينه ولا تأخذه بالسيئة هوادة ولا بالحسنة مصانعة خصم أو صديق . ولا أخشى أن أشبهه بالبحر ركوداً إذا لم يطب له الكلام أو الموضوع

الذى يعالج ، وبالبجر فيضاً وتدفعاً اذا طاب له الكلام أو الموضوع الذى يعالجه .

\*\*\*

عرفته فى أواخر سنة ١٨٩٩ وقد جاء من السودان أو بالأحرى جىء به منه حيث كان ضابطاً فى الطوبجية — المدافع — بتهمة التآمر ورفاقه الضباط الثمانية عشرة مع الخديوي عباس باشا الثانى ومكانبته سرا بعد افتتاح الخرطوم عرفته وشوق يقدمه لصاحب « الأهرام » كاتباً وشاعراً ليتولى عملاً بالأهرام ، لأن حافظاً ورفاقه أحيوا الى الاستيداع بطلب اللورد كرومر وكيل الدولة الانكليزية وكان يطلب من الخديوي فوق ذلك اعلان استنكار عملهم والخديوي يماطل ويتردد فلما أحيوا إلى المعاش اهتم الخديوي بأمرهم ليجدوا مرتزقهم .

وهذا ما أوصل حافظاً الى الخدمة بدار الكتب وكانت قبل هذه التسمية الحديثة تسمى المكتبة الخديوية لأن الخديوي اسماعيل أنشأها، ومع اهتمام الخديوي عباس بامرته التحق حافظ بالشيخ محمد عبده وأصدقائه كسعد زغلول باشا وقاسم أمين واللقاني وأمثاله لان حافظاً لم يؤت فضيلة ضبط النفس كما قلت فاطاع نفسه الى حيث مالت مزديراً بمنفعته . وباستطاعنى أن أقول إن أواصر الصداقة تمكنت بيننا وازدادت مع الايام تمكناً معرفت منه خوالج نفسه واطلعت على كل بيت نظمه وسطر كتبه قبل إذاعته ونشره . وتعب الكثيرون من أصحابه فى ان يحملوه على التداوى من داء السكر فلم يفلحوا ووفقت الى ان اقنعه بالتداوى ولكنى لم اوفق إلى حمله على الاستمرار لانه كان ملولاً نفوراً بطبعه .

أكتب اليوم هذه الكلمة عنه وأكاد أحس بروز شخصيته بروزاً يطبعها فى كل ذهنى كأنه مائل امامى ، وكان يلقانى كلما وقع نظرى عليه فى أواخر أيامه بهذه الكلمة : « لقد عشنا طويلاً وعمرنا . أفلا نحس مثلى بدبيب الفناء وقرب الموت ؟ »

إن حافظاً أحس بدبيب الموت فى جسمه قبل أن يصل اليه ففاجأه وهو ينتظره وذهب إلى ربه بحجة ناضرة وعين ناظرة ؟

داود برطاف

## حافظ كما عرفته

لعل في أعناق بني أباطة واجباً كبيراً نحو الذي قال فيهم :

بني أباطة لا زالت دياركمو أفقّ البذور وغاباً للصناديد

فقد طوّقهم حافظ بمدحهم الخالد ، وفلدهم من جيل شعره الرصين ، بما سوف يبقى على مر السنين ، وليس فينا من لا يشعر نحو شاعر مصر الكبير بدين يتطلب الوفاء ولكن شعوراً آخر يقعد بنا عنه هو : العجز عن حسن الاداء .

ولكنني دعيت لتخليد ذكرى صديقي بعد أن هجرت الصحافة للفلاحة ، والطرس إلى الفأس ، لا تبرماً بالادب ، ولكنه الملل واليأس ، وجئت اليوم متناقلاً ، بهمة متداعية فائرة ، ألقى الدلو في الدلاء ، وأزاحم بمنكبي الادباء والشعراء ، تلبية لداعي الوفاء .

عرفت حافظاً من ثلاثين عاماً ، يزورنا فيملاً بيوتنا بهجة وبشيع فيها المرح ويصرف أبناء الأسرة وشبابها إلى معالجة الادب والرياضة العقلية والمفاضلة بين الشعراء وتذوق النكات اللاذعة حلوة أو مرة ، ويرجع الفضل في ارتباطنا به للامام الشيخ محمد عبده فقد كان صديقاً حميماً للمغفور له سليمان باشا أباطة أحد وزراء المعارف السابقين ، وكان الباشا أديباً كبيراً وشاعراً مجيداً . فأعجب حافظ به ، وافتتن هو بشعر حافظ وأدبه . ووجد الشاعر في عميد أمرتنا ما يصبو مثله له : الأدب والشعر والجاه والوفاء وكرم الاخلاق . فلم لا يتعلق به وكفى بالادب وحده صلة بين الرجلين تجمع بينهما وتوثق بين قلوبهما العلاقة مع امتناع المنافسة ؟

لقد والله سمعت حافظاً غير مرة ينشد بيتاً لسليمان باشا أباطة من قصيدة له في رثاء أخيه المغفور له السيد باشا أباطة :

ولو أن إظلام الليالي من الاسى ووقع الخطوب السود ماطلع الفجر

ويقول وددت لو أن لي هذا البيت من الشعر بنصف ديواني كله .

وسمعته يردد مع شديد الاعجاب قول الباشا في الفخر :

سيوف ثباتي في قراع الشدائد تجردها أيدي التجلidl لا يدي

يقولون سالمين إن كنت ذا نهى وعزى يقول الحزم قع المعانيد

ثم مات سليمان فحمل صديقه الشاعر قينارته يرسل من نغماتها أشجى عبارات  
الأمسى ويبيكه بقصائد تلحس خلالها الحزن الصادق ذا اللوعة المحرقة .  
هل قرأت قوله :

أننى حلتُ أرى عليك مآتما فلن أوجّه فيك حسن عزائى ؟  
لبنيك أم لدويك أم للكون أم للدهر أم لجماعة الجوزاء

« . »

لا تحملوه على الرقاب فقد كفى ما حملت من منّة وعطاء  
وذروا على نهر المدامع نعشه يسرى به للروضة الفيحاء  
تالله لو علمت به أعواده مذ لامسته لأورقت للرأى

« . »

خلق كضوء البدر أو كالروض أو كالزهر أو كالخمر أو كالماء  
وشمائل لو مازجت طبع الدجى ما بات يشكوه الحب النأى  
ومناقب لولا المهابة والتقى قلنا مناقب صاحب الاسراء  
وهزائم كانت تفلّ عزائم ال احداث والايام والأعـداء

« . »

شوقتنا للترب بعدك واشتهى فيه الأقامة واحد العذراء

« . »

وهل قرأت قوله :

أيهذا الثرى إلى م التماذى بعد هذا أأنت غرثان صادى  
أنت تُروى من مدمع كل يوم وتُعذّى من هذه الأجساد  
قد جعلت الانام زادك فى الدهر وقد آذن الورى بالنفاد  
فالتمس بعده الهجرة وردا وتزوّد من النجوم بزاد  
لست أدهوك بالتراب ولكن بقدود الملاح والاجياد



الغلو السقيم » ، ويشبه الدكتور تعزيتة « للأباطيين » بتعزيتة للإنجليز في فقد ملكتهم .....

ولست أدري لم يكون الامر كذلك وقد حدثتُ القراء بنشأة ما كان بيننا من صلة ، ولم يُشبَّهنا الدكتور طه بالإنجليز غفر الله له وأجدادنا عرب علموا الناس الوطنية والنبات والنضحية ، ولم نعبد اليوم ما كنا نحرمه بالأمس ، ولا حرمنا اليوم ما كنا نعبده من دون الله ، ولا اتخذنا السياسة تجارة ؟ ..... والسبب في هذا كله ما وجده في رثائه من الغلو ! فهل استكشف الدكتور شعراً عربياً له أو لغيره في الرثاء أو المدح خالياً من المبالغة والاغراق . . . . وهل أقدم الأمثلة أم أترك القراء يبحثون ؟

أما ما يعجب به الدكتور طه ويحبذه فهو رأيي للأستاذ « لطفي السيد بك » في الشاعرين الكبيرين فيقول في كتابه حافظ وشوقي : « كنت مرة عائداً مع الأستاذ لطفي السيد بعد أن حضرنا اجتماعاً لتخليد ذكرى حافظ قبل أن يموت شوقي ، وكنا نتحدث في أمر الشاعرين فقال لطفي بك : لقد خدعني حافظ عن نفسه كما خدعني شوقي عنها ! كنت ألقى حافظاً أول عهده بالشعر وكان يسمعي كثيراً من شعره فلا يعجبني ، فقلت له ذات يوم : أرح نفسك من هذا العناء ، فلم يخلقك الله لتكون شاعراً ! ولكنه لم يقبل نصحي وحسنأ فعل ، فما زال يمجده ويكده حتى أرغم الشعر على أن يذعن له وأصبح شاعراً ، وكنت شديد الإعجاب بشعر شوقي أفرؤه في لذة تكاد تشبه الفتنة وأنتى عليه كلما لقيته ، فما زال شوقي يكسل ويقصر في تعهد شعره حتى ساء ظني بشعره الأخير ! »

وأكتفي بأن احتكم للقراء في رأيي استاذنا لطفي بك وموافقة الدكتور طه عليه . فإن الأجماع يقول غير ذلك ... يقول بضعف شعر حافظ في السنين الأخيرة من حياته ، أما شوقي فلم يدرك الضعف شعره ولا تطرق اليه الوهن وكل من قرأ قصة « مجنون ليلى » وقد أخرجها في آخر حياته يرى فيها البرهان الساطع ، والدليل الناصع القاطع . فما تلوتها مرة الا أخذتني هزة الطرب ونشوة العجب ، واكبرت لغة العرب ، وشعرت بأن شوقي أراد أن تنهزم كل اللغات أمام الضاد ، فتم له ما أراد !

وفي الحق لقد جعلت « مجنون ليلى » الكثيرين مثلي تكبر في عيونهم اللغة العربية



والشعر العربي القصصى ، وكنت أقرأ لهيجو وكورنيل وراسين ولامارتين ، وأقرأ للشعراء الحداثيين من الفرنسيين فتلسع فتلسع فؤادى الغيرة والحسرة ، وكنت أحسب أن لغتنا تعجز عن المجارة ، وتقف عن المباراة ، ولا تصل لما فى الفرنسية وشعرها القصصى من روعة وحلاوة وطلاوة وعذوبة ومرونة حتى قرأت « مجنون ليلى » فغيرت اعتقادى وامتلات نفسى غبطة .

وقد حدثت حافظاً عن « مجنون ليلى » حَبَّذْ وأثنى ، وكنت فى العادة اذا ما أطلقت المديح فى شعر شوقي يشور محاولاً أن يثني عن الثناء بنقده المر وقدرته على تخريج اللفظ وتشويه المعنى ، أما رواية « مجنون ليلى » فقد سلم معى أنها معجزة المعجزات وآية الآيات .

فليسمح لى الدكتور طه المعجب بالفيلسوف ديكارت القائل بنظرية الشك حتى يصل الى الحقيقة ، ان أشك فى اسناده هذا الرأى لاستاذنا الكبير لطفى السيد بك .

لقد كنا نعجب بشعر حافظ منذ كنا أطفالاً ثم يافعين ، ونرى فيه زعباً من كبار الزعماء الوطنيين المخلصين ، تتغنى بشعره وتفضله على سائر الشعراء لأنه كان يضرب على الوتر الحساس ، ويهيب بالشباب ويلهب العواطف ويحفز الهمم ، ويكافح اليأس والتواكل ويدعو للجهاد والامل .

وكان شوقي فى منصبه الرسمى لا يستطيع أن يخوض غمار السياسة بحرية وصراحة فانمرد حافظ يستولى على القلوب وأحرز مكانة لا تدانيها مكانة .

فأى أديب لم يتغن بقصيدته فى جميع ضروب الشعر ، وأى أديب لم يهرع إلى سماعه يتدفق فى الحفل بصوته الجهورى الممتع والقائه البديع الخلاب الذى كان يدوى بين الجماهير فيضم سحراً ونخامة جديدين الى ديباجته الساحرة الفخمة ؟ وان عهدنا بحافظ لقريب وشعره مازال طالقاً بالاذهان ، فلست أحب أن أعيد عليكم قصائده الخالدة فى البارودى ، وعثمان أباطة ، والاستاذ الامام ، وقاسم أمين ، وصبرى ، وعلى يوسف ، والمويلحى ، والاخيرة خرية بذ فيها أبانواس ولم يبلغ شأوه فيها أحد :

أوشك الديكُ أن يصبح ونفسى      بين همَّ وبين ظنٍّ وحسـ  
يا غلام المدام والكاس والطا      سٌ وهىء لنا مكاناً كأمسـ



واطلق الشمس من غياهب هذا الد  
وأذن الصبح أن يلوح لعيني  
وادعُ ندمان خلوتي واثتناسي  
واسقنا يا غلامُ حتى ترانا  
خمرة قيل إنهم عصروها  
مذ رآها فتى العزيز مناماً  
أعقبته الخلاص من بعد ضيق  
وحبته السعود من بعد نحس

« . »

وقد نزع في الجزء الثاني والثالث من ديوانه إلى الاجتماعيات فاهتز لشعره  
العالم العربي كله وتبوأ المكان اللائق به تحت الشمس وأخذ بعض الناس يفاضلون  
بينه وبين شوقي ، وتلك مرتبة لم ينلها قبله أحد .

هل قرأت « غادة النابان » ؟

لا تلم كفى إذا السيفُ نبا  
رب ساع مبصر في سعيه  
صح منى العزم والدهر أبي  
أخطأ التوفيق فيما طلبا

« . »

وفي « الامبراطورة أوجيني » :

أين يوم القتال ياربة التاج  
أين مجرى القتال أين يميت المال  
ويأشمس ذلك المهرجانات ؟  
أين العزيز ذو السلطان ؟

« . »

وفي « الزوجية » :

حطمتُ اليراع فلا تعجبي  
فما أنتِ يامصر دار الأديب  
وعفتُ البيان فلا تعقبني  
ولا أنتِ بالبلد الطيب

« . »

وفي « فيكتور هيجو » :

أعجبني كاد يعلو نجمه  
في سماء الشعر نجم العربي

صافح العلياء فيها والتقى بالمعري فوق هام الشهب

« . »

وفي « دنشواي » :

أيها القاعون بالامر فينا هل نسيتم ولاعنا والودادا  
خفضوا جيشكم وناموا هنيئاً وابتغوا صيدكم وجوبوا البلادا  
وإذا اعوزتكم ذات طوق بين تلك الرثي فصيدوا العبادا

« . »

أما قصائده في تأيين الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل وسامي البارودي وفي عزل السلطان عبد الحميد فقد جاوزت حدّ الابداع وجرت مجرى المثل . فعظم خطره ، وتألق نجمه ، ووجهم خصمه وأصبح شاعر النيل غير مدافع . وكان إذا خلونا به يحمل على شوقي وشعره ، ولكنه لا يتنازل لنقد غيره . ولا يسلم له بالامامة ولا يعترف له بالزمامة . وكان يحب كبير الشعراء خليل مطران ويخلص له وطالما سمعته يطنب في مدحه ، ويذكر الاساتذة محرمات والكاشف ونسيماً بالخير ، ولا يذكر بالخير الكاتين المازني والعقاد وله فيهما وفي الدكتور طه حسين رأي معروف .

وكان فيما ينشره عفاً للسان جمّ الأدب ، ولكنه كان هجاءً شديداً القسوة على خصومه فيما لا يعمده للنشر . هجا المرحوم سعد زغلول باشا متهماً بإياه بالاثانية ومغرياً به سمو الخديوي السابق فقال :

أنا أنا منه كل يوم لها صدّي بيننا يرنّ

أدرك أنا وهي في صباها ان لم تقل نحن ... قال نحن أنا

وغضب على المرحوم السيد توفيق فقال :

وليلق بتُّ بها ساهراً أجر ذيل الفعش والفجر

حتى ظننتُ وليتي عجبٌ أني بيت السيد الـ . . . .

وحمل على شاعرين كبيرين فقال :

لي عدوان لن ينما غنى ولو نامت الخطوب

مُخَنَّتْ كُلَّهُ قُيُوبٌ وَمَدْمَنٌ كُلَّهُ عِيُوبٌ !  
وقال يسبُّ كاتباً من أكبر كتاب مصر :

أخسُّ من دبٍّ على ظهرها ودبت النامُ على ظهره !  
وقال بهجوني في عقر بيتي ويمدح خادمي أحمد :

إذا جئتهم طالبا لقمة رأيت مظهرة قادمة !  
ألا بارك الله في أحمد ولعنة الله على الخادمة !  
ثم سأل ما اسم هذه الفتاة ؟ قالوا فاطمة ، قال حسن ! فليكن البيت هكذا :  
ألا بارك الله في أحمد ولعنة الله على فاطمة !

وهكذا كنا نتمتع بمحيطه الشهي وتقضى معه أياماً لن تعود غفرله الله ، وطيب  
نراه ، وجعل الجنة مثواه !

ابراهيم درويز أباظه



## حافظ الرجل وحافظ الشاعر

قال كارليل الفيلسوف الانجليزي العظيم في كتابه ( الأبطال وعبادة الأبطال ) :  
الرجل العظيم لا يزال المنقذ الوحيد لعصره من مهاوى الفناء والعدم ، وهو الشعلة  
الأولى التي تمتد إلى سائر المواد فتشعلها .

والاخلاص العميق البالغ البعيد المدى الكريم في أصله هو أول خواص  
الرجل العظيم سواء أكان إلهياً أم نبياً أم شاعراً أم كاتباً أم ملكاً ، ونحن نسمى  
هذا الرجل رسولا . فهو رسول أرسل اليه من العالم المجهول الغير المحدود برسائله .  
فلنا أن نسميه شاعراً أو نبياً أو الهاك إذ ليس هناك فرق كبير بين النبي والشاعر ، فهما  
في الاصل واحد . فكلمة Vates في اللاتينية معناها « نبي » ومعناها « شاعر » .  
وكل ما في الامر ان النبي قد تناول ذلك السرّ الالهي من الجانب الأخلاقي كالخير  
والشر والمحذور والمباح ، والشاعر قد تناوله من جانب الجمال . فالأول يوصي اليه  
بما يجب عمله ، والثاني يكشف لنا عن مواضع حبنا وسرورنا ، ولكنهما في حقيقتهما  
كعجزين متداخلين لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

هذا مجمل ما قاله هذا الفيلسوف عن العظيم والشاعر ، وهذا ما أراه جديراً بأن  
أصف به حافظ إبراهيم الرجل العظيم والشاعر القدير كما وصفتُ به من قبل لورد  
بيرون الشاعر الانجليزي العظيم .

أما حافظ الرجل وحافظ الشاعر فقد يتعذر علينا ان نفصل أحدهما عن الآخر ،  
وهذا شأن كل رجل عظيم فقد تضافى شخصيته العظيمة بألوانها الزاهية على  
كل شيء حوله وتصبغ شعره بصبغتها الخاصة وتطبعه بطابعها المعين .  
فلا نستطيع رؤية أحدهما جيداً عن الآخر ، بل لا يمكننا فهم أحدهما إلا إذا  
فهمنا الآخر . ولكنى أرى ان شخصية حافظ الرجل هي شخصية حافظ الشاعر ،  
ولا ألقى هذا الكلام على عواهنه ، ولكنى أقوله وأنا واثق منه كل الثقة ، مثبت  
منه تمام التثبت ، معتمداً على ما أعرفه عن الرجل نفسه وما انطوت عليه نفسه  
العالية من نبل وسمو وفضائل .

حافظ أكثر شعرائنا الحديثين اتصالاً بنهضتنا : فقد عمل على اذكائها بقلبه  
وبياته وروحته وماله ، لم يتطرق اليه اليأس ولم يشك أو يتعامل شأن الرجل الضعيف ،  
بل ثبت في ميدان الجهاد ثبوت الأبطال البواسل يزود عن وطنه الذي أحبه  
وتفانى في حبه ، والذي من أجله عاش وفي سبيله مات بعد أن بعث فينا  
روح الأمل وضرب لنا مثلاً صالحاً للجهاد الوطنى .

لم يكن حافظ مريض الأعصاب أو ضعيف الإرادة فيثور ويهيج ، بل  
كان قوى العود صلب القناة عظيم الصبر كثير الاناة فاستقل حمله الفادح في  
ثبات وصمت وواصل جهاده المضنى الطويل بين عواصف عاتية لم تقو على  
زحزحته أو الرجوع به الى الوراء ، ووسط بحار هائجة لم يتهيبها أو يفرق منها بل  
اندفع فيها وسار حتى أدى رسالته كاملة وبلغها إلى بنى وطنه وفصلها لهم تفصيلاً !

لم يعرف حافظ الاثرة egoism قط — والاثرة شر عيوب الرجل —  
بل كان في كل حياته حلوها ومرها كريم الخلق رضى النفس حلو الحديث يستهوى  
السامع ويأسره ويسر الناظر فلا يود أن يتركه ، ولكنه كان بجانب ذلك عظيماً منيباً  
محبوباً : فهو عظيم في بساطته كما أنه بسيط في عظمته ، وربما كانت هذه ميزة تفرّد  
بها حافظ بين شعرائنا المصريين ، فنجد في جانبه أنساً وفي الاستماع إليه متعة ولذة .

أما عيوبه فلا إخال أحداً يعرف عينا لحافظ إلا اسرافه الكثير — إن كان هذا الاسراف عيباً — ومهما كانت عيوبه فإن حياته وما أتى عليها من صروف وما تلونت به من ألوان البؤس والفاقة ، ونفسه وما انطوت عليه من نبل وطهارة ، وطبيعته وما امتزجت به من عناصر الطبيعة والوداعة ، زعيمة بمحوها وكفيلة باظهار حافظ في أحسن صورة وفي أبهى منظر .

لقد كانت في حافظ قوة غريبة تدفعه إلى حب الآخرين وتستهوئ الآخرين إلى حبه حتى يمكننا — بدون اعتساف في القول — أن نعد حافظاً أحب الشعراء إلينا ، لأننا إذا أحببنا حافظاً فإننا نقوى حبنا للطبيعة والوداعة ونزيد ثقتنا في صفاء الطبيعة الانسانية وطهرها ، زد على ذلك أننا نجبنا حافظ لمحب شعره معه ، وشعره جزءاً من نفسه أو هو نفسه .

### شعره

وما شعر حافظ إلا روحه تقمصت روح النهضة وبرزت للعيون في أبدع قوالب الشعر وأعجب صوره ، فلم يصدر شعره عن ملكة خاصة فيه بل كان نتيجة حتمية عامة لذهن طبيعي جبار ، ومزاج قوى حاد . أفصح عن نفسه بهذه الطريقة الشعرية الرائعة ، لذلك جاء شعره صادقاً كل الصدق معبراً أفصح التعبير عن ذلك المزاج الحساس وتلك النفس المتألمة لوطنها الذليل ، فلم يكن أوهاماً ولا تخيلات بل كان شيئاً شعر به صاحبه وجاش في خاطره فألهب وجد انه فأفرغه في ذلك القالب الشعري الخلاب .

فالصدق والاحلاص وحب الحق هي الصفات التي تميز حافظاً عن معظم الشعراء المعاصرين وهي التي صبغت شعره بصيغة ثابتة لن تزول ، وطبيعته بطابع الخلود . فوفاته إذن مأساة الاخلاص .

ويظهر لى من أشعاره ان الرجل كان له عقل قوى ، وأعصاب سليمة ، وله قلب انسان يخفق بين جوانب صدره ، وانك لتسمع خفقاته في كل اشعاره ، وانه لم يكن مريض الشعور أو ضعيف الحس ، بل كانت له عين ترى ، وقلب يشعر ، ولسان يفصح .

انظر إليه يذكر بلاده وينعى على مواطنيه التفكك وضعف الاخلاق والامراف في اللهو واللعب في قصيدته « غادة اليابان » :

أنا لولا أن لي من أمي خاذلاً ما بتُ أشكو الثوباً  
 أمة قد فت في ساعدها بُغضها الأهل وحبُ الغريب  
 تعشق الألقاب في غير العلا وتفدّي بالنفوس الرتب  
 وهي والأحداث تستهدفها تعشق اللهو وتهوى الطرب  
 لا تبالي لعب القوم بها أم بها صرفُ الليالي لعباً

\*\*\*

وانك لتجد معظم شعره قد وقفه على الافصح عن أماني بلاده ، وإنك لتحسّ وأنت تقرأ هذا الشعر بأنات الشاعر المتواصلة وزفراته المتصاعدة حزناً على وطنه المعبّد . فشعره قد صيغ من هذه الآلام ، وزفراته قد امتزجت بأنين الشعب كثيراً . وقضى ربك ان يجعل العهد الذي عاش فيه حافظ عهد آلام وجهاد ونصب وجلاد وحرب سجال بين العدو المغتصب والشعب الوادع المطمئن . إنك تحسّ وأنت تقرأ شعره عن حادثة دنشواي المشؤمة بأنفاس الشاعر الملتهبة وهي تتحرق وجداً على قتل الأبرياء ودموعه تهمي على خديه بكاء على بني وطنه المعذبين وهو يتساءل في حسرة وأسى عن سبب ذلك التعذيب الشنيع الذي يصوره في صورة تستفز الشعور وتثير جوامد النفوس وتستدر العبرات من هول المصاب وفداحة الخطب إذ يقول :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو أقصاصاً أردنتم أم كباداً !  
 احسنوا القتل إن ضننتم بعفو أنفوساً أصبتمو ام جاداً !  
 ليت شعري أهلك محكمة التف تيش دادت أم عهد نيرون داداً !

ويقول أيضاً في موضع آخر مخاطباً العميد البريطاني :

جلدوا ولو منيهم لتعلقوا بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا  
 شنقوا ولومئذ انحوا الخياريلاً هلاًوا بلظى سياط الجالدين ورجبوا  
 يتحاسدون على المات وكأسه بين الشفاه وطعمه لا يعذب !

ثم تراه وهو يبتّ روح النورة في نفوس الشبان ويحفزهم إلى المطالبة بحقوقهم

ويذكرهم بمجدهم التالذ وتاريخهم المجيد حين يقول :

عارث على ابن النيل سباق الورى      مهما تقلب دهره أن يُسبَقَا  
فتدفعوا حُججاً وصونوا نيلكم      فلكم أفاض عليكم وتدفعَا  
ومن البلية أن تباع وتشتري      مصر وما فيها وأن لا تنطقَا  
وكذلك يقول :

رجال الغد المأمول ان بلادكم      تناشدكم بالله أن تتذكروا  
فكونوا رجالاً طاملين أعزة      وصونوا حمى أوطانكم تتحرروا

\*\*\*

واذا كانت حياة حافظ قطعة من قلب الطبيعة الخالدة فان شعره قينارة تلك الطبيعة الخزينة الباكية تشدو بآلام وطنه وأشجانه وتتغنى بمجد مصر وعزها الغابر فتبعث في النفوس همهمة وتوقظ فيها حلول الأمانى .

وقد وهبه الله قوة وبراعة فائقتين في تصوير الاشياء تصويراً رائعاً ، فلم يكن ينظر اليها من هذا الجانب أو من ذاك ، بل كان ينفذ الى لبها وصميمها وينظر اليها بعين نافذة شاملة فسرطان ما تذوب تلك الاشياء وتحلل أمامه وتكشف له دقائق أمرارها ، فيعمل فيها ريشته العجيبة ويصورها أبدع تصوير ... فما أبدع تلك الأبيات التى قالها في وصف زلزال صقلية ، فقد تعد هذه القصيدة من غرر الشعر سواء العربى أم الغربى ، فقد كان حافظ في هذه القصيدة صادقاً كل الصدق ، دقيقاً في تصويره كل الدقة ، شاملاً في وصفه كل الشمول ، أضف إلى ذلك جمال الالفاظ وجزالتها ، وإحكام سبك المعانى الذى لا يتسنى لكثير من الشعراء ، إذ يقول :

أين رجبو وأين ما كان فيها      من مغازر مأهولة وغواني؟  
عوجلت مثل أختها ودهاها      ما دهاها من ذلك الثوران  
رب طفل قد ساخ في باطن الأرض      ض ينادى : أمي ! أبى ! أدركانى !  
وفتاة هيفاء تمشوى على الج      ر تعانى من حره ما تعانى  
وأب ذاهل الى النار يمشى      مستميتاً تمتد منه اليدان  
باحناً عن بناته وبنيه      مسرع الخطو مستطير الجنان



تأكل النار منه لا هو ناجٍ من لظاها ولا اللظى عنه واني  
 مَغصَّت الأرض ، أُنْخَم البحر مما طوياه من هذه الابدان  
 وشكا الحوتُ للنسورُ شكا رددتها النُمورُ للحيتان  
 أسرفا في اللحوم نقرأ ونهشاً ثم باتا من كظفة يشكوان  
 لا رعى الله ساكنَ القم الشم ولا حاطَ ساكنَ القيعان

### الرائاء

وإن كان الصدق لازماً للشاعر والشعر في جميع فنونه فانه أشدّ لزوماً في الرئاء بنوع خاص . وإذا عرفنا أن الصدق في حافظ كان عنصراً من عناصر طبيعته فلا غرابة إن جاءت مرثيته كلها آيات رائعات ودرراً غوالي تسمو بصاحبها إلى مستوى شعراء المرثي العالميين . وابن الذي يقرأ مرثيته المشهورة في صديقه الامام الشيخ محمد عبده يتبين صدق ما أقول ويشعر بلوعة الصديق الذي فقد صديقه الوفي الأمين :

سلامٌ على الاسلام بعد محمد سلامٌ على أيامه النضرات  
 على الدين والدنيا ، على العلم والحجى على البر والتقوى ، على الحسنات  
 لقد كنتُ أخشى عادى الموت قبله فأصبحتُ أخشى أن تطول حياتي  
 فوالهني والقبرُ بيني وبينه على نظرة من تلكم النظرات !  
 كذلك شأنه في رثائه لصديقه قاسم أمين ولمصطفى كامل ، ففي هذه القصائد روعة وجلالة وتصوير قوى ساحر يأخذ بلب القارئ أو السامع ويستهوئ حسه وخياله .

وصفوة القول ان شاعرية حافظ كانت مزاجاً من الابتكار والتقليد : فقد قرأ حافظ أشعار ابن الرومي ، وتأثر كثيراً بشعر بشار بن برد ومسلم بن الوليد ، وحفظ كثيراً من أشعار البحتري وأبي تمام والمتنبي والمعري ، فجاءت دراسته هذه لأشعار العرب القدماى بثروة عظيمة له لا يشك في قيمتها . أضف إلى ذلك دراسته للأدب الفرنسي وما في الأدب الفرنسي من جمال وحسن ورواء ظهر أثره في

شعره ، لا في روح التعبير وحده بل تعداه إلى المعاني .

\*\*\*

مسكين حافظ ! ما أنعم أيامك التي قضيتها وما أشقاها ! إن كنت لاقيت  
منا جحوداً في حياتك فلن تعدم منا وفاء بعد مماتك . ان امك سيظل مذكوراً  
بعد أن كتب في ثبث الخالدين . فلتنم ولتقر عيناً بين صحبتك الأبرار ، فان معبد  
شهرتك الخالدة يطبل اليوم على قبرك .

وما شهرتك إلا روحك التي ستعيش بعدك في قلوبنا ؟

نظمي خليل

\*\*\*\*\*

## حافظ

فنان كما يجب

الجمال في الحياة كثير : جمال الطبيعة ، وجمال اللذة ، وجمال الألم .  
والحياة في غموضها وإبهامها مظهر من مظاهر الجمال الرائع في الوجود ، والانسان  
— مذ كان — مدفوع إلى تصوير هذا الجمال بوحى روحى من احساسه في  
أسلوب يشف عن مبلغ هذا الاحساس ونوعه .

فكان الموسيقى والشاعرُ المصورُ ومن الى هؤلاء الذين صفت عقولهم حتى  
صارت قلوباً .

وهؤلاء رسلُ الجمال في الحياة ، وكما اختلفت رسالاتهم في الفن قد تولدت أساليبهم  
بلون الشعور الذى حفزهم إلى الرمز والتعبير .

فترى مصوراً مثلاً قد ملكه جمالُ الطبيعة فقام يدعو لعبادة هذه الآلهة في  
بلاغة من الصمت الناطق ، ثم ترى مصوراً آخر قد حيرته معاني الحياة ودقائق  
الوجود فسجد لجبروت هذا السر الرهيب ثم انبرى يصور هذه المعاني ويكشف عن  
تلك الدقائق بريشة العاطفة ومشعل الخيال .

وهكذا كان الشاعر ، وهكذا يجب أن يكون : يجب أن يقف كل شاعر في محراب  
من محاريب الحياة يسبح لآله واحد من آلهة الجمال ، ويهتف بما يوحى اليه

من مباء هذا المعبود . يجب أن يبرز في ناحية واحدة من نواحي الشعر تظني على كل النواحي وتميزه عن غيره من الشعراء ، أى أن تكون له قيثارة واحدة يحملها دائماً ليعزف عليها كلما شاقه العزف حتى يصل بفنه إلى ما وراء الخلود .  
... وهكذا كان حافظ .

عاد من السودان في شوق ولطفة إلى مصر فرأى راية التيمس ترفرف على النيل وتداعبها نسائم السيادة والسلطان أحياناً ، تزجها عواصف الطمع والاستبداد ، ورأى تحت هذه الراية أمة مكبله بالآغلال الثقيلة مستكينه لهذه القيود تغط في نومها غطيط الهادئ في سرر اليأس ووسائل القنوط . وكلما أحست وطأة السلاسل فتحت عينيها وعولت على النهوض فتخونها قدماها وتمتثر في جبالها ويخلق فوق جفنيها طائر النذير والوعيد من وراء البحار فيثقلهما ويملأهما بالنوم مرة أخرى .

هذا المنظر دفع بحافظ إلى ربوة من الهم والكآبة على ضفة النيل ، وهناك رمى في تيار النهر بالدفّ الهزيل الذي كان يضرب عليه وانتزع من بقايا قلبه المحطم قيثارة الوطنية والاجتماع . وأخذ يغنى فوق تلك الربوة قصيد الألم ونشيد الأثين ، وجعل يرسل شعره ثائراً صريحاً في ثورته ، ثائراً على الأخلاق المصرية والرجولة المصرية وفي ثورته نصيحة وإخلاص . وهل ترى أدعى إلى ثورة الشاعر الاجتماعي من أن يرى أبناء شعبه يهيمون بالالقاب والشهرة العمياء وموالاة المستعمر المأبث وكل هذه المظاهر التي ما تزال بيننا براقة خادعة إلى ما بعد حافظ . وهو هنا يرمى في شعره إلى الأغراض السامية وبصور المثل العليا ويكشف عنها في شجاعة فنية وموسيقية بارعة ، ثائراً في وجه المغتصب وهي ثورة الضعيف المبجوح وفي بحّة صوته وضعفه نبرات المؤمن بحقه الصليب . أقرأ شعره الآن فأتحليه وكأني أسمع منه الأثين المرّ وأكاد أرى جراح قلبه والدم يسيل على جوانبها وهو واقف إلى جانب مصر العاجزة النائمة ليوقظها بنحيبه ويمد يديها الموثقة في ضراعة إلى المغتصب الجبار رجاء أن يرحم ظلها وضعفها ويفك أغلالها ثم يدعها تضمد جراحها بنفسها . وقد يشير إلى القوة الكامنة في هذا الضعف ، والثورة الجارفة التي لا بد أن يخلقها القيد والاستعباد .

هذه الصور وغيرها تجدها حية في قصائده الخالدة — دنشواي — مصر فوق الجميع — غادة اليابان — وأشباهها .

« ٠ »

هذه هي رسالة حافظ الشاعر التي دما إليها ووقف فنه على خدمتها طول حياته ، ولعله كان لا يصلح الا رسول وطنية واجتماع . فلقد حاول أن يجعل فنه باقة من مختلف الازهار ، ولكن شاءت طبيعته غير ما أراد . ولعمري ان الجمال الفرد الذي يشع من زهرة واحدة أبلغ تأثيراً في النفس من جمال حائر بين مجموعة زهرات . فهوحينما نظم في الغزل والمدح والخر لم يكن فيه — على قلته — الا مقلداً دفعته رياح تقليدية من جنوب العصر . عرب ( البؤساء ) وكتب ( ليالى سطيج ) فخذله الفن فلم يوفق في أسلوبه ، وإن كان قد وفق في الغرض وأحسن القصد لأنه لم يكن الا شاعراً وشاعراً اجتماعياً فحسب . ولا ريب أنه في كتابته هذا وتعريفه ذلك كان مدفوعاً بالزعة الاجتماعية المتركرة في طبيعته .

« ٠ »

يقي لنا أن نتساءل — ولا بد أن نتساءل بعد الذي قررناه — كيف ارتفع حافظ بجرائه الى درجة من الدقة والفخامة تكاد تعدل مرأى أفحل الشعراء الذين هتف بنبوغهم الزمن في أبهى عصور الأدب العربي ؟

لا غرابة ولا عجب ، فهو إذ يرثي إنما ينظم أنات الشعب المفجوع في عظيم قدم نفسه قرباناً لآلهة الجهاد والتضحية ، أو مصلح كان يوقد عقله لينير الطريق التي تظلمها أشجار التقدم والنهوض . فليس غريباً إذن أن يألم حافظ وأن يرسل آهاته من أعماق قلبه الذي أذا به حب وطنه فتأتي هذه الآهات فناً شاعراً رفيعاً — رثي محمد عبده — سعد زغلول — قاسم أمين — وغيرهم من رجالات نهضتنا فكان يرثي محمد عبده لانه يبكي محمد عبده كما يبكيه الشعب ، وهكذا لم يضرب على نغمة فاترة واحدة ، وإنما جاء شعره صدى ل احساسه المختلف ولا احساس الأمة نحو كل رجل وهذه هي القوة . وهذا هو الفن كما يجب وكما كان ؟

المهرى مصطفى

## مختارات

## من شعر حافظ

## للمعنى والوطن

مالى أرى الأكام لا تُفْتَحُ  
 والطيَر لا تلهو بتدويمها  
 والنبل لا تَرْفُصُ أمواهه  
 والشمس لا تُشرقُ وضاءه  
 والبدر لا يبدو على ثغره  
 والنجم لا يزهرُ في أفقه  
 ألم يجفها نباؤه جاءنا  
 أصبحت لا أدري على خبره  
 أموقفٌ للجدِّ نجتازه  
 ألمحٌ لاستقلالنا لمعة  
 وتطمسُ الظلمة آثارها  
 قد حارت الأفهام في أمره  
 والروض لا يزكو ولا ينفجُ  
 في مَلِكِهَا الواسع أو تصدحُ  
 قرَحى ولا يجرى بها الأبطحُ  
 تجلو هموم الصدر أو تنزحُ  
 من بساتين المين ما يشرحُ  
 كآته في غمرة يسبحُ  
 بأف مِصراً حرّة تفرحُ  
 أجدت الأيام أم تمزحُ  
 أم ذاك للأهى بنا مسرحُ  
 في حالك الشك فاستروحُ  
 فأنشئ أنكر ما ألمحُ  
 إن لمحو بالقصد أو صرّحو

## معبر الحب

هَوَيْنَا فاهُنَّا كما هان غيرُنا  
 وما حكمت أشواقنا في نفوسنا  
 نفوسٌ لها بين الجنوبِ منازلٌ  
 ولكننا زدنا مع الحب سؤدداً  
 بأيسرٍ من حُكم الساحة والندى  
 بناها الشقى واختارها الحب معبداً

## سجن الفضيلة

نعمن بنفسي وأشقيني      فبالتهن      ويا ليتني  
 خلال زلن بخصب النفوس      فرويتهن      وأظلماني  
 تعودن مني إياه الكريم      وصبر الحليم وتيه العيني  
 وعودتهن زال الخطوب      فإ ينثنين وما أنثنى  
 إذا ما هوت بلبل الشباب      أهبن بعزى فبهن  
 فازلت أروح في قدهن      ويمرحن مني بروض جنى  
 إلى أن تولي زمان الشباب      وأوشك عودي أن ينحني  
 فإ نفس إن كنت لا توقنين      بمقود بأمرك فاستيقني  
 فهذه الفضيلة سجن النفوس      وأنت الجديرة أن تسجنني

## الربيا الضائعة

لم يبق شيء من الدنيا بأيدينا  
 كنّا قلادة جيد الدهر فانقرط  
 كانت منازلنا في العز شاخنة  
 وكان أقصى مني نهر المجرة لو  
 والشهب لو أنّها كانت مسخرة  
 فلم نزل وصروف الدهر ترمقنا  
 حتى غدونا ولا جاه ولا نسب

## إلى الامبراطورة أوجيني

( عند قدومها إلى مصر بعد زوال ملكها )

أين يوم القتال ياربة التنا      جـ ويا شمس ذلك المهرجان  
 أين مجرى القتال أين مميت الأ      مـال ؟ ابن العزيز ذو السلطان ؟

أين هارون مصر ؟ أين أبو ال  
أين ليث الجزيرة ابن علي  
أين ذا القصر بالجزيرة تجرى  
فيه للنحس كوكبٌ مُسرِعُ السَّيِّ  
قد جرى النيلُ تحتَه بخشوع  
كنت بالأمس جنة الحور ياقه  
خطر الليث في فنائك ياقه  
وعوى الذئب في نواحيك ياقه  
وحباك الزوار بالمال ياقه  
كنت تُعطى فالك اليوم تُعطى  
إن أظافت بك الخطوب فهذى  
رُبَّ باني نأى وربَّ بناء  
تلك سالُ الايوان ياربة التا  
قد طواه الردى ولو كان حيًّا  
وتولت حراسة الموكب الأست  
إن يكن غاب عن جبينك تاج  
فلقد زانك المشيبُ بتاج  
ذاك من صنعة الأنام وهذا  
كنت بالأمس ضيفةً عند ملك  
واعذرينا على القصور ، كلانا

أشبال رب القصور رب القيان ؟  
واهب الألف مكرم الضيفان  
فيه أرقنا ونحبو الأمانى ؟  
رر ، وللسعد كوكب متوانى  
وانكسار وهابه الفتيان<sup>(١)</sup>  
رر فأصبحت جنة الحيوان  
رر وقد كنت مسرّحاً للحسان  
رر وقد كنت معقلاً للسان  
رر وقد كنت مصدر الاحسان  
أين بانيك ؟ أين رب المكان ؟  
سنة الكون من قديم الزمان  
أسلمته النوى إلى غير باني  
ج ، فاحال صاحب الايوان ؟  
لمشى في ركابك النقلان<sup>(٢)</sup>  
سنى نجوم السماء والنيران  
كان بالقرب أشرف التيجان  
لا يدانيه في الجلال مُداني  
من صنيع المهيمن الديان  
فانزى اليوم ضيفةً في خان  
غيرته طواري الحدان

## مادة نسوای

هل نسيتم ولائنا والوداد ؟  
 وابتغوا صيدكم ، وجوبوا البلاد  
 بين تلك الرهبي ، فصيدوا العباد  
 لم تغادر أطواقنا الأجياد  
 أرشدونا إذا ضللنا الرشاد  
 صادت الشمس نفسه حين صاد  
 ضعف ضعفيه قسوة واشتداد  
 أقصاصاً أردتم أم كباد ؟  
 أنفوساً أصبتم أم جداد ؟  
 تيش عادت أم عهد نيرون عاد ؟

أيها القاعمون بالأمر فينا  
 خفضوا جيشكم ، وناموا هنيئاً  
 وإذا أعوزتكم ذات طوق  
 إنما نحن والحمام سواء  
 لا تظنّوا بنا العقوق ولكن  
 لا تقيدوا<sup>(١)</sup> من أمة بقتيل  
 جاء جبالنا بأمر وجثم  
 أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو  
 أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو  
 ليت شعري ألك محكمة التف

« . »

بعض هذا فقد بلغت المراد  
 وضمننا لنجلك الإسعاد  
 عهد مصر فقد شفيت الفؤاد

أيها المدعى العمومي مهلاً  
 قد ضمنّا لك القضاء بمصر  
 فاذا ما جلست للحكم فاذكر

« . »

ر ، ولا جادك الحيا حيث جاد  
 ر ، فأضحى عليك شوكة قتاد  
 س فأذمى القلوب والأكباد  
 ساد في غفلة الزمان وشاد  
 قد لبسنا على يدك الحداد

لا جرى النيل في نواحيك يامه  
 أنت أنبت ذلك النبت يامه  
 أنت أنبت ناعقاً قام بالأمة  
 إيه يا مدرة القضاء ويا من  
 أنت جلاّدنا فلا تنس أننا

(١) لا تاخذوا بالثأر .



## الظلم المهرَّب

حواشيه حتى بات ظُلماً مُنَظَّمَةً  
وَأَنْ أَسْبَحَ الْمَصْرِيُّ حُرّاً مُنْعَمًا  
فَاقَى رَأْيُ الْمَنِّ أَنْكَى وَالْمَا  
فَأَغْلَيْتُمْ طِينًا وَأَرْخَصْتُمْ دَمًا  
فَلَا أَطْلَعْتُ نَبْتًا وَلَا جَادَهَا السَّمَاءُ

لَقَدْ كَانَ فِينَا الظُّلْمُ فَوْضَى فَهْدَبَتْ  
تَمَنُّ عَلَيْنَا الْيَوْمَ أَنْ أَخْصَبَ الثَّرَى  
أَعِدَّ عَهْدَ إِسْمَاعِيلَ جَلَدًا وَسُغْرَهُ  
مَهْلَتُمْ عَلَى عِزِّ الْجَادِ وَذُلُّنَا  
إِذَا أَخْصَبَتْ أَرْضٌ وَأَجْدَبَ أَهْلُهَا

## زلزال صينا

مَادَهَى الْكَوْنُ أَيُّهَا الْفَرْقَدَانِ  
ضُفْ فَانْحَتْ عَلَى بَنَى الْإِنْسَانِ ١٩  
لَكِنْ طَبِيعَةُ الْأَكْوَانِ  
ثُورَانٌ فِي الْبَحْرِ وَالْبِرْكَانِ  
عَلَى الْكَيْدِ لِلْوَرَى عَامِلَانِ ٢٠  
رَامِدٌ غَفْلَةٌ مِنَ الرِّبَانِ  
حَائِمٌ حَوْلَنَا ، مُنَاهُ مُدَانِي  
فِي خَلْقٍ : كَلَامَا غَادِرَانِ

نَبَّأَنِي إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمَانِ :  
غَضَبَ اللَّهِ أَمْ تَمَرَدْتَ الْأَرْضُ  
لَيْسَ هَذَا ، سَبْحَانَ رَبِّي ، وَلَاذَا  
غَلِيَانٌ فِي الْأَرْضِ نَفْسٌ عَنْهُ  
رَبِّ ١ أَيْنَ الْمَقَرِّ وَالْبَحْرِ وَالْبَرِّ  
كُنْتُ أَخْشَى الْبَحَارَ وَالْمَوْتَ فِيهَا  
سَابِحٌ تَحْتَهَا ، مُعِطٌ عَلَيْنَا  
فَإِذَا الْأَرْضُ وَالْبَحَارُ سَوَاءٌ

« . »

وَدَكَاهَا مِنَ الرَّدَى دَاعِيَانِ  
حِينَ تَمَّتْ آيَاتُهَا آيَتَانِ  
قَضَى الْأَمْرُ كُلَّهُ فِي ثَوَانِ  
نَكْبُ بِالْأُمْسِ رِبْنَةَ الْبِلَادِ  
مِنْ وَدَاعِ اللَّدَاتِ وَالْجِيرَانِ

مَا (لَمَسَيْنَ) عَوِجَلَتْ فِي صَبَاها  
وَمَحَتْ تَلَكُمُ الْحَامِسَ مِنْهَا  
خُصِفَتْ ، ثُمَّ أَغْرَقَتْ ، ثُمَّ بَادَتْ  
وَأَقَى أَمْرُهَا فَأُضْحَتْ كَأَنَّ لَمْ  
لَيْنَهَا أُمْهَلَتْ فَتَقْضَى حَقُوقًا

لحمة يُسَعِّدُ الصديقان فيها  
بَعَثَ الأرضُ والجبالُ عليها  
تلك تَعْلَى حَقْدًا عليها فَتَنَشَقُّ  
فَتُجِيبُ الجبالُ رَجْمًا وَقَدْ فَا  
وتسوق البحارُ رَدًّا عليها  
فهنا الموتُ أسودُ اللونِ جونُ  
جَدَّ الماءِ والثرى لهلاكُ الـ  
ودما السُحْبِ عاتياً فأمْدَرُ  
أبن (رجيو) وأبن ما كان فيها  
عَوِجَلَتْ مِثْلَ أَخْتِها، ودهاها  
ربُّ طفلٍ قد ساخ في باطن الأرض  
وفتاة هيفاء تُشَوِّى على الجَمَدِ  
وأبٍ ذاهلٍ إلى النارِ، يَمِشِي  
باحثاً عن بناته وبنيه  
تَأْكُلُ النارُ منه، لا هو ناجٍ

باجتماع ويلتقي العاشقان  
وطغى البحرُ أيَّما طغيان  
قُ انشفاقاً من كثرة الغليان  
بشواظٍ مِنْ مارجٍ ودخان  
جيش موج نأى الجناحين داني  
وهنا الموتُ أحمرُ اللونِ قاني  
خلق ثم استعان بالنيران  
هُ بِجيشٍ من الصواعقِ ثانٍ  
مِنْ مَعَانٍ مأهولةٍ وغواني ؟  
ما دهاها من ذلك الثوران  
ضرب ينادى : أمي ! أبى ! أدركاني !  
رر تُعاني مِنْ حَرِّهِ ما تُعاني  
مُسْتَمِيتاً تمتدُّ منه اليدان  
مُسْرِعَ الخطو مُسْتَطِيرَ الجُئَانِ  
مِنْ لَظَاهَا ولا اللَّظَى عَنْهُ واني !

### منزل الامام محمد عبده

فيا مَزلًا في عينِ شمسٍ أَظَلَّنِي  
دُعَاةُ التقوى، وآساسُهُ الهُدَى  
عليك سلامُ الله مالِكٍ موحِشاً  
لقد كنتَ مقصودَ الجوانبِ أهلاً  
مثابةً أرزاقٍ، ومهيطةً حكمةً  
وأرغمَ حُسَّادِي وغمَّ عُذَاتِي  
وفيه الأيادي مَوضعُ اللَّبَنَاتِ  
عبوسُ المغاني مقفَرُ العِصَاتِ ؟  
تطوف بك الآمالُ مبتهلاتِ  
ومَطْلَعُ أنوارٍ، وكثرَ عِظَاتِ

## النيل

النيلُ مرآةٌ تنفّسَ  
سلبَ السماءِ مُجموّمها  
نشرتْ عليه غلالةً  
شقتْ لا عيننا سوى  
وكاننا فوقَ السماءِ  
تجرى الحوادثُ حيثُ تجرّ

سَ في صقيقتها النسيمُ  
فهو بلجّتهِ تعومُ  
بيضاءَ حاكها الفيومُ  
ما شابهُ منها الأديمُ  
وتحتنا ذاك السديمُ  
ري لا نُضامُ ولا نُضمّ

## عزقبر مصطفى كامل

طوفوا بأركان هذا القبر واستلموا  
هنا جنّاتُ تعالى اللهُ بارؤهُ  
هنا فمٌ وبنانٌ لاحَ بينهما  
هنا الشهيدُ ، هنا ربّ اللواء ، هنا

واقضوا هنالك ما تقضى به الذمّمُ  
ضاقتْ بأمالِ الأقدارِ والهَمَمُ  
في الشرقِ فجرٌ تحيّي ضوءه الأُممُ  
حامى الذمارِ ، هنا الشهمُ الذي علموا

« • »

إني أرى وفؤادي ليس يكذبني  
أرى جلالاً ، أرى نوراً ، أرى ملكاً  
اللهُ أكبرُ ! هذا الوجهُ أعرفهُ !  
غضُّوا العيونَ وحيّوه نخيته  
وأقسموا أن تزدودوا عن مبادئهِ

روحاً يحفّ بها الأكبارُ والعِظَمُ  
أرى مُحَيّاً يُحيّينا ويبتسمُ  
هذا فتى النيلِ ! هذا المفردُ العَلَمُ !  
من القلوبِ إذالم تُسعِدْ الكَلِمُ  
فنحن في موقفٍ يحلو به القَسَمُ !

## لوعة وأمين

أنا في يأمرٍ وهمٍ وأمي  
مستهينٌ بالذي لاقيته  
سؤركَ عندي له مكتوبةٌ  
إنني لا آمنُ الرُّسلَ ، ولا

حاضرُ اللوعةِ موصولُ الأنينِ  
وهو لا يدرى بما ذا يستهينُ  
ودّ لو يسرى بها الروحُ الأمينُ  
آمنُ الكُتُبِ على ما تحتوين !

## ناحية في حافظ

نشكر للدكتور زكي أبى شادى خدماته الأدبية الكبيرة التى يقوم بها طامّة وإصدار هذا العدد لذكرى حافظ خاصة . وإذا كان الحظ لم يسعدنى بأن أكتب عن شوقى فانى أجد الفرصة سانحة لأن أقول كلمة عن حافظ فى أهم ناحية من حياته وتقسيم حافظ من حيث هو فكرة التَمَعّت فى الوجود وحيوية لها ما للكائن الحىّ من مزايا هى :

١ — شعره الذى يصوّر فيه نفسه ونفسية الشعب ويعبر فيه عن آماله وآمال وطنه وعن الأمة وكل ما يتحرك فيها أو ما يتطلبه لها .

٢ — نفسه الهائجة النائرة العالية التى تبلغ عنان السماء فى الارستقراطية والتى تصدّها عظمة المال والجاه فتزله بها الى الخفيض فتتطرف فى الديمقراطية الى درجة كبيرة ، ونفسه العابثة البائسة المتشككة .

٣ — حياته المتناقضة المملوءة أملاً وبؤساً وسعادةً وآماً وخوفاً وشجاعةً وحباً وكراهية .

وأظهر شيء فى حافظ من حيث هو كتلة حيوية تنقسم هذه الأقسام : نفسه وحياته وشعره . ونفسه هى القوة الموجهة لحياته من حيث عبوسها أو بؤسها فتظلم الدنيا ، ومن حيث أملها وانشراحها فتظهر العالم أمامه كله سرور وانشراح وبهجة وأنس . وشعره هو المظهر أو العارضة التى ترينا نفسه وحياته وتفاعل العناصر من أثر النفس فى الحياة ومن أثر الشعر فى هيجان النفس أو هدوئها وظلمة الحياة أو بهجتها . ونفس حافظ ليست مثل نفسى ونفسك ، فلو كانت كذلك لعدّ حافظ واحداً مثلاً ، ولكن نفس حافظ كقلبه وقلبه هو قلب مصر وحياته هى حياة مصر ، فكل حادث يؤثر فى مصر نجد أثره فى نفس حافظ وقلبه وحياته وشعره أيضاً . والآن الذى يساور نفس حافظ والذى يؤثر فى نظره للدنيا ويتأثر بالتالى به شعره هو ألم مصر ، والبؤس الذى يساور نفسه هو مظهر نفسه ومظهر حياته ومظهر مصر أيضاً . وهذا التألف بين حافظ وحياته وشعره ومصر فيه نصيب كبير من الحقيقة ، وهناك تألف آخر بين الشاعر والفنان فى حافظ تصبغه صبغة البؤس التى تلازم حافظ فيكون حافظ الشاعر المتوقد الرقيق والفنان النائر المتشكك الحرّ الذى لا يراعى القيود ولا يعبأ بها ، وهناك حافظ البأس الذى يدمت الثورة على التقاليد والتشكك والهياج .

وهناك المصادمات ذات الأثر العميق الذي يبلغ من نفس الانسان — نريد أن نعرض في حافظ حتى نعرف كيفية تحول نفسيته وتكوينها على هذا الشكل الغريب . وأول تلك الصدمات التي صدمت حافظ هي موت والده وهو صغير مما جعل في نفسه أبلغ الأثر لأنه صار يتيماً لا أب له فأورثه هذا حزناً كبيراً تغلغل في قرارة نفسه وأثر في حياته أثراً كبيراً ، وكانت هذه أول صدمة له في حياته ومستقبل عزيمته .

أما الصدمة الثانية فهي تمكن النزعة الأدبية منه وهذه الروح الشعرية التي هفت به وتمكنت من صبغه بلونها والتي تبعث إلى نفس الشاعر عوامل الشاعرية من رقة الشعور واتصال هذا بالرائاء لآلام الناس ومواساتهم وتلازم هذا الشباب والنفس المتقدمة المرحلة النائرة في حافظ ، وفي اجتماع هذين معاً ما يجعله لا يرضى بالحياة العسكرية الخشنة من جانب لأنه شاب له أمل واسع ، وهو لا يرضى بالحياة العسكرية أيضاً من حيث أنها مذبحة ودمار ، وهذا مما لا تميل إليه نفس الشاعر ذات الحنان والرفقة .

فهاتان الصدمتان : تنازع الروح الشابة والروح الشعرية مع العسكرية من حيث هي خشونة وقتال دموي والألم الدفين الذي صادمه في أول ملامسته للحياة بموت أبيه — لها أثرهما البالغ ، وأثر هاتين الصدمتين كبير في نفس حافظ وبالتالي في شعره : فهو الذي صبغ نفسه بصبغة التشكك والثورة والبؤس ، وكان شعره صورة لهذا التفاعل في نفسه وحياته .

هذه الكلمة هي نظرة سريعة مختصرة في ناحية من حافظ ابراهيم الشامخ الضخم الذي لا يمكن لقلمي الضعيف أن يوفيه حقه ، ولا أن ينصرف اليه بحكم شواغله وضيق وقته . وهناك نواح أخرى في حافظ عن شعره وأدبه وأثرهما في الأدب المصري الخاص والأدب العربي على وجه عام وأخلاقه ونفسه وأثر كل ذلك في نظراته الفلسفية الى الحياة . وأعيد فأكرر شكرى للدكتور أبى شادى لهذه العناية وهذا التكريم لذكرى حافظ ابراهيم شاعرنا القومي

اصحدر أنور الجندى

## مضى العام والذكرى...

على الوتر الحنان قد ولدت الشعر  
لفائته في المهدي ظل خيلة  
إذا ما بكى أشجى الزمان بكأوه  
ينسق وجه الصبح والطلّ ذائب  
ويلقى شعاع الشمس في ميعه الضحي  
وتنفج عنه في الأصيل نسائم  
فأما تسر يا صاح في هداية الدجى  
وأما تجد حسن الحياة مشوها  
وأما تجد ظهر الزمان محذبا  
فذلك فاشع مائم الشعر والحجى

رضيع لبان السحر ما نقت السحر  
على غصنها طير ومن تحتها نهر  
وأذرت له الدمع الملائكة الطهر  
ويصنع لون الحقل والزرع مخضر  
على الكون حيث الكون مبهج تضر  
وفي الليل يزهو النجم أو يشرق البدر  
لدى حلك فيه غمام ولا قطر  
شتيا وقد عاف ابتسامته الثغر  
أناخت دواه فوق كل كل صفر  
وكيف تناساه وفي قلبك القبر؟

« . »

خيلة وادي النيل أزهى نبها  
سقاها غدير ثم جف فغالها  
فلادوح يأوى العاشقون لظله  
تصوحت الأزهار بمد تعطر  
ملاّب زكي في الأنوف شميمة

فلما دهاها الصيف مات بها الزهر  
حرور من الرضاء محراقة سحر  
ولا طير يشدو بالفناء ولا قمر  
خفت وماتت بينما بقي العطر  
كشعر أبي في النفوس له سحر

« . »

مضى العام والذكرى تطوف بأرؤس  
مباعد ما بين الجناحين أبرؤس  
إذا جال عينا في النجوم تفكر  
إذا فكر المرء القديم وفاؤه  
يظن له عذرا فيمضي يئنه

كما طاف جنح الليل أو وقع النسر  
يطير إليها من قوادم الدغر  
قطاير من أحداقها النظر الشرر  
واجبه للصحب أعيابه الفكر  
ولولا جحود الناس لاعتذر العذر

وَأَجَلَ قَوْمَهُ ذَكَرَهُ لِمَوَاعِدِهِ  
مَضَى حَافِظُهُ مَنْ كَانَ يَحْفَظُ قَوْمَهُ  
فَتَى كَانَ يَأْتِي أَنْ يَخُونَ صَدِيقَهُ  
إِذَا كَانَ فِي وَجْهِ الْفَتَى دُونَ ظَهْرِهِ  
فَمَنْ يَصْطَلِحُ يَحْفَظُ وَمَنْ يَنْسِي يَذْكُرُ  
حَفَازُكَ لِلْأَصْحَابِ نَذْرُهُ نَذْرَتُهُ  
وَلِلنَّاسِ أَخْلَاقُهُ شُكُولُهُ كَثِيرَةٌ

« . »

رَعَى اللَّهُ شِعْرًا قَدْ غَذِيَتْ لُبَانَهُ  
ثُمَّ كَانَ سَفَرِي غَيْرِ دِيْوَانِ حَافِظِهِ  
مَزَامِيرُ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ  
شَوَارِدُ كَالْعِيقِيَانِ مِنْ كُلِّ جَوْهَرٍ  
وَمَا النَّيْلُ إِلَّا رِبْوَةُ الْأَرْضِ أَنْبَتَتْ  
وَحَافِظُهُ مِنْ قَوْمِ بُوَادِيهِ خُلَصِ  
نِضَا السَّيْفِ مِنْ نَقْصِ بَسِيلٍ وَمِنْ دَمٍ  
فَلَمْ يَكْ بَوْسًا حَظُّهُ بَلْ زَعَامَةٌ  
فَفِي كُلِّ وَادٍ فَجَعَةٌ فِي صَحَابِهِ  
وَفِي كُلِّ صَدْرٍ لَلْوَفَى قُلَابَةٌ

« . »

جُنُودَ الْقَوَافِي وَالْمُخْطُوبِ كَثِيرَةٌ  
لَقَدْ غَالَ رَبُّ الْمَوْتِ أَرْمَى شِيُوخَهُمْ  
نَغِيبٌ كَمَا غَابَ أَمْرُ الْقَيْسِ قَبْلُنَا  
وَلِلشَّعْرِ فِي لَيْلِ الْمُحَاقِّ مَمَآؤُهُ  
الْأَيُّحْتَمَى فِيكُمْ مِنَ الْعَطْبِ الشَّعْرُ  
وَالشَّعْرُ لَا لِلْحَائِكِينَ لَهُ الْعُمْرُ  
وَنَبِيٌّ عَكَظًا وَالزَّمَانُ لَهُ كَرُّ  
لِكُلِّ فَتَى فِيهَا كَوَا كَبُهُ الزُّهْرُ



فصوغوا القوافي للخلود وللصبا  
ولا تركنوا للخلف فاخلف فاضح  
ولرأى والأخلاق ما طلع الفجر  
لما كان يخفيه التماضح والستر  
إذا كان هذا الشعر قائداً نهضة  
فبالخلق المحمود يحلو له الفخر  
عامر محمد بحبري



## محمد حافظ ابراهيم

في كفتي البؤس والمجاعة

يتوهم البعض أننا إذا قلنا إن حافظاً كان أبا بؤس — لازمه صغيراً ، وصاحبه كبيراً — أنه كان مملقاً ، وأن فقره علة العلل في ابتئاسه . وقد يكون الأول صحيحاً ولكن الى حدٍ ، أما الثاني فهو موضع بحث ونظر ثم خلف وجدل ، فليس كل بؤس مسبباً عن الفقر ، وحافظ بأُس ، فليس يحتم نشوء بؤسه عن فقره . وقد يكون هناك المنطق صحيحاً ، فنحن نرى بين ظهرائنا الكثير من المعدمين يروحون ويغدون ونضرة الطمأنينة تعلو وجوههم ، وطائر السعادة يرفرف فوقهم ، كما أننا نرى الكثيرين ممن جادهم المال بوفرته لا يكادون يستشعرون أن هناك سعادة ، بل لا يصدقون أن هناك سعادة فهي اسم لا مسمى له وإن هي الا وهم وخيال . . .

وقد نسمع أن كثيراً من رجالات الفكر وحملة الأقلام كانوا فقراء معدمين بأُسَيْن وأن الجبهة الأغبياء كانوا في يسر ورخاء وطلما أنشدونا :

رِزْقُ التِيوسِ بِحَبِيئِهَا بِسَهْوَةٍ      وَأُولُو الْفَصَاحَةِ رِزْقُهُمْ مَسْجُونٌ .

إِنْ كَانَ حَرَمَانِي لِأَجْلِ فَصَاحَتِي      فَامْنٌ عَلَيَّ مِنَ التِيوسِ أَكُونُ !

والمنطق في ظاهره يحيل هذا الذي يبدو غريباً في مظهره ، فليس بمسلم أن يعجز المفكرون — وهم المفكرون — عن أمر تناله الأغبياء المفاليك —

وهم هم !

وربما نزول الغرابة إذا نحن فهمنا أن الفكر دائب الطموح لا يرضى لنفسه ما هو فيه وإن كان في العيوق فهو متطلع الى العلو أبداً ناظر الى السماء دائماً ، يرى أنه

مغبون وليس بمغبون ، تمس وليس بتمس ، فقير وليس بفقير ، ومن هذا الباب وحده تهاجمه كتائب البؤس وترشقه بسهامها وترميه بتباها ، وهكذا :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم  
هذا هو المعقول ، أما أن نقول — اطلاقاً — إن رجال الفكر وحمة الأفلام  
معدمون بأنسون فتلك دعوى عريضة نسمعها كل آن وسيعلم الباحثون مكانها من  
الحق والتاريخ .

على ضوء هذا الفكر نستطيع أن نقول — مع القائلين — إن حافظاً كان فقيراً  
بائساً . ولم لا يكون بائساً ؟ بل ولم لا يكون شيخ البائسين ؟ !

ألم يسع حتى كاد يفتعل الدم ثم لم يحظ من الحياة بما يريد ؟ ثم ألم يلبس  
الدجى والليل هادئ « والنجم يحسبه ثامناً للسبعة الشهب » ولكنه مع هذا ،  
ومع كل هذا غير مجدود ، وما فتئت يد المقادير تقصيه عن الأرب ؟

واستلان الحياة فجمدت ، واستعطفها فغلظت ، ولاطفها فلم تزد الا شحاً وبخلًا ،  
وطرق على السعادة كل باب فلم تزد الا اباءً وشروداً . ولما أعيته الحيلة مع الحياة ،  
وفاضت الكأس ، وطفح الكيل ، جاهرها هو الآخر بعدائه ، وأعلن عليها  
حرباً كلامية شعواء وشنها غارة حامية الوطيس ، فرماها بما رمى ، فهي العاهر البغي  
اللعوب القلب ، ما سرت يوماً إلا أبكت في غده ، وأنها قد أضرت به فهم باختها  
هرباً منها وفراراً ، واستحسن مذهب ماني صاحب نظرية تعجيل الفناء بقطع  
النسل فقال :

لعل « ماني » لاقى ما أكابده فودَّ تعجيلنا من عالم الشَّجَبِ !

وحلق في الجو الذي حلق فيه أبو العلاء فانطلق يقول :

عليك جنيتُ يا نفسي وقبلي عليك جنى أبى فدعى عتابي !

وعتب على نوح حمل الناس معه وقد كان في مكنته أن يتركهم يغرقون فيستريحون  
ويريحون ، وهو لهذا لم يُخلص للناس النية ولم يمنحهم الودَّ الصحيح :

ويا نوحاً جنيتَ على البرايا ولم تمنحهم الودَّ الصحيحاً

علامَ حملتهم في الفلك ؟ هلا تركتهمو فكنت لهم مُريحاً ؟

ولا أريد في هذا المقام أكثر من أن يضع القارىء صورة حافظ العابسة التي ترسم في ذهنه بعد قراءته هذا الكلام بجانب صورته الأخرى : صورة حافظ الطروب الضاحك المداعب !

حافظ الذى ذكرنا له من البؤس والتبرم بالحياة والضرر منها والثورة عليها ما ذكرنا هو حافظ الذى يملأ كل جوٍّ يحيط به مجانة ودعابة وفكاهة ، هو حافظ الذى يتنادر الادباء بحديثه ، ويتنادرون بنكاته حتى قال العقاد على قبره :

أبكاء وحافظ فى مكان ؟ تلك احدى عجائب الحدائق !

صورتان للرجل : أولاهما عابسة يائسة بألسة ، والثانية ضاحكة صاحبة ماجنة !  
صورتان متباينتان على لوحة واحدة هى الحياة  
كيف هذا ؟

وهل هذا معقول ؟ الأمر لا يحتمل جدلاً ، فانه واقع والواقع لا يرتفع .  
إذا فكيف تفسر هذا ؟ كيف تفسر البؤس يعتنق المجانة ؟ !

لعل مجانته كانت ضرباً من التهكم بالحياة والسخرية وعدم الحفل بها ، فهو يتهم بالحياة ويسخر بالدنيا ، ويصوغ ذلك فى قالب من الفكاهة تحمل على أجنحة الضحكات أقسى معانى الألم ، وأبلغ معانى البؤس ، فهو إذ يرسل لك نكاته يصور لك حالة نفسية فى صورة بهجة تنقطع لها نياط قلبه فى الوقت الذى تمتلئ الاشدق ضحكاً لها ، وسروراً بها .

وهذا معقول ومقبول أيضاً ، لولا أن حافظاً الذى أعرفه لم يكن من فلسفة الالم الى هذا الحد بل ولا الى غير هذا الحد .

إذا فكيف تفسر المجانة تُؤالف البؤس ؟

ألا يصح أن يكون ألم الرجل البالغ نقله طفرةً من طور البؤس الى طور المجانة ؟  
النظرية فى ذاتها من حيث هى نظرية سليمة ، فان الشيء اذا زاد عن حده انقلب الى ضده ، وانت تشهد كثيراً من الذين يصابون بفادح الخطوب ينقلبون كهمومين هاذين ضاحكين بل وربما معربدين راقصين !

إذا صح هذا فهل لا يصح أن يكون حال حافظ من هذا النوع ؟ !

معقول أن يكون ، ومقبول أيضاً ، لولا أن ابتأس حافظ لم يكن من هذا فى شيء . ولم يكن حافظ فى ذاته من هذا فى شيء .

إذا فكيف نستطيع أن نفهم أنه كان بأساً ماجناً ؟  
 ألا يكون الرجل لما نزلت به الهموم — وهي أثقل الضيوف — وضاق بها ذرعاً ،  
 لم يجد طريقاً يرفه عن نفسه بها الا طريق المجانة فارتقى بين أحضانها يشرب من وردها  
 سائغاً يغسل الهموم ، وينفس عن القلوب ، ويروح عن النفوس .

وهذا هو الآخر معقول ، وربما كان مقبولا ، لولا أننا نتساءل لماذا لا ينفس  
 عن نفسه الا حينما تزوره المادة أو ثوابته ظروف المجانة ، ولو كان هذا صحيحاً  
 لتطلبها الرجل كلما حزه الهمّ وفدح ، ثم انه لو كان واقعاً لما كان مطبوعاً عليه بل لجاء  
 متكلفاً ظاهر التكلف .

إذا فماذا نعلل هذا ؟

أعله كان مطواعاً للظروف والأحوال : فهو بأس يوم تنزل به ظروف البؤس  
 ماجنٌ ساعة ثوابته ظروف المجانة ، فلهذا ظروفه وملابساته وتلك ظروفها وملابساتها .  
 وقد كان يتفق لحافظ أن يقع في يده قسط من المال غير قليل ، فلا يكاد يستقر في  
 حافظته حتى يتطاير الخبر الى وليجته والى وليجة وليجته ، فيجتمعون على ما  
 يجتمعون ، ويقضى شاعرنا سويعات أنسه ، وأويقات سروره ، حتى اذا ما نصب  
 المال وهو لا بدّ ناضب رجع الهزار الى وكره حزيناً بأساً مهيضاً . إذاً لحافظ بأس  
 يوم بؤسه ، ماجن يوم أنسه .

وهذا معقول ومقبول أيضاً ، لولا ... لولا ...

لولا ماذا ... ؟

لا شيء ! لا شيء ! فان هذا هو الواقع ، وبه نستطيع أن نجمع بين صورتيه  
 المتناقضتين فيما يبدو للناظر ، وهي ناحية أهملها اخواننا الكتاب لانكبابهم على شعره  
 وتركه هو فيما دون ذلك !

وبعد فقد كان يجدر بنا أن ندوس أمثال تلك المناحي في حياة الراحل العظيم ،  
 وهي كثيرة لم يكتب عنها الكتاب الاعرضاً وتلميحاً .

ايها السادة الادباء ! لن نستطيع أن نفهم الشاعر من شعره حتى نفهمه هو حق  
 نفهم ، وكنت مستغرباً للدكتور طه حسين أخذه على العقاد أن يكتب عن ابن  
 الرومي في غير شعره الى هذا الحد !

أحسب أنه أراد أن يأخذ عليه إهماله شعره ، وهل كان الشعر الا صدئ  
لامثال تلك العوامل ؟ والباحث العميق من نفذ من القشور الى المصاص ، ومن  
الآلياف الى الباب ؟

طاهر محمد أبو فناء



### بداهة حافظ

كان حافظ ، رحمه الله ، حاضر النكتة ، حلو الحديث ، طلق اللسان ، سريع  
البديهة ، وهالك مثلاً على ذلك : —

زار حافظ — أيام بؤسه — مدينة السنبلاوين ، فأضافه كبير من عائلة  
(سليط) وهو صادق افندى سليط — فلما دخل حافظ المنزل مع مضيفه ، جلسا  
في بهو من الأبهاء الفسيحة ، وكانت صورة صادق افندى الزيتية الكبيرة معلقة  
على جدار من جدران هذا البهو ، فطلب منه صادق افندى أن يصف هذه الصورة  
ووعده خمسة جنيهات على كل بيت يقوله ، واشترط عليه ان لا يستغرق في نظم  
البيت الواحد أكثر من دقيقة واحدة ، ثم اختار له البحر والقافية ، وأمسك الساعة  
تواً — فاذا بحافظ يتحف الحاضرين بخمسة أبيات جميلة جداً لا أنذكر منها إلا هذين  
البيتين وهما :

سألنا عزيزَ المجدِ اهداءً صورةً تموجُ بها أوصافه والخلائقُ

فقال لنا لما رأى رسمَ صادقٍ : خذوا صورة الأبحاد، فالجهد صادقُ

فنال بذلك الجائزة ، وكما كانت دهشة الجميع عظيمة عند ما قال لهم صادق انه  
استغرق في نظمها أقل من الوقت الذي أجازته اياه بدقيقتين — وليس يخفى على أحد  
ما في البيت الثاني من التورية الظريفة أيضاً . وهذا مثل واضح على حضور ذهنه ،  
وسرعة بديهته ، وذلاقة لسانه .

فلئن فقد الشعر والأدب فإنَّ فقده عظيم وزرعه جسيم ، ولئن بكاه الناطقون  
بالبضاد في أنحاء المعمورة فقد بكوا ملكاً متوجاً في ميدان القول نثراً أونظماً ، رحمه  
الله رحمة واسعة ؟

محمد سمير الصحراوي

## حافظ الخالد

يا حسانَ القريض عهدُ الحدادِ      قد أتى فارتدى ثيابَ السوادِ  
شاعرُ النيل حافظٌ مات فاشدى      بأغاني الأسمى على الأعوادِ  
مات من شعره جديرٌ بتبر      ذائبٌ أن يُخطَّ لا بالمدادِ  
فأقيمى عليه ماتك الأُكبر      وأتى اليه من كل وادِ

« ٠ »

ربة الشعرِ ما فقدتِ كهذا م      الشاعرِ العبقريِّ من عهدِ عادِ  
مات من كان في رياضك لا ين      فكَّ يمشى مع الصبا وهو شادِ  
فبكاه الهزارُ أيَّ بكاءِ      في الرثبي فوق غصنه الميَّادِ  
وتمشَّى الغديرُ وهو من الأحزان م      دوماً يئنُّ بين الوهادِ

« ٠ »

ربة الشعر انَّ حافظَ أودى      فإليه نادى بناتِكَ نادى  
واضربى حولَ نعشه في رُبى ال      خلدِ نطقاً من الحسانِ الخرادِ  
ولتضعه يدا نسيم الصبا في      كفن من نديَّة الأودادِ  
وليتَّح كلُّ رائحٍ في السموات م      وفى الأرضِ ولينح كلُّ غادِ

« ٠ »

أيها الشاعرُ العظيمُ أينَ لي      حالةُ النابغين في الأحادِ  
أترى الموتَ غفلةً من بلايا ال      عيشِ أم أنه نظيرُ الرقادِ  
أترى في ضريحهِ جسدُ الشاعر      يبلى كسائرِ الأجسادِ  
أم حسانُ القريض تكلؤه      دوماً وتحميه من بلى وفسادِ  
قف على منبرِ القبورِ وانشد      شعرك الجزلَ أيما إنشادِ  
أيها الشاعرُ اشرحْ الموتَ لى اتى م      إلى الموتِ فى شبابى صادِ

شبه الموت لا كما شبهوه      من قديم بمنجل الحصاد  
 ذلك المورد الذي منه ماعا      دلنا وارده من الوراد  
 ذلك المنجع الذي ليس يهوا      ه امرؤ وهو ملتقى الرواد  
 صف لي الروح كيف بالله بعدا      موت تبقى على مدى الآباد  
 وصف القلب هل يصير خلالا      ترب خلوا من لونة الاحقاد  
 أترى يستريح من السنن الو      شين في القبر أو من الحساد  
 أترى في التراب يرتاح من كي      في الأعدى وطائرات العوادي  
 إن نكن للنفاد طرآ ففصر      لي معنى الحياة والابجاد  
 أو تلك الروح للفناء فخير      من هموم الحياة غيش الجاد  
 أو يك الجسم للنشور فأنى      يتلاشى ويقتدى كالرماذ

« • »

هل لنا من يقيم بعدك في سو      ق عكاظ على سرير زياد  
 هل لنا من يهز شعبا غدا يط      مي على الشرق تحت ستر الحباد  
 هل لنا من يبتنا العزم كي لا      تتواني عن رد كيد الأعدى  
 كنت هذا جميعه أيها الشاعر      بل كنت شعله للبلاد  
 فابك يا شرق حافظا واندبي      يا مصر من كان حافظا للوداد  
 وابك يا دهر شاعرا عبقرى      شعر أعلى لنا لواء الضاد  
 قد فقدنا من كان طول سنيه      واقفا للطفاة بالمرصاد

« • »

ملك الشعر قد ذهبت وما خلفت      في ملك سوى أجناد  
 هل نلاق خليفة لك يا ( فر      عون ) يوما في قومك الابعاد  
 انما الأنفس الكبار سيوف      ينتضيها الردى من الاغمار  
 ( حيفا — فلسطين ) :      مؤبر ابراهيم ابراهيم



## في سماء الفن

إلى روح حافظ

أضاء بلبيل الحياة فأضحى نهاراً جميلاً بغير مساء  
وأضحى هجيرُ الخلود ظلالة وظلّ الخلود بديعِ الرواء

« ٠ »

تواري ولكن سناه طريفٌ يُنير الحياة ويجلو السماء  
ويحبو الوجودَ بسرٍّ عميقٍ ويحمي الفنون رهيب الفناء

« ٠ »

رأينا خلال الظلام بريقاً فجددَ خجراً بليغ الصفاء  
وبين الركوز المميت تسمى فعلم موتى النفوس الاباء  
ولكن هدايا الزمان رياء فأين عطاء حواه الوفاء ؟  
وأبن شعاعٌ نبيلٌ تهادي يُذيب الغموض ويمحو الخفاء ؟

« ٠ »

تواري ولكن سناه طريفٌ ينير الحياة ويجلو السماء  
ويحبو الوجودَ بسرٍّ عميقٍ ويحمي الفنون رهيب الفناء

المهرى مصطفى



## تشكر كسورية يا حافظ

فارقد بسلام !

مات حافظ ابراهيم وكان أعظم الناس لوعة عليه أهل سورية . ولا غرو ،  
فحافظ لم يكن لمصر بكليته ، بل كانت أفكاره أبداً تسير وتنطلق نحو ذلك القطر  
الذي عرف في أبنائه خلاناً أوفياء ، ورفاقاً خلصاء .

بكته سورية ولم تشأ أن تتعزى عن فقده . بكت فيه صديقاً حقيقاً ، بكت فيه  
حبيباً غالياً ، بكت فيه ابناً ثانياً ، وعزاؤها فيه صعب المنال . واني أجاهر بأن

لحافظ منزلة لدى أبناء سورية لا يدانيه فيها شاعر مصري آخر ، بل أقدر أن اصريح  
ان اجلالهم له يفوق اجلال أبناء النيل لشاعرهم !

كان حافظ مصرياً صميماً ، يتعدله بحب مصر ، كنير الوجد بها . لكنه أحب  
سورية حباً مائلاً لوطنه ، فخلع عليها من قصائده خيرَ بردها ، وجلبها من الحانه  
بأشجاها ، ولم ير غضاضة أن يصيح :

لى موطن في ربوع النيل أعظمه      ولى هنا فى حماكم موطن ثان

انى رأيت على أهرامها حلالاً      من الجلال أراها فوق لبنان

حسبت نفسى زليلاً بينكم فاذا      أهلى وصحبى وأحبابى وجيرانى

ولا يرى وجهاً للامامة فى تعلقه بحب أبناء الشام ، وفرط ولائه لهم ، وانه ليجد  
نهاية الفخر فى هذه المودة ، فيذيع على رؤوس الاشهاد :

إن يكتبوا لى ذنباً فى مودتهم      فانما الفخر فى الذنب الذى كتبوا !

كان فذاً بين أقرانه شعراء مصر ، كان علماً بين الداعين الى الوئام ، كان  
فريداً فى نشره ألوية المحبة بين أبناء القطرين ، ولقد أجاد فى وصفه  
العلائق بينهما :

إذا أملت بوادى النيل نازلة      باتت لها راسيات الشام تضطرب

وإن دعا فى ثرى الأهرام ذوالم      أجابه فى ذرى لبنان منتحب

وطالما أشار إلى ان السوريين هم دوماً عند حسن الظن بهم ، يجعلون همهم  
الأوحد خدمة كل بلد نزله ، وكل فطر حلوا فيه ، بذات الاخلاص وذات  
المحبة التى يخدمون بها بلادهم . وطالما أشار الى جهادهم فى مصر :

إننا رأينا كراماً من رجالهم      كانوا عليهم لدينا خير عنوان

كم فى نواحي ربوع النيل من طُرفٍ      لىازجى وصرُوفٍ وزيدان ؟

وكم لآحيائهم فى الصحف من أثرٍ      له المقطم والاهرام ركنان ؟

ولم يكن ليقصر عند ذكر الصداقة والاخاء فحسب بين مصر والشام ،  
فلكم افتخر بمفاخر السوريين كمن يفتخر بحامد آله وعشيرته . أنظر اليه يقول  
فى حماسة وحمية وفخر :

بأرض «كولب» أبطال غطارفة  
لم يحممهم علم فيها ولا عدد  
أسطولهم أمل في البحر مرتحل  
لهم بكل خضم مسرب نهج  
لم تبد بارقة في أفق منتجع  
أو ما صلاح به ههنا :

عافوا المذلة في الدنيا فعندهم  
لا يصبرون على ضيم يحاوله  
تيمموا أرض «كولب» فاشعرت  
سادوا وشادوا وأبلوا في مناكبها  
في الكون مورقهم في الشام مغرسهم  
إن لم يفوزوا بسلطان يقرهم  
أو ضاقت الشام عن برهان قدرتهم

لا يرضيه ذلك فقط ، بل انه ليذكر يد سوية على العالم واثرها فيه حتى اليوم ،  
وانه ليشير من طرف خفي الى عبقرية الفينيقيين — أولئك الاجداد الذين عركوا  
الدهر وأبلوه ، ولم يقدر بنوائبه على محق مفاخرهم وآثارهم — وانه ليبدى صراحة  
ان الغربيين من اميركيين وسواهم يفون ذمامهم نحو سورية بانشائهم دور التعليم فيها :

أرى رجالاً من الدنيا الجديدة في  
قد شيدوا آية بالشام خالدة  
لئن هدوكم لقد كانت أوائلكم  
لاغروا إن أعجزوا في الأرض وابتكروا  
فتلك دنياهم في الجو قد نزلت  
دنيا القديمة تبنى خير بنيان  
شتى المناهل تروى كل ظمآن  
تهدى أوائلهم ازمان ازمان  
فيها أفانين اصلاح وعمران  
أعنة الريح من دنيا سليمان

ما ذا أريد بل ما ذا أقتطف من ثمار شعره الشهية ؟ لا أدري والله أى شيء  
أختار وأيه أغفل ؟ وليس لى إلا أن أحيل القارىء على ديوانه وعلى قصائده المنثورة  
هنا وهناك في الصحف والمجلات — التى لا يريد جمعها أحد . . . وأخاف على حظ

حافظ العاثر أن يفنى في حظ شوقي المجدود ، فلا يُسَلِّفَتْ إلى جمع آثاره وحفظها !  
وقف حافظ في منتدى الجامعة الاميركية في بيروت يرثي نفسه في  
ذات القصيدة العصماء التي مدح بها الشام ، يرثي نفسه في ألم وحرقة . . . يرثي  
ذاته أمام من أحبّوه وأجلّوه ، ولم يجدوا كيفية يعبرون بها عن شعورهم العميق  
تجاهه سوى تلك الحفلة الأدبية الكبرى يشيدون فيها بما آثره وفضله ، وتلك  
الحفلات العديدة في دمشق وسواها إمعاناً في التكريم والشكران ، وذلك الوسام  
بعلقة رئيس الوزارة على صدره .

وقفَ يذكّر بؤسه ، ويشكو زمانه ، ويتحسر على حياته ، ويتمنى  
لو أُتِيحَ له انتجاع الصحة دائماً في رياض لبنان وجباله الشامّ ، فيصبح من كبد حري:  
يالبتي كنتُ من دنياي في دعةٍ قلبي جميعٌ وأمرى طوع وجداني  
أقضى المصيفَ بلبنان على شرفٍ ولا أحول عن المشتى بحلوان  
ثم يعود فيعرج على ذكر الموت ، ويحنّ اليه ، ويرتقب مجيئه ، وتكاد تشعر  
بقرارة نفسه تكاد تسيل أسمى بين كلماته المحزنة :

ولّى الشبابُ وجازتني فتوّتهُ وهدمَ السقمُ بعدَ السقمِ أركانِي  
وقد وقفتُ على الستين أسألهَا أسوّفتُ أمْ أعدتْ حرّاً كفاني؟  
شاهدتُ مصرعَ أترابِي فبشّرني بضجعٍ عندها رُوحِي وريحاني  
كم من قريبٍ نأى عني فأوجعني وكَم عزيزٍ قضى قبلي فأبكاني  
إني مللتُ وقوفِي كل آونة أبكي وأنظم أحزاناً بأحزان!

لقد ملّ حياة لم تبذل له سوى مرارة وحنظل ، ولم تكشف له يوماً عن صدرها  
إلا لتريه إياه مدججاً بسهام النوائب والحنن . ملّ حياة وجهها بامم وقلبها غدار  
لا يكاد يغره منها سنا محياها حتى تجاهه بنصالها المحددة ، تخرق كعبة آماله ، وتهدمها  
إلى الحضيض .. فإذا له بها ؟ وها قد جاءتْه المنية أخيراً ، فاخرمته ، وحرمت أهله  
وصحبه وخلانه صحبته الرقيقة ، ولم تكد تضمه تحت طبقات الثرى في ذلك القبر  
الموحش الحقير ، حتى أخذت إليها شاعراً كسف بصيته وعبقريته : ذكرى  
شاعر النيل !

في الحياة والموت لم يصادف حافظ إلا حسكا وشوكاً . في الحياة والموت لم يلق إلا غمطاً وتجاهلاً ، فحق له وهو يعلم حظه المكدود ان يتوق الى الموت ، ليستريح من العناء ويرتاح من رؤية هذه المضادات تقنجم عليه عرين راحته ، وتكاد تسد عليه منافسه ، فتذيقه من علقمها الواناً واشكالاً !

اي حافظ !

ان السوريين قاطبة ليسكرمون فيك دائماً اخاً وصديقاً وحبيباً . يكرمون فيك شاعراً عظيماً ، شاعراً أشاد بمفاخرهم ، وحاول الجمع بين القلوب . وهذه التحية التي يزفها اليك احدهم في هذه السطور يرجو ان تنوب لدى روحك النبيلة ، ولدى أبناء وطنك ، عن سورية وبنيتها الرابضين في الوطن والمهاجرين في اطراف العالم . فأنت وإن مت وغادرت دار الاحياء الى دار الخلود والبقاء ، فإن ذكراك حية خالدة في أفئدة السوريين ، منقوشة ابدأ على صفحات قلوبهم .

وفي ذمة الله يا حافظ ما

ميسبل سليم كبير



## المديح والشكوى والثناء

في شعر حافظ

لحافظ أشعار كثيرة في مواقف عدة ومناسبات مختلفة ، ولهذا لُقِّب بالشاعر الاجتماعي ، وشاعر النيل ، وشاعر الشعب ، الخ . وهو جدير بهذه الألقاب ، إذ أنه الشاعر الوحيد الذي كان ينطق بلسان الشعب ، فيتألم لآلامه ويفرح لما يسره . وأقرب وصف لنفسية حافظ هو ما وصفه به خليل بك مطران من مقالة ذكر فيها : « ولع بالاجتماعيات فقال فيها وأجاد ما شاء ، كبير الآمال عاثر الجسد ، تجرد على أكثر منظره أنثراً من ألم النفس أو مشحة من الشكوى ، وتحمل بعض حروفه من بثه ما يلدغ لدغ النار الكاتمة في غير متقدم »

ان لحافظ أشعاراً في شتى المناسبات ومختلف المواقف كما أسلفنا : فاذا مدح فهو الشاعر الفذ الذي يخلع على ممدوحه ثياب الفخر والبهاء الى أبد الدهر ، وإن شكا من الزمان ومن مفارقة الأوطان والاهل والخلان صور لك روحه كأنها تتقلب على

الجمرفهى تعانى من الآلام ما تعانى . وما كان من أشعاره فى الرثاء فهذا مما لا يجارى فيه ، فهى بجملتها دموع من قلبه تقطر دماً فلا عجب أن يجيد حافظ المراتى بعد أن نعلم أن ذلك الشاعر العظيم نشأ على البؤس والشقاء ، ولا زال يغالبا الأيام وتغالبه حتى ألقى السلاح أخيراً ليرتاح الراحة الأبدية التى لا تعب فيها ولا نصب .

لنبداً أولاً بأشعاره فى المديح : قال من قصيدة يمدح بها الشيخ محمد عبده وهى فى غاية الاحكام وحسن الانسجام ، وحسبك ان تنظر كيف ذلل القوافى وجعلها سلسلة الانقياد ، وكيف خلد ممدوحه فى هذه الابيات الخالدات ، كما خلد نفسه فى طليعة الشعراء الخالدين :

قالوا: صدقت، فكان الصدق ما قالوا ما كل منتسب للقول قوَّال

هذا قريضى وهذا قدر ممتدحى هل بعد هذين إحكام واجلال ؟

انى لأبصر فى أثناء برده نوراً به تهتدى للحق ضلال

حلت داراً بها تُتلى مناقبه يبابها ازدهت للناس آمال

رأيت فيه بساطاً جلّ ناسجُه عليه فاروقُ هذا الوقت يختال

بمشية بين صفى حكمة وتقى يحبها الله لا تبه ولا خال

بيت من الشعر يرنّ صده فى الآذان فيجاوزها فيعم الدنيا صارخاً :

هذا قريضى وهذا قدر ممتدحى هل بعد هذين احكام واجلال ؟

فيجيبه لسان الدهر قائلاً :

لا ورب البيت ، لا أرى أكرم من هذا الاجلال . وأى اجلال أحكم من الذى

يخلد فى صحيفة لا تنسى إلى آخر يوم من أيام الدنيا ؟ فليهنأ قائله وليهنأ من قيل فيه بالخلود الأبدى !

أما ترى الرجل فى الأبيات التالية من قصيدة يمدح بها ادوار السابع ملك الانجليز يوم تتويجه كيف حنكته نوائب الأيام فجعلته خبيراً بأحوال الانجليز وسياستهم الملك وتديرهم شؤونه ودهاهم أكثر من غيره ممن اتصل بهم :

خبرتهم فرأيت القوم قد سهروا على مرافقهم والملك قد سهر

تشاوروا فى أمور الملك من ملك الى وزير الى من يغرس الشجرا

وكان فارسهم في الحرب صاعقة وذو السياسة منهم طائراً حذراً  
بالبر صافنة داست سنابكها مناجم التبر حتى طافت المدرا  
وفي البحار أساطيل اذا غضبت تر البراكين فيها تقذف الشررا  
وهن في السلم والايام باسمــــة عرائس يكتسين الدل والخفرا  
لا ريب ان الرجل بعيد الفراسة ينظر لكل ما يحيط به نظر حصيف مدرب  
لا تتعداه فائتة ولا تفلت منه .

لنجسُ خلال بؤسه وآلامه واتعابه ، ولننظر الى أى حد وصل به ذلك  
البؤس المرهق الذى لا يصمد له من الرجال الا الأفاذ القلائل :

وددت لو طرحوا بى يوم جئتهم فى مسبح الحوت أوفى مسرح العطب  
لعل ( ما فى ) لاقى ما أكابده فودّ تعجيلنا من عالم الشجب  
هكذا فليكن فرض القريض مترجماً عما فى نفس صاحبه وما يساورها من  
خوالج . لازمه البؤس والنصب من عهد الشباب الى أيام الشيخوخة الا قليلا منها ،  
فأرسل الشكوى الحارة المحرقة تقطع نياط القلوب وتقت الأ كباد وتناضل  
عن العبقريّة وحقوقها عند الجمهور المستهين بها .

أوما تراه كيف يأسف على ما جثم نفسه من ركوب الأخطار والاعتاب ،  
لولا أحكام القدر القاسية التى جعلته يكتسب رزقه مضطراً بهذه الحالة المضنية ،  
وكيف عاد يعتذر لنفسه عما لاقته من اعتاب ، وان سبب انعابها راجع الى والده  
الذى عمل على ايجاده فى هذه الدنيا ، وقد زاد على قول المعري :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيت على أحد

بأن أشرك نفسه مع والده فى الذئب إذ يقول :

رمى بها على هذا التباب وما أوردتها غير السراب

وما حملتها الا شقاء تقاضينى به يوم الحساب

جنيت عليك يا نفسى وقبلى عليك جنى أبى فدعى عتابى

الى أن قال من هذه الشكوى المؤثرة :

سّعت وكم سعى قبلى أديب فأبّ بخيبة بعد اغتراب



وما أعذرت حتى كان نعلي      دماً ووسادتي وجه التراب  
وحتى صيرتني الشمس عبداً      صبيغاً بعد ما دبغت إهابي  
وحتى قلم الاملاق ظفري      وحتى حطمت المقدار نابي

ولعمر الحق لو حاول أمهر المصورين أن يصور ما بسطه حافظ من شكوى في هذه الأبيات القلائل لما استطاع ، وكأني أراه خارجاً مع الجنود في بعض المهام إلى بلد بعيد وقد تقطع نعله من كثرة المشي ، فظل يسمى حافياً وقد بلل دم قدميه وجه الثرى ، حتى إذا أدركهم الليل نام ملتحفاً الأرض كغيره من الجنود فاذا أشرقت الشمس في صباح الغد طودوا المسير وقد تضاعفت حرارة الشمس بما يصهر الجلود ويغلي الأدمغة . ولم يزل هذا ديدنه في الأيام التي كان فيها ضابطاً بالسودان في الجيش المصري حتى أحالت لفحة الشمس وجهه المشرق بالبياض ونضرة الشباب إلى وجه قد علاه السواد كما يعلو الصداً سيفاً لبث في غمده أعواماً — فيا لها من أقدار ساخرة لا ترحم ، تلك التي جعلت شاعر مصر الاجتماعي العظيم يتذمر من الحياة ويشكو من أتعابها يا لها من أقدار تلاعبت به كتلاعب القط بالفار حتى قال :

فلو ساق القضاء إلى نفعاً      لقام أخوه معترضاً شحيحاً  
والآن فلننتقل من شقاء متواصل إلى أدمع من دماء سكبتها روح ذافت مرادة الألم وطعم العلقم .

قال من قصيدة يرثي بها المرحوم الشيخ محمد عبده :

سلامٌ على الأُسلام بعد محمد      سلامٌ على أيامه النضراتِ  
على الدين والدنيا ، على العلم والحجا      على البرِّ والتقوى ، على الحسناتِ  
فأنت بمجرد قراءتك لهذين البيتين في مطلع القصيدة تعرف مبلغ الحزن العميق الذي نال الشاعر بفقد الأمام — حزن من أحسَّ بعظم المصاب وفراغ المكان في وقت كان الاسلام في أشد الحاجة الى بقاءه ليخرس السنة الأفاكين . والقصيدة بأكلها تبرهن على حزن ناظمها حزناً لا تشوبه شائبة رياء أو مجاملة .

بماذا تشمر حين تقرأ الأبيات الآتية ؟ ألا تشمر معي بعظم الخسارة الفادحة وقد صور ذلك الشاعر تصوير مفعوج ثا كل فأبدع التصوير حيث قال :

تباركتَ هذا الدين دين محمد      أيترك في الدنيا بغير حمة ؟



تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ولانت قناة الدين للغمزات  
الى أن قال :

فيا سنة مرت بأعواد نعشه لأنت علينا أشأم السنوات  
حطمت لنا سيفاً وعطلت منبرا وأذويت روضاً ناضر الزهرات  
وأطفأت نبراساً وأشعلت أنفساً على جمرات الحزن منظويات

الى أن قال مصوراً للحزن الذى استولى على الشرق خاصة والعالم الاسلامى  
علمه بفقد ذلك العالم الجليل :

بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة وضافت عيون الكون بالعبرات  
ففى الهند محزون وفى الصين جازع وفى مصر بالك دائم الحسرات  
وفى الشام مفجوع وفى الفرس نادب وفى تونس ماشئت من زفرات  
بكى عالم الاسلام عالم عصره سراج الدياجى هادم الشبهات

وهاك أبياتاً من قصيدة قالها فى حفلة تأبين المرحوم مصطفى باشا كامل يترجم  
بها عن الحزن الذى استولى على الناس عند وفاته وشعورهم بخوف فقد زعيم الوطنية العظيم :

تسمعون ألفاً حول نعشك خُشَعٌ يمشون تحت لوائك السيَّارِ  
خطوا بأدمعهم على وجه الثرى للحزن أسطاراً على أسطارِ  
آنا يوالون الضجيج كأنهم ركب الحجيج بكعبة الزوارِ  
وتخالهم آنا لفرط خشوعهم عند المصلّى ينصتون لقارى  
غلب الخشوعُ عليهم فدموعهم تجرى بلا كلج ولا استنثارِ  
الى أن قال :

كم ذات خدر يوم طاف بك الردى هتكت عليك حرائر الافكارِ  
سفرت تودع أمةً محمولةً فى النفس لا خبراً من الأخبارِ

لا ريب أن حافظاً أجاد تصوير الفاجعة على حقيقتها الواقعة تماماً . فهو بعد  
أن تكلم عن ذوات الخدور وخروجهن فى جنازة الفقيد ليשיعنه الى مقره الأخير  
وقد مزقن أستار الحجاب وجاهرن بالسفور أمام الجماهير المشيعة للفقيد عاد فشه

الفقيد بأمة . لتقديره له كزعيم وطني يطالب باسترداد حقوق بلاده . وقد صدق في هذا التشبيه فكل من يسعى في تحرير بلاده فهو لا شك قلبها النابض وفكرها الناقب إذا فقدته فلاحياة لها بعده — بعد سكون قلبها من خفقانه وخود فكرها بعد توقده — حتى يقوم فيها بعده داعٍ أو دماء يسمعون في تحقيق أماني البلاد فتُبعت من جديد بعد الموت مع الأمم الحية .

والآن لنضع القلم عند هذا الحد مكتفين بهذا النذر من حياة ( الشاعر الاجتماعي ) الأدبية فقط . أما حياته الخاصة فلنترك الكلام عنها للمتصلين به من أبناء مصر المجيدين ولنترك الدهر منشداً بلسانه :

خالدة الآثار لا تحش البلى ليس يبلى من له ذكرٌ خلده  
الجزيرة ابا - السودان : بشري السبر أمين

### سيرة حافظ

الى الشاعر البأس شاعر الانسانية المعذبة الناشر الحق والنور ، الشبيه بتلك الشمعة التي تذوب لتضيء لغيرها ، المتعلق بأهداب الوطن الجريح ، ذلك الذي هدمت آماله وبذدت أمانيه ، وبعثت أحلامه ومات وهو يردد « مصر فوق الجميع » الى روحه الطاهرة المرفرفة بجناحها في سماء آلهة الشعر بجانب عرائس الجنات في عالم الخلود ، اليك يا حافظ أهدي رسالتي . . . . .

#### ١ - مولده

في فجر يوم من أيام سنة ١٨٧١ بدروط وأسرته في عيدها الأ واحد تستقبل ابنها الأ واحد الذي أبت الأقدار أن تبعث به من عالمها الرهيب المجهول الى عالم الخلد بصوره وآياته الا في ذلك الوقت الأخير وقد رفع أبوه طرفه الى السماء مردداً : « اللهم لك الشاء العاطر والشكر الجميل » !

وظل ذلك الوليد العزيز ينعم بقبلات أبويه صباح مساء حتى بلغ السنتين أو يزيد ، ثم نُكِبَ بموت والده الذي تركه بين أحضان أمه التي أضناها الأسمى وحزبها الألم وقضت من بعده وهي تتمنى لو أن تقتدى ما في حياتها من زينة وبهجة وسعادة ومال ببقائها ولو بضع سنين حتى ترى حافظها يسير سير الرجال

ومحدثها كأم وقد امتلأ عافية ونضارة وجمالاً ، وكفله خاله ورباه وقد ضاعت ثروة أبيه وأضحى لا عائل له غيره .

## ٢ - طفولته

ليس أمامنا من المصادر والتحقيقات ما يشير إلى طفولة حافظ بكثير ولا قليل غير حادث يتمه المبكر هذا الذي أثر في تكوين شخصيته إلى حد أن يقول التوفى عنها : « ويظهر أن لذلك اليتيم المبكر أثراً في تكوين شخصية حافظ الدفينة الحزينة فلقد كان حافظ في قرارة نفسه كما سيتبين بعد حزيناً ، فكان إذا خلا إلى نفسه أو إلى صديق ظهرت خفائا نفسه ، وإذا قال الشعر كان عليه مسحة كبيرة من ذلك الحزن الدفين ولذلك خلا شعره من الفكاهة وخفة الروح التي عرف بها المرحوم الفقيد في المجالس والسوامر » . . .

أجل ، فالحزن قد طبعه بطابعه الخاص حتى انه كان لا تستجيب إلى نداءه آلهة الشعر إلا إذا ما بكى ، وفي ذلك يقول رحمة الله عليه : « لا يطيب لي نظم الشعر إلا إذا ما كنت محزوناً » .

إذا حُرِمَ ذلك الطفلُ أبويه وأضحى يتيماً محزوناً ، محروماً تلك القبلات الحلوة الأتوية ، وهذا العالم أمامه قطعة سوداء قائمة صاغتها يد الحزن والأسى .  
أجل ، فقد قضى سنَى طفولته وهو ذلك الحزين اليتيم الذي لا يشعر بعطف أب أو حنان أم ، ومدارسه التي جاس خلالها من الابتدائية حتى الجندية والشعرية يحوطها الحزن من كل مكان !

## ٣ - تعليمه

دخل المدرسة الابتدائية ثم لما نال جائزة التجهيزية ساءل نفسه : ماذا أصنع ؟ وبأى مدرسة ألتحق ؟ وأى الرجال أحذو حذوه وأنسج على منواله ؟ فلم يظفر من نفسه بغير هذا الجواب : « الحربية والبارودي » لكنه عاد إلى نفسه وقال : لماذا ؟ فظفر بهذا الجواب : « ان قامتي المديدة الفرعاء وتركيبى القوى المتين هما الدليل الناصع على صلاحيتى للحرب ، وروحى الشعرية الجميلة التي يزورنى طيفها فى الامسية الحزينة والأصيل الضاحك هي التي تمكننى من القيادة العامة التي أنوق اليها ، وبذلك أحمل السيف والقلم عن جدارة واستحقاق » .

فكان له ذلك والتحق بالحرية وخرج منها برتبة ضابط وما لبث أن وزّع على السودان يحمل بين جنبيه قلباً مملوءاً بالآمال ينشد المجد وينظر إلى السماء .

لكنه تلفت حوله في السودان فرأى شمساً محرقة تلفح الوجوه بسعيرها وزملاء يغلب عليهم الجهل والجذب الروحي ، وان ذلك الحلم الذي نشده طالباً أخذ ينهار ، وهنا تتفتح عيون شاعريته أو بعبارة أخرى مدرسته الشعرية .

#### ٤ — حياته

رأى اليد الانجليزية تسيطر على الجيش المصرى فزأر لكرامته المهدورة ، ورأى جهل اخوانه وشمس السودان المحرقة تحول بينه وبين نعيم الشاعرية الذى ينشده في ظلال الجزيرة وأنديه العلماء ومجالسهم ، ورأى في السودان برغم ما حبته الطبيعة من صور الجمال ذلك الجذب الروحي الذى يمقته ، وشكواه تترأى لنا من خلال أبياته التى بعث بها من السودان إلى صديقه يرم وقال في مطلعها :

نزحتُ عن الديار أدوم رزقي وأضرب في المهامه والتخوم  
إلى أن يقول :

ولولا سورةٌ للمجد عندى قنعتُ بعيشتى قنعَ الظليم.

ومن كتابه إلى أستاذه الإمام محمد عبده الذى يسأله فيه انتشاله من وهدهته هذه فيعبده خيراً ويرجع اليه ثانية يسأله : « مثل كتابي إلى سيدى وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل » الى آخر هذا السجع المملول المزوج ببعض المقطوعات الشعرية ارقية ويعده الامام ثانية خيراً وظل حافظ متبرماً إلى أن قامت ثورة الضباط المصريين وأبعد حافظ إلى مصر مغضوباً عليه رهن المحاكمة مشدوه الفكر مبجل الخاطر حتى صدر عفو الخديوى ورجعت اليه طأئنته وحرية . وكانت هذه الساعة هى أخرج ساعات حياته إذ أنه رأى بعينى رأسه فشل الثورة العربية وأستاذه البارودى معرضاً للمحاكمة ونفوذ المستعمرين قد ازداد وأمله الجندى ينهار والكرامة المصرية كأنها لم تك شيئاً مذكوراً .

ولما استقرت الأمور بعض الشيء رجع حافظ ثانية إلى الخدمة لكنه ما لبث أن طلق الجندية طليقة بائنة لا رجعة فيها مردداً هذه الانشودة : « أى يوم عرفت الحائم غير سماء الحرية ونور السلام ! »

انقطع للشعر والترجمة والتأليف وعاش معيشة بوهيمية هي قطعة من خيال الشاعر الذي يأبى القيود والأقفاص ولو كانت من ذهب !  
وعلى ما أذكر كان حافظ قد التحق بالمحامة أمام المحاكم القديمة قبل اتصاله بالحربية وبعد ذلك واشتغل مع بعض أعلام المحامة في ذلك العهد .

ومنذ ذلك الحين وهو يرسل آياته التي أفضت جانب الاستعمار تارة والرجعية تارة أخرى ، والتي عرفت بأنها آيات الوطنية والاجتماع من شاعر الانسانية ومن شاعر النيل قبل كل شيء .

ولما أن تقدمت به السن رأى الحياة الأدبية راكدة آسنة وأُتيح له عطف ولاية الأمور حينئذ فالتحق بدار الكتب المصرية في سنة ١٩١١ وبقي فيها حتى أوائل سنة ١٩٣٢ فخرنا شعره جل هذه الفترة الطويلة حتى اذا ما انقضت وأُحيل إلى المعاش أرسل صيحاته التي اشتهر بها في وجه الاستعمار والرجعية في هذا العهد الأخير ، ولم تنقطع صيحاته هذي الابعوتة في ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ .

#### ٥ - بؤسه

خير من فطن من الكتاب إلى بؤس حافظ الأديب التوني إذ يقول : « هذا بؤس نفساني روحاني ، وليس بؤس المادة والحاجة والطمع » .

أجل ! فبؤس حافظ ينحصر في آماله المتهدمة ونماثيل مجده المحطمة وقصوره التي بناها في الخيال ولعبت بها الرياح الهوج !

شاعر من شعراء الانسانية يحمل القلم والسيف يهز بالأول أوتار القلوب بما يبغته من الآيات الرائعة تارة ، وأخرى يبعث الدمع السخين من المآقي بأناته الشاكية من الظلم والظالمين والرجعية والمستعمرين وجهل أمة متأخرة تناوي المصلحين وتشايع الرجعية الجاهلة وتؤيدها ونوم شرق راكد لا يفيق ، فالاستعمار يخنق الشعب والأمة تعبد الأصنام والموتى والشرق يقدر الجود والركود !

يود لو أن سيفه يعمل في الدائرة التي خلقت لها كقائد عام فلا يمد جنودا بل يرى فلولا أثر فلول وهزيمة أثر هزيمة وما يتبع ذلك من المصائب والويلات .

فلما ذا لا يتملكه البؤس ؟ ولما ذا لا تهدم آماله ؟ ولما ذا لا يقول :

لكنني غير محدود وما فتئت يدُ المقادير تقصيني عن الأرب

وقد غدوتُ وآمالى مطرحة وفي أمورى ما للضبِّ في الذنب  
أى وربى ، كان له أن يقول :

وحتى قلم الاخفاق ظفرى وحتى حطم الافراط نابى  
بدلاً من قوله :

وحتى قلم الاملاق ظفرى وحتى حطم المقدار نابى  
الاخفاق اخفاقه كقائد عام ينشد حياة جديدة للجيل الجديد والاجيال المقبلة ،  
والافراط افراط الشعب فى جهالاته وضلاله وغبه وغفوته الشبيهة بالموت الابدى !  
٦ — ملاحه وصفاته

مديد القامة ، قوى البناء ، ذو وجه صبور ، وشاربين طويلين ، وعضل مفقول  
وصوت عذب ، وجسم متين خلق للجندية والكفاح .  
وهو فى ( مرآة البشرى ) : يحب الجمال ويكره القبح وينعى على أهله ،  
تجابه بذلك مجابهة ، لا يتقى فى القول ولا يتحرف ، خفيف الظل ، عذب الروح ، حلو  
الحديث ، حاضر البديهة ، رائع النكتة ، بديع المحاضرة . إذا كتبك يوماً أن تشاهد  
مجلسه أخذك عن نفسك حتى ليخيل اليك أنك فى بستان تمطفت جداوله ، وهتفت  
على أغصانه بلبله ، وأشرق نرجسه ، وتألّق ورده ، فأذكرك طلعة الحب : تأنك عيناه وهذا  
خده ! تنفس فيه النسيم بسحر هاروت ، فأعجب لمن ينشر هذا النسيم كيف يموت !  
والبدر فى ملكه بين الهجرة والجوزاء ، يخلع على الروض حلة فضية بيضاء ، فلا تدرى  
أأمست السماء فى الروض أم أمسى الروض فى السماء ؟ كان متلاًفاً إلى حد كبير : فقد  
تجتمع له الالف ولا تمكث فى يده أسبوعاً ، متفنناً فى طعامه وشرابه إلى حد كبير .  
فلنتقل الى رثائه ففيه مادة غنية خضبة تغنيك بعض الشئ ، يا صاحبي عن نقل الرثاء  
وفنه المرذول بجانب شعرنا العصرى الجديد ، ذلك الشعر الانسانى الناظر الى السماء .  
ان قصيدته فى رثاء الامام محمد عبده هى وايم الحق كتمثال صامت له ، فانظر اليه  
فى مطلعها :

سلامٌ على الاسلام بعد محمد سلام على أيامه النضرات !

أليس فيه من المتعة الفنية ما يحبب اليك الشاعر وشعره المتمثل فى قوله :

لقد كنتُ أخشى عادى الموت قبله فأصبحتُ أخشى ان تطول حياتى !

فن جزالة في اللفظ ورصانة الى قوة في المعنى والصياغة تراها في هذه القصيدة  
أوبعبارة أخرى في ذلك التمثال .

لكنى لم يرقى قوله :

فيا منزلا في عين شمس أظلنى وأرغم حسادى وغمّ عدائى  
لان الشاعر في موقفه الانساني المشرف هذا ماكان يجدر به أن يهوى الى هذا  
الحضيض حيث الدنيا بما فيها من حقد وحسد وعداء .

وقد اتهمه الدكتور طه حسين في تقليده لمسلم بن الوليد في قصيدته « لا تدع  
بي الشوق انى غير معمود » لقوله في استاذة البارودى « ردوا علىّ بيانى بعد محمود » .

واننى رغم تسليمى ببعض نظرية الدكتور طه فان هذه القصيدة والحق يقال ليست  
غير تمثال بديع للبارودى الذى أحبه حافظ ونسج على منواله في الشعر ، وانه — أى  
البارودى — هو والمعري هما اللذان أثرا على شعر حافظ بأثارهما التى أحبها  
كلّ الحب .

وتجلى الشعبية الخالصة عند شاعرنا في رثائه لرجال الوطنية كمصطفى كامل  
وفريد وزغلول ، فاسمع اليه في قوله يرثى مصطفى كامل :

أرى جلالا ، أرى نورا ، أرى ملكاً أرى محياً يحينا ويبتسمُ  
الله أكبرُ ! هذا الوجه أعرفهُ ! هذا فتى النيل ! هذا المفرد العلمُ !  
وخير رثاء له عندى قوله في المرحوم قاسم أمين :

الحكمُ للأيام مرجئه فيما رأيت فتمّ ولا تسلِ  
وكذا طهارة الراى تتركه للدهر يُنضجه على مهل !  
ولك أن تنتقل معى من رثائه الى وصفه فتجده قد أجاد الوصف رغم اقلاله  
واقصاده . انظر اليه في قصيدته عن « الشمس » :

نظر ( ابراهيم ) فيها نظرةً فأرى الشكَّ وما ضلّ اليقينُ  
تجده يستمر معك في ضخامة معانيه وجزالته القاطعة الى أن يقول :

هى طلحُ الروض نوراً وجنى هى نشرُ الورد طيبُ الياسمينُ



فيحملك على أن تتغنى بهذه القطعة كانشودة عذبة طبعت بطابع الخلود .  
واقراً معي وصفه هذا الذي وجهه الى صديقه عمون بك :

قصورٌ كأنَّ بروجَ السما    و خدورُ الغواني بأدوارها

فهو جميل الى حد ما ، بيد أنك يا صاحبي لو ظلت تنقب في صفحات الديوان فلن  
تعثر على قطعة وصفية فنية ممتازة مما تغنى به الشعراء المحدثون .

ولكنك لو تلست لحافظ الاعذار في اهماله تلك الجوانب الشعرية الخالدة  
فليس لك أن تلتبس العذر له في اهماله « النيل » ذلك الاهمال المزرى به كشاعر  
النيل !

ألم يخلق بجناحيه أيَّ يوم في سماء النيل في سياحة روحية ويرى آلهة الشعر  
وعرائس الحب وبنات الجبال تشدو بحمالة الخالد على عمر الدهور والعصور حتى يصف  
لنا ما شاهد في ثوب جميل من أثوابه الغانية التي كان يحوكها من نسج فؤاده ؟  
يقولون إن حافظاً كان قوى الحافظة وخاصة في استظهار روائع الشعر العربي ، وقد يكون  
هذا صحيحاً ... لكنني أشك في قوة حافظته لاسيما بعد أن تعدى طور الشباب الاول ،  
ذلك لانه كان ضعيفاً في اللغة الفرنسية لدرجة انه لم يقدر على ترجمة البؤساء ، وكتيبه  
الاخلاقي ضعيف كذلك لعدم احاطته بأسرارها ، ولأنه لم يتكلم بها ولم يقرأها كالادباء  
الذين يحيطون بأحدى اللغات للاضطلاع بأدائها وعلومها ، وهو كما يقول مطران : « يقول  
الشعر في كل مكان يتفق له أن يخلو بنفسه ، ومن عادته دخول حديقة الازبكية بعد  
الظهر طلباً لتلك الخلوة » . وكان لا يهتم كثيراً بالنهضة العلمية وذلك لاختلاطه الكثير  
بعضائنا الذين لاحظ لهم الا التندر والترجيلة والدعابة والمجون - أولئك الذين لا يتسع  
وقتهم لمسيرة الثقافة . وكان حافظ كريم الخلق طيب القلب الى حد كبير ، وكانت  
حياته الدراسية والجنديّة والشعرية والحكومية حياة رجل يفهم الحياة في وضوح  
وجلاء .

#### ٧ - آثاره

ان تحليل آثاره ونقدها هو بيت القصيد في هذه الدراسة ، لكنني سأوجز في  
ذلك حتى تتسع صفحات « أبولو » لمثل هذه الدراسة ، وابدأ الآن بالديوان .

الديوان في ثلاثة أجزاء وينقصه جزء رابع لم يطبع بعد . وأول شيء يطالعك فيه



المديح والرثاء تقليد للشعراء الاقدمين . وأنا من أشد أعداء المديح والرثاء ، ذلك لاني لا أجد فيهما تلك الآفاق الرحبة التي خلّق الشاعر ليخلق فيها ولان آلهة الشعر يجب أن لا تنزل من سمائها حيث الحب والحقيقة والجمال الى ذلك الدرك الأرضي حيث المادة والعبودية والضلال .

لكنني أئتمس العذر لحافظ لانه كان يجد في ذلك ما يعينه على حياته المادية من جهة ، ومن جهة أخرى كان يسير وراء العرف المتبع في ذلك الوقت : « ليس الشاعر بشاعر الا اذا أجاد المديح والرثاء » !

أنظر اليه في مديحه للجناب الخديوي : أترى غير نظم لاروح له ، قاله صاحبه مجارة للوقت والتقاليد ، ومنافسة للشاعر شوقي الذي استلب منه الامارة ١٩ وماذا كان يعنيه من قوله الى الجناب الخديوي ( ص ٢٣ من الديوان ) :

تشدو وترهف بالاشعار مرتجلا      وتبرز القول بين السحر والعجب !  
وانظر اليه في قوله من المديح :

تعمدت قتلى في الهوى وتعمدا      فا ئتمت عيني ولا لحظه اعتدى !  
أليس يستوقفك هذا البيت إلى درجة أن تقرأ غيره كقوله في المديح هذا أيضاً :  
ولو أنهم قدّوا غدائر فرعها      فأكوا له منها نقابا إذا بدا  
إذا ليس لنا ان تقف وإياك أمام هذا المديح وغيره لأننا فهمنا أن الشعر غير المديح !

ومن هذا الشعر الصناعي قوله :

خمرة قيل إنهم عصروها      من خدود الملاح في ليل عرس

مد رآها فتى العزيز مناماً      وهو في السجن بين هم ويأس

أعقبته الخلاص من بعد ضيق      وجته السعود من بعد نحس !

وله قصيدة في وصف أزمة نفسية ، جاءت له مهلهلة الاوصال مفككة الاوصال مبتذلة

من واجد منقر المنام      طريد دهر جائر الاحكام

وقد نظمها وأفرغها من الروح الشعرية ففاضت روحها عند نظمها !

« • »

ليس يبقى أمامنا من ديوانه غير شعره الوطني الاجتماعي ، وهو على حد قول اكثر

النقاد ميزته الواضحة التي عُرف بها في حياته كشاعر وطني ضرب في البحوث الاجتماعية بسهم وافر ، وسخر الشعر لأغراضه ، فكان له كل ما أراد من جزالة لفظ وقوة معنى .

رأى الشعب يستكين لظلم المستعمر الغاصب ، ويستكين للرجعية الجاهلة ، ويستكين للتقاليد الشائعة والخرافات الفاشية ، يعبد الاصنام ويقدم القرابين للموتى والمتوهين ، بعيداً كل البعد عن الحرية والنور ، فقال :

ودأى كداء الدين عزّ دواؤه وحظي كحظ الشرق نحس كواكبه  
فيا ليت لي وجدان قومي فأرتضى حياتي ولا أنشئ بما أنا طالبه  
ينامون تحت الضيم والأرض رجة لمن بات يأبى جانب الذل جانبه  
وخاطب أستاذه الامام يشكو قومه الذين عبدوا الاصنام والموتى وما يزالون  
يعبدون الأصنام والموتى :

رأوا في قبور الميتين حياتهم فقاموا إلى تلك القبور وطوّفوا  
وباتوا عليها جائعين كأنهم ( على صنم في الجاهلية عُكف )  
وحده وعطفه يطلان علينا من خلال قصيدته « آلامنا وآمالنا » التي يخاطب بها  
المرحوم الامير (السلطان) حسين كامل :

لعمرك ما أرتقت لغير مصر وما لي دونها أمر يرام  
الى أن يقول :

أرى شعباً بدرجة العوادي تمخّخ عظمه داء عقام  
إذا ما مرّ بالبأساء عام أطلّ عليه بالبأساء عام

وانظر اليه في قصيدته « حادث دنشواي » ذلك الحادث التاريخي الذي تذكره  
الانسانية المعذبة بقلب مليء بالحسرات وبدمع هتون أشبه بدمع الناكلات ، تذكره  
كنسبة في تاريخ البشرية الظلمة التي يفتك قوياً بضعيفها ، والتي اذا ما ذكرناها  
ذكرنا قوميتنا المهدورة وحققنا المضاع :

أيها القائمون بالأمر فينا هل نسيتم ولاءنا والوداد ؟  
انما نحن والحمام سواء لم تفاد أطواقنا الاجيادا

الى أن يقول :

ليت شعري أتلک محکمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عاداً ؟  
أليس هو وشعره المرأة الصادقة التي تنعكس عليها صور الشعب المتألم الراسف  
في اغلال الاستعباد وقيود الهوان ، يئن وما لصوته من سميع ؟  
بلا شك هو أول شاعر اجتماعي في الشرق العربي استطاع أن يضرب على الوتر  
الحساس ويرضى العامة والخاصة وبصنع شعره بصبغة تميزه عن غيره وتجعله أقرب  
إلى جانب الحق والخلود .

وانظر اليه وقد ضاق ذرعاً بشعبنا المسكين الهاديء الذي جرحت كرامته ولم  
ير في ذلك من حرج :

أنا لولا أن لي من أمي خاذلاً ما بتُّ أشكو النوبا  
أمةٌ قد فتَّ في ساعدها بغضها الأهل وحبُّ الغربا  
والى قوله من قصيدة أخرى :

لقد غضب الناس من قبلنا لنسب الحقوق ولم نغضب  
أمرؤ تمرَّ وعيش تمرَّ ونحن من اللهو في ملعب  
وشعبٌ يفرُّ من الصالحا ت فرار السليم من الأجر  
وانظر اجتماعيته الخالدة التي قالها بمناسبة افتتاح مدرسة بورسعيد للبنات  
ومطلعها :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى في حبٍّ مصر كثيرة العشاق  
والتي جمعها في هذا البيت الخالد :  
الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق  
وانظر الى قصيدته في وداع اللورد كرومر إذ يقول :

رمي دار المعارف بازرايا وجاء بكل جبار عنيد  
يدلُّ بحوله وينيه تها ويعبث بالنهى عبث الوليد  
وإن أنس لا أنس عتبه على مصر في أبياته التي يقول في مستهلها :

ماذا جنيت وما جناه بنوك أظلمتهم يا مصر أم ظلموك ؟  
وندائه في سبيل الوثام بين مصر والشام :

لمصر أم لربوع الشام تنسبُ هنا العلاء وهناك المجد والحسبُ ؟  
وشعره الوطنى ينطق بصدق إخلاصه ووطنيته الجائشة الفياضة التى عُرف  
بها الفقيد فى حياته .

ومن شعره الوطنى الذى لم ينشر فى المطبوع من ديوانه قصيدته التى نشرها « البلاغ  
الأسبوعى » بعدده الأول و مطلعها :

قد غفونا وانتبهنا فاذا نحن غرقى وإذا الموتُ أممٌ  
وفى أترك بقية شعره للكتاب الذى سيصدر عنه ، واكتفى الآن بالتحدث عن  
بقية آثاره ، ولكنى لا أعذر حافظاً بأى حال من الأحوال فى أهماله الثورة المصرية وعدم  
ذكره أى شئ عنها يستحق أن يُشاد به .

( لىالى سطيج )

أنشأ حافظ ( لىالى سطيج ) فى مواضيع اجتماعية على مثال حديث عيسى بن  
هشام للموهلجى الذى اشتهر به فى ذلك العهد شهرة واسعة . ولكن كتاب لىالى سطيج  
يختلف كثيراً عن حديث عيسى ، ذلك لأن حافظاً باعد بينه وبين ذلك السجع المملول  
الذى بنى عليه حديث عيسى ، وليس معنى هذا ان لىالى سطيج خالية من السجع قوية  
الأسلوب ، بل انّ سجعها أقل من سجع حديث عيسى بكثير وأسلوبها أقرب الى  
أسلوبنا الحديث

وهى نواة القصة المصرية الحديثة التى كنا نودّ من حافظ أن يقتحم أبوابها لو  
أنه راعى فيها الأسلوب والشكل والوحدة الفنية . ومناقشة ما جاء بلىالى سطيج من  
الآراء يحتاج الى أكثر من صفحات « ابولو » ، فعسى أن أوفق الى تقديمه  
وتحليله فى فرصة أخرى .

( البؤساء )

قصة عالمية من الأدب الرفيع لفكتور هوغو ، ترجمها حافظ — استغفر الله بل  
اقتبس منها جزأين صغيرين ولم يستطع إتمام ترجمتها لما لاقاه من المشقة والعناء  
لعدم تمكنه من أسرار اللغة الفرنسية من جهة ، ومن جهة أخرى لغرامه المنقطع

النظير باللفظ مما حشده بالترجمة العربية ، وبالرغم من أن هوجو واشتهر باغراقه في اختيار ألفاظه أغرق شاعرنا أيضاً في اختيار ألفاظ الترجمة العربية حتى بعدت عن الأصل الفرنسي . ولو قارنت بين الترجمة والأصل الفرنسي لظهرت الاختلافات التي نأخذها على حافظ وحدث به الى أن لا يقدر على اتعام الترجمة ، وسنبين ذلك كله في فرصة أخرى . أما كتابه في التربية والاخلاق أو بعبارة أصح كتيبه فقد نقله الى العربية في اسلوب سليم وعبارة سهلة تتفق ومشارب أطفالنا وللأسف لم يترجمه جميعه بل ترجم منه جزأين أيضاً

وترجم كتابه في الاقتصاد هو ومطران ترجمة دقيقة يرجع الفضل في دقتها واستيعابها لمطران لا لحافظ !

#### ٨ — تجديده

بالرغم من نسجه على منوال الشعراء القدماء فله في الشعر نظرة أقرب الى نظرتنا ، ولو أنه لم يبرهن على ذلك الا بشعره الاجتماعي ومنظومته الصغيرة التمثيلية «غادة بيروت» التي لا يصح اعتبارها قطعة فنية تمثيلية كما تكون القطعة الفنية التمثيلية . بل هي عندي قصيدة جديدة لحافظ ومحاولة سيرة لتجديده لا أكثر ولا أقل ، وكانت سنحت له الفرصة الفنية بوجود تلك المادة الخصبه التي تسعف الشاعر الموهوب بما يتطلبه منه الفن من حق وجمال وتجديد يظهر لنا من قصيدته التي يقول فيها للشعر : « ضعت بين النهى وبين الخيال » .

#### ٩ — شعره

من أفخم روائع الشعر العربي ، تغلب عليه الجزالة والرصانة والقوة ، ولو كان له الخيال والخصب والثقافة الحققة خلق لنا من الآيات ما تنظر اليه الأجيال القادمة بعين الإعجاب .

#### ١٠ — لمحة خاطفة

يعتب الرافعي على فن الترجمة خلوه من النقد التحليلي من جهة ، ومن جهة ثانية لانه لا يتعدى الشرح والتفسير ولانه ليس المثل الاعلى الذي ينشده الناقد الهادم النافذ البصيرة . ونحن من أشد أنصار النقد التحليلي ومن أشد أنصار الهدم متى

وجدنا أن الأساليب والمخازج الشعرية أو الأدبية أو الفنية التي تقدم إليها مهلهلة سقيمة لا تتفق والمثل العليا التي تنسب بها فوق غرامنا بالترجمة التحليلية التي تساعدنا على فهم الشاعر أو الأديب أو الفنان لأنها بمثابة التحقيقات عند القاضي النزيه !

ولابد أن تسألني يا صاحبي لماذا أغفلت هذه الناحية النقدية عند حافظ فاجبيك بأن شعر حافظ فيه من السذاجة والبساطة والصدق والجمال ما يجعل الناقد يقف معه موقف الصداقة والحذب لا موقف العداوة .

فإذا تطلب من حافظ ونقده وقد أجاد الرجل الرثاء ونبغ فيه وشارك الشعب في آلامه وآماله وأضحت رسالته رسالة المصلح الاجتماعي الذي تحبه الإنسانية المعذبة والعدالة والقانون ؟

إذا ليس لنا أن نغلو في نقده كما نغلو في نقد شوقي أو العقاد أو الزهاوي أو أبي شادي لأن لكل منهم عوالمه التي خلق في مفاوئها ومثله العليا التي نشدها . ولابد لكل واحد منهم أن يدفع الثمن غالياً لأن المثل العليا لا تعرف الهوادة ولا اللين ؟

أحمد محمد عيسى



## الشاعر البائس

حياته — الكتب التي قرأها — الشعراء الذين تأثر بهم — نظرات في شعره  
مظاهر البؤس فيه — أسباب بؤسه — حسنات هذا البؤس وسياته

منذ نصف عام تقريباً أخرج الدكتور أبوشادي محرد « أبولو » كتاباً خاصاً بذكرى المغفور له أحمد شوقي بك حشد فيه شتيراً من الدراسات المستفيضة ، والقصائد الرائعة لكبار الكتاب والشعراء في مصر وفي غير مصر وسيظل هذا السفر القيم الذي أتيج لي أن أساهم فيه بنوع من هذه الدراسات خير مرجع لمن يريد الكتابة عن هذا الشاعر الخالد في المستقبل .

واليوم يسجل له التاريخ اليد الثانية على الأدب حيث يخرج لنا عدداً خاصاً بحافظ : ذلك الشاعر المغبون الذي عاش بائساً ومات بائساً، ولا أود أن يموتني الاشتراك في هذا العدد التذكاري الذي اعتقد أنه لن يقل عن سابقه جمالا وجلالا .

ولقد مضى على أكثر من نصف شهر وأنا أتصفح ديوان حافظ بدأب وشغف وأمعن في دراسته لأتمس ناحية غالية أو عاطفة مسيطرة على شعره أعالج في بحثي الذي اتوخته دراستها وتحليلها فكنت في كل صفحة من صفحات هذا الديوان وفي كل سطر من سطوره أرى البؤس ماثلاً سافراً وأحسّ بحلق الشاعر وتبرمه بالحياة وأهلها واضحا ملموساً في جميع ما قرأت .

### مبائه

عاش حافظ ستين عاماً أو تزيد قليلاً قضى الجانب الأعظم منها مكتئباً حزيناً، وكانت حياته بوجه عام سلسلة من الآلام والمتاعب ليس فيها ما يبعث الأمل أو يساعد على السلوان . وهذه الحياة الشاقة المضنية تختلف في أطوارها اختلافاً تقسمها من أجله الى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : نشأ حافظ نشأة لم يفارقه البؤس فيها لحظة واحدة وتعرف إلى الحزن والكآبة في مهده فاستنكر وجوده وتمنى في هذه السن المبكرة فناء وفي ذلك يقول :

وودت لو طرحوأبى يوم جئهمُ في مسيح الحوت أو في مسرح العطب

وقد كانت له نفس طُلعة تميل للمجد وتكلف بالمعالي . لم ير في تعليمه البسيط ما يغذى هذه النفس النهمة فطفق يغذيها بالقراءة والاطلاع وهو بعد فتى لم يطو من طريق الحياة أكثر من عشرين عاماً . وما إن وصل إلى هذه السن حتى كان قد قرأ من أمهات الكتب أكثر من خمسين كتاباً كما يقول عارفوه والمتصون به عن كتب وكان يقرأ الكتب بنهم وشغف ويحفظ من كل منها أحسنه وسنتحدث إليك في موضع آخر عن نوع هذه الكتب — وقد بدأ منذ هذه السن ينظم مقطوعات قصيرة أكثرها في المدح ومداعبة الأصدقاء .

المرحلة الثانية : لم يكد حافظ يبلغ العشرين من عمره حتى التحق بمدرسة الحربية



كضابط بمرتبة ضئيل لا يكاد يكفيه ، وكان يقضى أوقات فراغه من عمله على وجازتها بين الكتب . وشاءت المقادير بعد ذلك أن يُنقل حافظ الى السودان فطوحت به يد النوى مأسوفاً على فراقه من أصدقائه وخلانه .

وكانت الحكومة إذ ذاك تعد السودان منفي للمغضوب عليهم من الجنود والضباط ومكت حافظ في السودان بين نارين نار القبطونار الغيظ . وكان الحاكمون به يومئذ خليطاً من المصريين والانجليز ، وكان لأولئك السلطة الفعلية في جميع الأمور، وكان حافظ ينظر إلى هؤلاء والانجليز المعاشرين له بعين البغض والشنآن ، ويزداد حسرة والمآكلاً رأى نفسه وإخوانه عبيداً لأولئك القوم الطارئين . وجدير برجل كبير النفس رفيق الاحساس كحافظ أن يتأثر بما حوله وأن تظهر هذه الآثار في نظمه ونثره ، وكتابه « سطيج » أصدق مرآة تمثل لك حياته الخاصة في السودان ومعاملة الانجليز له ولمعاشريه من المصريين في هذا العهد الذي يصفه لنا في قوله :

إذا نطقتُ ففقا السجن متكئ وإن سكتُ فإن النفس لم تطب

وسنتحدث عن هذا الكتاب بنوع من الاسهاب عند دراستنا لنثره .

أمّا آلامه في السودان وما كان يعانيه في بيئاته من بؤس وعذاب فقد تكفلت ببيان معظمه تلك الرسالة التاريخية التي بعث بها من منفاه الى الاستاذ الإمام يرجوه فيها أن يسعى لدى ولاء الأمور في نقله من السودان ، وكانت هذه الرسالة أول حجر في بناء صلته بالاستاذ الإمام .

قرأها فأعجب بها وأجاب عنها وسعى في نقله ومن ذلك الحين بدأ حذبه عليه وتقديره له . وهذه الرسالة كما تدل على ان حافظ لم ين لحظة عن الاطلاع والحفظ والكتابة تصور لنا مقدار ما كان يعانيه من آلام ويدخله من هموم في هذه البلاد وهي طويلة نتخير منها ما يأتي :

لقد حالت في السودان حلول الكليم في التابوت، والمغاضب في جوف الحوت ، بين الضيق والشدة ، والوحشة والوحدة . لا بل حلول الوزير في تنور العذاب، والكافر في موقف الحساب، بين نارين نار القبط ونار الغيظ

فناديت باسم الشيخ والقبط حجرة يذيب دماغ الضب والعقل ذاهب

واستمع اليه وهو يقول من قصيدة بعث بها إلى احد اصدقائه بمصر يتشوق اليها ويصف آلامه وأشجانه :



وما أعذرت حتى كان نعلى دماً ووسادنى وجه التراب  
 وحتى صيرتنى الشمس عبداً صبيغاً بعد ما دبغت إهابى  
 وحتى قلم الأملاق ظفرى وحتى حطّم المقدار نابى  
 متى أنا بالغ يا مصر أرضاً أشم بتربها ريح الملاب ١٢  
 وسترى بعد أن هذه المرحلة كان لها أثر أى أثر فى إنتاجه ولا سيما جانب البؤس  
 والألم منه .

المرحلة الثالثة : وهذه مرحلة النضوج والأثمار بحق فلم يكبد يستقيل من عمله  
 ويفلت من قيد وظيفته حتى تجلى نبوغه وبدأ ينتفع بمواهبه ويتفرغ للعمل الذى  
 خلق له . وإذا كان قبل ذلك يحتلس أوقات المطالعة ويسترق سويغات النظم  
 والتدوين فانه هنا قد تفرغ للأدب وابتدأ يقرأ الكتب الكبرى وينشد القصائد  
 الغراء فى شتى المناسبات ، وقل أن نجد مسألة هامة أو حادثاً جليلاً فى هذا العهد لم  
 يساهم فيه بشعره . وثلاثة أرباع ديوانه أثر من آثار هذا العهد ، على أن هذه المرحلة  
 التى تكون النصف من عمره ليست كلها مرحلة فيض وإنتاج بل تنقسم بالنسبة إلى  
 ذلك ثلاثة أقسام :

١ — فترة قوية مخصصة فى جميع النواحي ، وهى تكون الشطر الأعظم من هذه  
 المرحلة

ب — فترة صمت وركود وإجداب ، وهذه هى مدة وجوده فى دار الكتب  
 المصرية .

ج — فترة انطلاق ونهوض وهذه المدة قصيرة المدى لا تكاد تجاوز العام غادر  
 فى أوله دار الكتب وغادر فى آخره عالم الفناء : وشعره فى هذا العام سياسى محض  
 يعاتب فيه الانجليز ويذكرهم بعهودهم التى نكثوها .

### الكتب التى قرأها

يقول كثير من الأدباء الذين كتبوا عن حافظ غبّ موته أنه كان معجباً بكتاب  
 الاغانى لآبى الفرج الأصفهاني إعجاباً جعله يقرأه أكثر من مرة ، بل يذهب بعضهم

إلى أبعد من ذلك فيقول إنه لم يقرأ كتاباً في الأدب سواه واعتقد أن هذا الكتاب على الرغم من شهرته وسعته في بابيه لا يُكوّن وحده شاعراً كحافظ لأنه شئت من أخبار معنعة وأشعار غير مضبوطة ولا مشروحة وتراجم الكثير من الشعراء والكتاب متفرقة لا تجمعها جامعة . وهو فوق ذلك مليء بالاختفاء المطبعية التي تستنفد الوقت في ضبطها وإصلاحها — ونحن مع اعترافنا بغلاء الكتب في هذا العهد وقلة تداولها بين الأدباء لا نكاد نسلم بأن اطلاع حافظ كان قاصراً على كتاب واحد أيّاً كان نوعه .

وأنت إذا قرأت ديوانه بروية وامعان وقرأت إلى جانبه كتابيه «البؤساء» و«سطيح» ووقفت على ما كان يستعمله في نظمه ونثره من الألفاظ والمعاني التي لم يتعلمها في مدرسة ولم يتلقها عن أستاذ — إذا عرفت ذلك وصححت ما يقوله المعمرين من رجال دار الكتب من أنه كان يقضى كل فراغه بين جدرانها عرفت عن يقين أنه لا بد قد طالع كثيراً من كتب الأدب وقرأ كثيراً من دواوين الشعراء القدماء كامرئ القيس وعنترة والنابغة والمحدثين كالمتنبي والبحتري وأبي نواس وأبي تمام . وحفظ لكل من هؤلاء أحسن ما قرأ .

والتأمل في السطور الآتية من رسالته السابقة إلى الأستاذ الامام :

« وجمعت في كتابي هذا بين ثقة الزبيدي بالصمصامة ، والحارث بالنّعام ، فلم أقل ما قاله الهزلي لصاحبه ، حين نسي وعده وحمد يده . يا دار عاتكة التي أنغزل بل أناديه نداء الاخيزة في عمورية شجاع الدولة العباسية »

وقوله في قصيدة «غادة اليابان» :

وتقحمت الردى في غارة أسدل النقع عليها هيدبا (١)

جال عزرائيل في أنحائها تحت ذلك النقع يمشى الهيدبا (٢)

أجل . من يقف على هذا وأمثاله لا يسعه إلا أن يحكم بأن حافظاً كان واسع الامام بدقائق اللغة ثورياً في الألفاظ والمعاني محيطاً بكثير من اخبار العرب ومجالسهم حافظاً لشيء كثير من حكمهم وامثالهم . وهل يتيسر لشاعر لم يقرأ قصة أصحاب الكهف ولم يدرس تاريخ ابي نواس ويقف على مثل رأيه في الخمر حين سئل لم لا يترك الخمر؟

وانت تعلم ما تفعل بشاربها من المهانة والسخرية ١ — فقال : ومن لي بعرفان ذلك  
وأنا أسكر قبل الصباح ولا أفيق إلا بعدم — وهل يستطيع من لم يعلم شيئاً من  
ذلك ان يقول في شعره :

فواصلنا كؤوس الراح حتى بدت للعين أنوار الصريم  
واعملنا بها رأى ابن هاني فألحقنا بأصحاب الرقيم  
وهل زجى ممن لم يقرأ شيئاً عن المانوية ومذهبهم وآراءهم في منع النسل  
والعمل على تعجيل الفناء ان يقول :  
لعل ماني لاقى ما أكابده فودّ تعجيلنا من عالم الشجب  
وسأقدم اليك بأبيات من شعره تستطيع أن تعرف بها مقدار الكتب التي  
قرأها ونوع هذه الكتب إن كنت بالادب واسفاره خبيراً .  
ويقول حافظ في مدح الاستاذ الإمام :

طلعت لها باليمن من خير مطلع وكنت لها في الفوز قدح بن مقبل  
ويقول في وصف كساء رث :

نسبوه لطيلسان ابن حرب نسبة لم تكن بذات افتراء  
ويقول في الانجيز وسوء معاملتهم :

لقد كانت الامثال تضرب بيننا بحجور سدوم وهو من أظلم البشر  
فلما بدت للكون آيات ظلمهم إذا بسدوم في حكومته عمر

وإذا كان الكلام من الكلام وكان لابد للنظم أو النثر من ذخيرة كلامية  
يستجدها البديهة ويستند إليها اليراع ، كانت أبيات الشاعر و فقرات النثر عنوان  
تلك الذخيرة .... وإذا عرفت أن ابن مقبل الذي في البيت الاول مقامر جاهلي فاز  
قدحه ٧٠ مرة متواليه فضرب به المثل في الفوز — وأن طيلسان ابن  
حرب الذي جاء في البيت الثاني جلاب قديم بال ، مدح ابن حرب أحد الشعراء نفعه  
عليه فنظم فيه هذا الشاعر أبياتاً كثيرة صيرته مثلاً لكل ثوب من نوعه ومن  
هذه الأبيات :

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا ملّ من صحبة الزمان وصدّ  
طال ترداده على الرقع حتى لو بعثناه وحده تهدّ

وأن « سدوم » التي وردت في البيتين الأخيرين اسم قاض كان يضرب به المثل في القسوة والظلم وكان حاكماً على قرية من قرى لوط الخمس تعرف بهذا الاسم أيضاً وقد غضب الله على أهلها فدمرها عليهم .

إذا عرفت هذا أو أشباهه مما يستحيل أن يحتويه كتاب أو كتابان أيقنت بأن حافظاً لم يسمع بكتاب في أحوال العرب وأخبارهم ، ولم يقع بصره على مؤلف أدبي أيا كان نوعه إلا طالعته وألم بما فيه :

ولقد كان للتاريخ وأطواره من عنايته ما لا يقل عن عنايته بالأدب ونواحيه والتاريخ والأدب اخوان لا يُغنى أحدهما عن الآخر إلا بمقدار ما تغني العين عن الأذن أو الأذن عن اللسان عند فاقد أحدهما ... وإخالك لا تشك في ذلك إذا سمعته يقول في فتنه الآستانة :

يا أسيراً في سنت هيلين رحب بأسير في سالونيك جديد  
وقوله في احتفال أقامته الجامعة المصرية :

هناك الغيد جادت بالذي بخلت به دلالاً فقامت بالذي وجبا  
جزّت غداً شعر مرّحت سفناً واستنقذت وطناً واسترجعت نشبا  
رأت حلاها على الاوطان فابتهج ولم تحصر على الحلى الذي ذهب  
وزادها ذاك حسناً وهي طائلة تزهى على من مشى للحرب أو ركبا  
وقوله موضع ثالث مخاطباً « روزفلت » ومُعرضاً بالانجليز :

ليت شعري أكنت تدعو اليهم يوم كانوا على تخوم النغور  
يوم كانوا قدّى بعين نيويو رك وداءً مستحكماً في الصدور  
يوم نادى « واشنجتون » فلما ه من الغيل كل ليت هصور

والمعنى في شعر حافظ يرى أنه رحمه الله لم يكن يقصر اطلاعه على الأدب العربي فحسب بل تعداه الى الأدب الأوروبي ، فقرأ « ماكبث » لشاعر إنجلترا ولیم شكسبير وأعجب بها وخلص أروع مواقفها في قصيدته التي يقول في مطلعها :

كأنى أرى في الليل نصلاً مجرّداً يطير بكلمات صفحته شراراً

وإن وصفه لفكتور هوجو الكاتب الفرنسي الذائع الصيت ، ورائه لتولستوي الفيلسوف ليدلان على أنه قد درس مذهب كل منهما وتعاليمه ووقف على كثير من حسناته أو ميزاته التي هي عماد الوصف والرائه . وكان كثير الإعجاب بالأدب الفرنسي على الخصوص ، وما كتابه البؤساء بحجزه ، وما تلك الحكم الشعرية التي ترجها لروسو ونظمها إلا ثمرة من ثمرات هذا الإعجاب .

وإذا علمت أن حافظاً لم يتعلم تعليماً دينياً ولم يتصل في صباه بالازهر ولا بأحد فروعه ورأيت كثرة اقتباسه من القرآن واستشاده بقصصه واستعماله لتراكيبه أيقنت أن المصحف الشريف كان في مقدمة الكتب التي يقدسها ويدأب على مطالعتها بشوق وشغف . وإذا لم يكن ذلك كذلك فقل لي بربك كيف تسنى له أن يقول في وصف الشمس مشيراً الى قوله تعالى في سورة الانعام حكاية عن ابراهيم : « فلما أفلت قال: إني لا أحب الآفلين » .

نظر ( ابراهيم ) فيها نظرة فأرى الشك وما ضلّ اليقين  
قال : ذا ربي ، فلما أفلت قال : إني لا أحب الآفلين  
أو يقول في وصف الخمر مشيراً الى قوله تعالى في سورة يوسف حكاية عن فتى كان معه في السجن : « إني أراني أعصر خمراً » :

مذ رآها فتى العزى مناماً وهو في السجن بين هم ويأس  
أعقبته الخلاص من بعد ضيق وحبه السعود من بعد نحس  
ويقول في شكوى الزمان مشيراً الى قوله تعالى في سورة الصافات « وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ) وقوله في سورة يوسف ( وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ) :

وكم أذرت بنا الايام حتى فدت بالكبش اسحق الذبيحا  
وباعت يوسفًا ببيع الموالى وألقت في يد القوم المسيحا  
ولا أرى كيف فات حافظاً أن الذبيح هو اسماعيل لا اسحاق، وأن المسيح لم يقع في يد القوم كما زعموا « وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ »

## الشعراء الذين تأثر بهم

كان حافظ كما كان أبو تمام كثير المحفوظ من شعر العرب، ولقد أثر ذلك المحفوظ في شعره فجاء صورة صادقة لما قرأ وما حفظ. وإنه لمن العبد الواضح والغبن الفاحش أن تقول إنه قد تأثر بشاعر فرد حتى تجلّت في شعره أخيلة ذلك الشاعر وتشبيهاته وحده وملكته طريقته في التعبير عما يريد.

وقد يخيل إليك إذا سمعت قوله :

جنيتُ عليك يا نفسى وقبلي عليكِ جنى أبى فدعى عتابى !

أنه قد تأثر بالمعرى حيث يقول :

هذا جناه أبى علىّ وما جنيتُ على أحدٍ

وقد ينمو في نفسك هذا الظن إذا قرأت له قوله في موضع آخر :

وإلا فاني قافٍ رؤبة لم أزل بقيد النوى حتى تغول الغوائلُ

وعرفت أن المعرى قد سبقه إلى ذلك فقال :

مالى غدوتُ كقافٍ رؤبة قيدت في الدهر لم يقدر له اجراؤها ؟

فهل هو كذلك ؟ ولم لا تقول في قوله :

ليت شعرى هل لنا بعد النوى من سبيلٍ للقى أم لات حين !

إنه كان متأثراً ببشار بن برد حيث يقول :

يا ليت شعرى وقد شط المزارُ بهم هل تجمع الدار أم لا نلتقى أبدا ؟

ولم لا يكون حين يقول في الرثاء :

رحم الله منه لفظاً شهيأ كان أحلى من ردّ كيد الأعداى

متأثراً أو محاكياً للخوارزمي حين يقول في الغزل :

وكيف ونظرة منها اختلاسا ألدّ من الشماتة بالعدو ؟

بل قد يرجح لديك وأنت تقرأ قوله في تأبين المغفور له مصطفى كامل :

عليك، وإلا ما لذا الحزن شاملاً ؟ وفيك، وإلا ما لذا الشعب باكياً ؟

وقوله في موضع آخر :

وكننت إذا عمدت لأخذ نارٍ أسلت البرّ بالأسد الضواري  
أنه قد تأثر في الأول بقول المعتمد بن عباد :

على ، وإلا ما بكاء الغمام ؟ وفي ، وإلا مانوح الحائم ؟  
كما تأثر في الثاني بقول كثير في الغزل :

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسات بأعناق المطىّ الأباطح

الحق أنه قد قرأ هؤلاء الشعراء جميعاً وحفظ لكل منهم وتأثر به بمقدار ما قرأ أو حفظ من شعره ، والذين يقولون إنه قد تأثر بالمتنبي أكثر من تأثره بأي شاعر آخر إنما ينظرون في دراستهم إلى ناحية خاصة لعلها قدرته وبراعته في وصف الحروب ومبادئها وما يلحق بها ، وهذا النوع من الوصف قد انقرد المتنبي بالإجادة فيه .

ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نتناسى أن حافظاً وشوقي ومن قبلهما البارودي قد أكبوا على دراسة هذا الشاعر الفدّ واستفادوا جميعاً من شعره واتخذوه استاذاً لهم خصوصاً في هذه الناحية - ناحية الحروب وما يدور فيها من هجوم ودفاع أو هزيمة وانتصار - فانه لا يصح كذلك أن ننسى أن حافظاً كان ضابطاً يعيش بين الأسلحة والكتائب ويشهد بنفسه المعارك ويسمع بأذنيه قذائف المدافع وصليل السيوف .

وإذا كان شوقي وهو لم يتقلد صارماً ولم يرحباً استطاع بمحض التقليد والاعتماد على الأذن تارة وعلى الخيلة تارة أخرى أن يأتي في وصف الحروب بهذه المطولات الرائعة ، ولم يمنعه بعده عن الوغى وعدم خبرته بالقتال ومعاناته أو معانيته له من أن يقول في حرب الدولة العلية مع اليونان :

كأنّ الوغى نارٌ، كأن جنودنا مجوسٌ إذا ما يعموا النار قربوا

كأنّ الوغى نارٌ، كأن الردى قرى كأن وراء النار (حاتم) يدأب ا

كما يقول في موضع آخر واصفاً هزيمة اليونان :

على القلل الاجبال حيرى جوهم شو اخص ، ما إن تهتدى أين تذهب

إذا صعدت فالسيف أبيضٌ خاطفٌ وإن نزلت فالنارُ حمراءٌ تلهبُ  
فليس بمعجيب أن ينبغ حافظ في هذه الناحية وهو ابن الحرب الذي اصطلح  
بنارها وقضى زهرة شبابه بين السيف والمدفع وشاهد بعينه وسمع بأذنيه وقائعها.  
وقد عاصر حافظ صديقه البارودي في أخريات أيامه وأعجب به وبشعره حتى  
طلب إليه أن يصدر ديوانه بصورة أو حكمة تعرفه إلى القراء فتمثل بهذين البيتين  
من شعره :

أنا ابنُ قولي وحسبي في الفخار به وإن غدتُ كريمَ العمِّ والخالِ  
فانظر لشعري تجددَ نفسى مصورةً فيه ، فمنِ مقولي قد خُطَّ تمثالُ

وبينا تراه يترفع عن تقليد غيره من شعراء عصره تراه كثير الميل إلى محاكاة  
البارودي والاستفادة من شعره والاعتراف له بالفضل والنبوغ .  
وإنك لترى هذه الصلة الغالية صلة التلميذ بأستاذه أو الولد بأبيه ماثلة فيما نظمه  
في مدحه أو رثائه من قصائد . واستمع إليه حين يمدحه فيقول من قصيدة طويلة :  
ولو أنني نافتُ دهرى وأهلكه بفخرك ما أبقيت في الناس سيدا  
ولو لم يمدح البارودي بغير هذا البيت الخالد لكفاه فخراً وشفقاً .

### نظرات في شعره

لا أستطيع في هذه الصفحات القليلة أن أستعرض مواضع الجمال في شعر حافظ  
أو أؤكد ما فيه من هنات ، ولا أدعي أنني درستُه دراسة تمكّني من ذلك ، ولكنني  
سأمرّ مسرعاً على بعض المواضع التي تسترعي نظركم مطلع على شعر .

وسأقصد في هذه النظرة الخاطفة إلى بيان ميزاته التي لا بد لكل متصدر  
لدراسته من أن يقدرها فيقف عندها ويتبينها . وسترى أولاً أنه رحمه الله كان  
يتخذ من مدائح العظماء ورثاء موتاهم لبنات لبناء عظمته وشهرته ، شأن الشاعر  
الناسي الذي يريد أن يتعرف إلى الناس ويشعرهم بوجوده وهو بعد فتى بائس قليل  
الأسنة والأذان . ولهذا جاء قرابة النصف من شعره مديحاً ورثاء . وأكثر  
الذين اختصهم بذلك بعد الأسرة العلوية هو الاستاذ الامام ثم الأسرة الأباظية



## بمديرية الشرقية .

ولمديح حافظ وراثته صفة خاصة هي مزجه دائماً بالشكوى وإبداعه ما يعاتبه من  
ضنك وضيق . وقل أن يترك مدحة أو مرثية من غير أن يصدرها أو يطويها على  
حاجته . واستمع اليه حين يصدر مدحة للخديوى في عيد رأس السنة  
بهذين البيتين :

عسى ذلك العام الجديدُ يسرنى      بيشرى ، وهل للبائسين بشير ؟  
وينظر لى ربُّ الأريكة نظرةً      بها ينجلي ليلُ الأسمى ويُبِيرُ

وإذا أفلت من حاجته الوسط والبداية ذيلها بها فى النهاية ، وهل ترى دليلا على  
ذلك أوضح من أن تراه يختتم مدحةً رفعها الى الاستاذ الامام بهذ البيت :

يا مَنْ تيمنتُ الفتيا بطلعتهِ      أدركُ فتاكُ فقد ضاقتُ به الحالُ  
ويذيل مدحة أخرى بهذين البيتين :

وقد أضحيتُ من كدحى وسعبي      على الأرزاقِ كالنوبِ الرديمِ  
فلا تخلق - فديت - أديمَ وجهي      ولا تقطعُ مواصلةَ الحميمِ

وثانياً تجدد لشعر حافظ ما يسمى فى علم البديع ببراعة الاستهلال ، إذ له مطلع  
رائعة كل مطلع كأنه عنوان سارع الى الأذان ليستأنس لما وراءه أو اجمال لغرض يفصله  
ما يليه من أبيات ، وإن شئت شاهدأ على ذلك فاستمع إلى قوله فى مستهل السنة الهجرية :

أطلَّ على الأكوان والخلق تنظر      هلال رآه المسعون فكبروا  
أو تأمل قصيدته فى « البورصة » :

يبابك النحسُ والسعودُ وموقفُ اليأسِ والرجاءُ

وكذلك كان فى مرثيه يستفتح القصيدة ببيت لو اقتصر عليه ولم يتبعه بغيره  
لاستشف القارىء والسامع من خلاله وحده غرضه والمعرض الذى قيل فيه - ألتست  
تجد ما يؤيد ذلك فى استهلاله مرثية المرحوم امين الرافعى بهذا البيت :

أما ( أمين ) فقد ذقنا المصرعه      وخطبه من صنوفِ الحزنِ ألوانا

وتصديره مرثية المغفور له ( رياض باشا ) بذلك البيت :

(رياض) أفق من غمرة الموت واستمع حديث الوري عن طيب ما كنت تصنع  
ولهذين المطلعين روعة وتأثير في النفس لا تحسه في مطالع غيره ممن اشركوا في  
تأبين هذين القعدين .

وبينا ترى شوقي يريد أن يهني الخديوى فيمهد لذلك بما ينيف على العشرين  
بيتاً في الغزل أو الوصف — ترى شاعرنا يتبدى قصيدته في الموضوع عينه بهذا  
البيت الرائع الذي يجمع الى جمال اللفظ وحسن اختياره شرف المعنى واتساقه :

مَنْى نلتها يا لابس المجد معلما أدنياً ودنيا ؟ زادك لك أنما !

وثالثنا حسن التخلص ، ولا تحسن حافظاً كان في كل شعره كذلك يماشى ، ويعمد الى  
غرضه من اول الأمر دون أن يمهّد له بوصف أو نسب ، فإن له مطولات ليست بالقليلة  
يتطرق فيها الى مقصده بأبيات كثيرة في وصف الحجر حيناً وفي شكوى الزمن أحياناً ،  
بيد أنه كان صناعاً ماهراً في التخلص الى غرضه والانتقال الى مقصده .

وها هو ذا بعد أن يذكر أكثر من ٢٠ بيتاً في مناجاة نفسه والشكوى من  
تهاون المصريين وسوء حالهم يتخلص الى مدح السلطان حسين ( وكان إذ ذاك أميراً )  
بهذه الأبيات :

وانا قد ونينا وانقسمنا فلا سعى هناك ولا وئام

فلا عجب إذا ملكت علينا مذهبنا وأكثرنا نيام

( حسين ! حسين ! ) أنت لها أفنبه رجالا عن طلاب الحق ناموا

وكن بأبيك لابن أخيك عوناً فأنت بكفه نعم الحسام

وله أبيات يتخلص بها من غرض الى غرض وينتقل من معنى الى غيره كأنها  
حلقات أفرغت على مثال يلائم كلا الغرضين السابق منهما واللاحق — كتب مرة  
الى صديق له يمدحه ويشتاق الى لقائه فبدأ كعادته بالحنين الى مصر وأهلها ، ولم  
أكد أصل في قراءة تلك القصيدة الى هذين البيتين :

لامصر تنصفنى ولا أنا عن محبته أريم

واذا تحول بأس عن حبها فأنا المقيم

حتى أشفقت عليه من العجز عن الوصول الى ما كان يريد ، وإذا به بعد ذلك يتخلص  
الى مدح صاحبه بهذا البيت الذى لا يشعرك بمغايرة ولا انتقال :

فيها صحبتك واصطفية تلك أيها الخلد الحميم

وإن تعجب فعجب أن تقرأ له في الغزل ودل الحبيب وجفائه ، ومرنه هو وإدناؤه من جراء هجره وصدده ، زهاء الثلاثين بيتاً حتى يخيل اليك أن القصيدة قد فئت في هذا الغرض ، وأن الشاعر قد تعثر في استرساله حتى استعصى عليه الانتقال ، ثم تراه بعد ذلك يخرج من كل ما رأيت ويتصل بفرضه الذي قصده على الصورة الآتية :

وأنت تعود مريضها لا بل أنت منى تشيع راحلاً لو تعلم  
أقسمت بالعباس أنني صادق فمريضهم بجلاله أن يقصموا  
ملك عدوت على الزمان بحوله وغدوت في آلائه أننعم  
وسترى أنه يغالط نفسه ويخالف الحق في بيته الأخير .

ورابعاً غلبة الروح الوطني وحب مصر ونيلها على شعره ، وأنا أعتقد أن وطنيات شوقي والبارودي على قتلها وطنيات جوفاء : تسمع رنينها عن بعد فتهتز وتطرب ، فإذا دنوت منها وجدتها فارغة لا تبل صدى ولا تشفى أواماً - ومهما بالغت في وصفها وإطرائها فانك لن تستطيع أن تقول فيها أكثر من أنها ساحرة رقيقة الأسلوب موجزة إلى حد يجعلها شبيهة بالحكم والأمثال .

أما وطنية حافظ فانها فضلاً عن تغلغلها في معظم قصائده وطنية حقيقية ، تدل من أول نظرة على أن صاحبها يحس باحساس الشعب ويترجم لنا عبراته وخفقات قواذه . ولهذا تراه قد استعرض في شعره مواضع ضعفه ومواطن آلامه ووقف من أمته موقف الطبيب يتعرف الداء ويصف له نافع الدواء .

وكيف ينتظر من البارودي رئيس الوزارة أو من شوقي شاعر الخديوى وصفيته وهما يتقلبان في رفاة العيش ونعيمه ولم يعرفا للبؤس معنى ولا طرق لها الاعسار يوماً باباً ، كيف ينتظر من مثلها أن يؤلمه إملاق معاصريه وبؤسهم فيبكي . وهل إذا بكيا تساوت دموعها ودموع أخيها الذي اندس في غمار الشعب وحمل من مصائبه بمقدار ؟ وهيأت :

أن يعرف الشوق إلا من يكأده ولا الصباة إلا من يعانها

وكان حافظ طوراً يستنهض المصري ويستحفزه ويذكره بمجد آبائه وتراث أجداده فيقول :

لعمرك ما أُرِفْتُ لغير مصر وما لي دوتها أملٌ يُرام  
 ذكرتُ جلالها أيامَ كانت يصل بها الفراعنة العظام  
 وأيامَ الرجالُ بها رجالٌ وأيامَ الزمان لها غلام  
 فأقلق مضجعي ما بات فيها وبات مصرٌ فيه ، فهل ألام ؟  
 أرى شعباً بدرجة العوادي تمخَّخَ عظمه داءُ عقام  
 فساء مقامه في أرض مصر وطاب لغيره فيه المقام  
 وطوراً يذكره بعبوبه ويشرح له وسائل رقي الشعوب وعوامل نهوض الأمم  
 فيقول :

طار على ابن النيل سباقُ الوري مها تقلب دهره أن يُسبِقا  
 أو كلاً قالوا تجمع شملهم لعب الشقاقُ بجمعنا فنفراً ؟  
 فتعلموا ، فالعلم مفتاحُ العلي لم يُبق باباً للسعادة مغلقا  
 ثم استمدُّوا منه كل قواكم إن القوى بكل أرض يتقى  
 وابنوا حوالى حوضكم من يقظة سورا ، وخطوا من حذارٍ خندقا  
 وزنوا الكلامَ وسدّوه فانهم خبئوا لكم في كل حرفٍ منزلقا  
 وبينما كان شوقي شاعر عباس وابن نعمته يتلمس مواضع رضاه فيرويهما بقريضه  
 ويحاذر أن يُرى شاذاً عن رغبات سيده يوماً ما ، كان حافظ ابن الشعب وشاعره  
 حراً في آرائه مطلقاً في تفكيره ، لا يتقيد برأى أمير ولا وزير — ولهذا جاء  
 شعره في السياسة أعمق أثراً وأشدّ جرأة وصراحة — وإن شئت فقل جاء لساناً  
 صادقاً عن مصر وما تحسُّه من غت المحتلِّ وعدوانه . ولعل أول صوت ارتفع في  
 الفخر بمصر والمطالبة بحقوقها والتعرض لمطالب المحتلين وظلمهم ونقد أعمالهم كان  
 صوت حافظ . وهل استطاع غيره أن يقول للمحكّين في ( دنشواي ) مندداً  
 بجورهم وقسوتهم :

أحسنوا القتلَ إن ضننتم بعفوِ أنفسكم أصبتمو أم جاداً  
 ليت شعري أنلك محكمة التفتيش عادت أم عهد نيرون عاداً ؟  
 كيف تحلُّو من القوى التشي من ضعيف ألقى إليه القياداً

وأن يعرض فيها برجل كان ولا يزال من أشهر رجال المحاماة في مصر فيقول :  
 لا جرى النيل في نواحيك يا مصر ولا جادك الحيا حيث جادا  
 أنت أنبت ناعقاً قام بالأمس فادمى القلوب والأكبدا  
 ايه يا مدره القضاء ويا من ساد في غفلة الزمان وشادا  
 أنت جلادنا فلا تنس أنا قد لبسنا على يديك الحدادا  
 وهل سمعت أن شاعراً استطاع أن يودع (كرومر) بمثل هذه اللطحات الدامية :

الى من نشتكى عنت الليالى الى العباس أم عبد الحميد ؟  
 ودون حماها قامت رجالاً ترؤنا باصناف الوعيد  
 رمانا صاحب التقرير ظلماً بكفران العوارف والجحود  
 وأقسم لا يجب لنا نداء ولو جئنا بقرآن مجيد  
 وانبت في النفوس لكم جفاء تعهده بمنهل الصدود  
 رمى دار المعارف بالزايا وجاء بكل جبار عنيد  
 وهل اجتراً مجترىء على أن يبسط له عيوب عهده في مصر كما بسطها حافظ في  
 قصيدة أخرى حيث قال :

نناديك قد أزريت بالعلم والحجبا ولم تبق للتعليم يا لورد معهدا  
 وانك أخصبت البلاد تعمداً وأجذبت في مصر العقول تعمدا  
 ووافيت والقطران في ظل راية فما زلت بالسودان حتى تمردا  
 فطاح كما طاحت مصووع بعده وضاعت مساعينا بأطاعكم سدى  
 حجبت ضياء الصحف عن ظلماته ولم تستقل حتى حجبت (المؤيدا)  
 وأودعت تقرير الوداع مغامراً رأينا جفاء الطبع فيها مجسدا  
 غمزت بها دين النبي وإننا لنغضب ان أغضبت في القبر (احمدا)

وخامساً كثرة التضمين والاقتباس ، ولا يتيسر ذلك الا لثري في الادب واسع  
 الاطلاع ، ومن أمثلة ذلك في شعره قوله في رثاء البارودي :

وأربو على ذلك الفخور بقوله : ( إذا قلت قولاً أصبح الدهر مُتسداً )  
وقوله في المدح ( يريد البدع في الايات السابقة ) :

وبأثوا عليها جاعلين كأنهم ( على صنم في الجاهلية عكف )  
ومن ذلك أيضاً تضمينه أبياناً كاملة لغيره من الشعراء كما في قوله مصمناً بيت  
أبي تمام :

ألَفْتُ بين ابن السحاب وبينها فرأيتُ صحبةً ما حكاها الطائي :  
( صعبتُ وراض المزجُ مئى خلقها فتعلمت من حسن خلق الماء )  
وقوله في عيد الدستور العثماني مضمناً بيت بشار :

روت قول بشار فنارت وأقسمت وقامت الى عبد الحميد تعاتبه  
( اذا الملك الجبار صعر خده مشينا اليه بالسيف نعاتبه )  
وأنت ترى أنه لم يضمن قصيدته بيتاً الا وقرنه باسم صاحبه ، وهذه دقة وأمانة  
نحملها له .

وفي التضمين هنا من البراعة والجمال ما لا يقل عن مثلهما في قول البارودي مضمناً  
شطر أبي نواس :

ولو كنتُ في عهد النواصي لم يقل : أجارةً بيتينا أبوك غيورُ  
ولا عن قول صفي الدين من قبله مضمناً شطر المتنبي :

أشرقن في حُلل كأنَّ أدعماً شفق تدرعهُ الشمس جلابيا  
وغرين في كل فقلت لصاحبي ( بأبي الشمس الجانحات غواربا )

وقد قدمنا لك في غير هذا الموضع انه كان دائماً على تفهم القرآن وحفظه ، وقد  
أثر هذا المفهوم والمفحوظ في شعره كظهور الآلآء في التاج أو الماسة بين لوازم  
الاصداق إذ زاده روعة وجمالا . وما إخال القراء في حاجة الى بيان منزلة القرآن واسلوبه  
من الأدب العربي — وفي شعره من ذلك مثل شتى أسلفنا لك جانباً منها وما نحن  
اولاء نعود فنقدم لك جانباً آخر .

قال رحمه الله يمدح سليمان باشا أباطه مشيراً الى قوله تعالى في سورة النمل ( قالت  
نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ليعظمنكم سليمان وجنوده ) :

سليمان ذكَّرت الزمان واهله بعزَّ سليمان واقبال دنياه  
 اذا سرت يوماً حذر النملُ بعضه مخافة جيش من مواليك يغشاه  
 وقال في مدح الاستاذ الامام مشيراً الى قصة موسى والخضر عليهما السلام  
 (سورة الكهف) :

وكنْتَ كما كان ابن عمران ناشئاً وكان كمن في سورة الكهف يذكر  
 وقال من رسالة بعث بها الى رفعت بك وكيل مصلحة السجون سابقاً مشيراً  
 الى قوله تعالى حكاية عن يوسف ( اذكرني عند ربك ) :  
 ولو كُنْتُ في عهد ابن عمران لم يقل لصاحبه اذكرني ولا تنسَ . . . .  
 بل لقد كان يضمن أبياته الآية أو بعضها من غير تغيير كقوله :

« قتل الانسان ما اكفره » طاول الخلاق في الكون وساما  
 وقوله في وصف الشمس مضمناً قوله تعالى حكاية عن ابراهيم ( قال هذا ربى  
 فلما أفلت قال لا أحب الآفلين — سورة الانعام ) :

قال : ذا ربى فلما أفلت قال : إني لا أحب الآفلين ١

وسادساً الالماع الى الحوادث التاريخية والأخبار الأدبية والمذاهب الفلسفية .  
 فن الأول قوله في الأمير عبد الله صاحب الجزائر :

ذكرتنا يوم ضاعت أرضُ أندلسِ الحربُ بالباب والسلطانُ في اللعبِ  
 وقوله حرب في طرابلس :

أيها الحائر في البحر اقتربْ من حمى البسفور إن كنت هاما  
 عام شهرين ولم يفتح سوى هوة فيها الملايين ترامي  
 ومن الثانى قوله في تهنئة الخديوى بالحج :

ولما استلمت الركنَ هاجت شجونهُ فلو أنه اسطاع الكلام تكلمنا  
 تذكر زين العابدين وجدّه وما كان من قول الفرزدق فيها

مشيراً بذلك الى ما كان من أمر الرشيد حينما رأى سيدنا على زين العابدين

وهو يطوف بالبيت فتجاهله وتساءل عنه فأجابه الفرزدق بهذه القصيدة الخالدة التي يقول في مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته      والبيت يعرفه والحل والحرم  
ومن الثالث قوله :

فيا ليل أزلنى بجوفك منزلا      يضل به سرب القطا ويحار  
وان كنت ليل المانوية فليكن      على سر أهل الشر منك ستار  
مشيراً بذلك إلى مذهب مانى الذى يقول بأن الليل موطن المصائب والشرور ،  
وقد سبقه الى ذلك المتنبي حيث قال :

وكم لظلام الليل عندى من يد      تخبر أن المانوية تكذب  
وقوله فى موضع آخر :

أصبحت كالدهرى أعبد خدّه      وجبينه وأنا الشريف المعرق  
مشيراً بذلك الى الدهريين ومذهبهم الذى لخصه القرآن الكريم فى قوله حكاية  
عنهم : ( إن هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر )

### مظاهر البؤس فى شعره

قدمنا لك أن البؤس من أظهر الزمات الغالبة على شعر حافظ ، وهيهات أن نجد  
أنتم عن نفس صاحبه من شعره . وانك لتقرأ ديوانه فيخيل اليك أنه ذوب نفس  
أبية عاشت تتطلع الى المجد وفيها معداته وماتت دون أن تنال منه أكثر مما ينال  
الظامى من لامع السراب . ولا تشك فى أن صاحب هذا الديوان قد اضطر فى طفولته  
واكتوى فى شبابه بنار البؤس الذى تعرف اليه فى مهده ولم يتركه حتى استقر  
فى لحده وهو بعد شاعر رقيق العاطفة دقيق الاحساس . فكان طبيعيا أن يجيء  
وشعره صورة لهذه النفس المعذبة ومرآة لهذا الفؤاد الواجب الذى طالما خاطبه  
بقوله :

يا خافقا قل لى متى تسكن ؟      لله ما تخنى وما تُعلن !



وما الذى أبقاء من مهجتي ومن فؤادى داؤك المزمز ؟  
وسأعرض عليك طرفاً من أبياته ترى البؤس ماثلاً فيها يحدثك عن خبيثة الشاعر  
ويكشف لك من أمره ما لم تكشفه لك الابصار .

يقول من رسالة بعث بها الى صديقه البابلي :

كيف تنسى يا بابلي غريباً بات بين الظنون والأوهام  
وحزيناً إذا تنفس عادت خمة الليل جرة من ضرام  
وإذا أن كاد ينصرع الاله قُ وتختلُّ دورة الأجرام  
بات تحت البلاء حتى تمنى لو يكون المبيت تحت الرغام  
ويقول في موضع آخر نادباً حظه وسوء حاله وعقوق الدهر له ولعبقريته:  
عقنى الدهر ، ولولا أننى أوتر الحسنى عقت الأديبا  
إيه يا دنيا اعبسى أو فابسمى لا أرى يركك إلا خلّبا !

وإخالك لا تعجب بعد ذلك إذا رأيت حافظاً يصبغ بالشكوى والائين جوانب  
شعره فنرى بؤسه فى الوصف والغزل كما تراه فى المديح والثناء ، وها هو ذا يمدح  
محمد بك بيرم فيقول له فى ثنايا القصيدة :

وقد أصبحت من تعبي وكدحى على الأرزاق كالنوب الرديم  
وانه ليخيل اليك أن البؤس قد طغى على احساس حافظ وسيطر على عواطفه  
حين تراه يستهل قصيدته فى عيد رأس السنة بهذا البيت :

لى فيك حين بدا سنائك وأشرقاً أملٌ سألتُ الله أن يتحققا  
وكانت لحافظ نفس قلقة نائرة مضطربة كما وصفها هو فى كتابه (البؤساء) لانكاد  
تستقر على حال : فمرة ترسب فى حضيض الألم راضية بقسمها ، قانعة بنصيبها من  
هذه الحياة الفانية، وهو يصور لك حالها إذ ذاك بقوله :

نحن نرضى بالقوت من هذه الدنيا وإن بات دون قوت النعام  
ولئن خان قسمنا ما شكونا لسوى الله أعدل القسام  
ومرة تطفو الى سماء الرفعة وتتماسك مطوية على الألم موهمة الناس أنها أسعدهم  
حالا ، والبيتان الآتيان يصورانها لك فى هذه الصورة :

تماسكتُ حتى لو رأى الناس حالتي      رأوا رجلاً هانت عليه مصائبه  
وعلمتُ نفسي كظم غيظي فلم أُنح      بما فعلت بين الضلوع قواضيه  
كما يمثلها في مطاردتها لليأس واستهانتها بالصعاب قوله :  
على أنني لا أركب الصعبَ مرةً      ولا أكبر البأساء حين تغيّرُ  
وأحياناً يسأم الدنيا ومنٌ عليها فيودعها ويناجي القبر والآخرة نجوى العاشق  
المشتاق فيقول :

سلامٌ على الدنيا سلامٌ مودّعٍ      رأى في ظلام القبر أنساً ومغنا  
أضرتُ به الأولى فهم بأختها      فان ساءت الأخرى فويلاه منها  
فهبّ رباح الموت نكباء واطفئ      سراج حياي قبل أن يتحطماً  
ولعلك تسألني بعد ذلك : من أي شيء كان يشكو حافظ وما موضع آلامه  
وأشجانه ؟ . . . وجوابنا عن ذلك أنه كان يشكو من شعبة النائم عن حقوقه الساكت  
على آلامه ، يرى الخطر يتهدده وأسباب الفناء تحوطه ، ثم يلهو ويلعب ويفخر بالماضين  
وما خلفوه ، فيخطبه مرة بقوله :

وكم ذا بمصر من المضحكا      ت كما قال فيها ( أبو الطيب )  
أمورٌ تمرُّ وعيشٌ يمرُّ      ونحن من اللهو في ملعب  
وشعبٌ يفرُّ من الصالحا      ت فرار السليم من الأجر  
ويعجب منهم ويكتمهم على جهلهم وتأخرهم مرة أخرى فيقول :

وقل للعاجزين أما      لهذا الفخر من سبب ؟  
أروني نصفَ مخترعٍ      أروني ربعَ محتسب  
فهبّوا من مراقدم      فإن الوقت من ذهب

ويشكو كذلك من نفسه الكبيرة التي بين جنبيه

وإذا كانت النفوس كباراً      تعبت في مرادها الأجسام  
فلا هي قادرة على إصلاح ما ترى ، ولا هي قادرة على احتماله ، ولا هي راضية  
بالعجز بين هاتين الحالتين .

ألت ترى ذلك واضحاً في قوله ( يريد المصريين ) :  
 ينامون تحت الظلم والأرض رجةً لمن بات يأبى جانب الظلم جانبهُ  
 فياليت لي وجدان قومي فأرتضى حياتي ولا أشقى بما أنا طالبهُ  
 وأخيراً يشكو من عثار حظه في وطنه وخيبة آماله في قومه وضياح أدبه بين  
 عشيرته وأخوانه فيقول مخاطباً مصر في نعمة البأس الحزين :  
 حطمتُ اليراعَ فلا تمجبي وعفتُ البيانَ فلا تعني  
 فما أنتِ يا مصر دارَ الأديب وما أنتِ بالبلد الطيب  
 فلا تعذليني لهذا المكوث فقد ضاق بي منك ما ضاق بي  
 وهو لا يتردد في أن يصارحنا بأن هذا الأخير هو مصدر حزنه وسر شقائه فيقول :  
 أنا لولا أن لي من أمتي خاذلاً ما بتُّ أشكو الثوباً  
 بيد أنه كان كثيراً ما يستكثر من نفسه هذه الشكوى ويستنكرها عليها ويبرأ  
 ويعتذر عما فرط منها، وفي ذلك يقول :  
 وما شرعتُ هذا اليراعَ أنا ملي بشكوى ولكنَّ اللجاجَ يثيرُ

### أسباب بُؤس

يجدر بنا بعد كل ما أسلفناه أن نبين لك أسباب بُؤس حافظ وأن نتعرف مر  
 هذه الحسرة التي لازمته طوال حياته والتي طالما قل فيها :

حسرةٌ في النفس لو قسمت على ذوات الطوق لم تسجع  
 وكان لزاماً علينا أن نتبع الظروف والأحوال التي انتجت بشاعرنا هذه الناحية  
 وحولت عاطفته إلى هذا الطريق . ونحرم نرى أن بُؤس حافظ وإن كانت

جرتومته الأولى قد وُلدت معه يوم ولد، وصاحبته في نموه وتدرجه في طريق  
 الحياة، نرى مع ذلك أن البيئة التي احتوته والوسط الذي عاش فيه يكوّنان الجانب  
 الأكبر من هذا البؤس الذي ترجع أسبابه إلى أربع جهات :

(١) نشأته الأولى بين احضان المتربة والفاقة ومخادنة العناء والشقاء له وهو صبي في

وددت لو طرحوا بي يوم جئتهم في مسبح الحوت أو في مسرح العطب  
ورجل طلع الي المجد كحافظ حري<sup>١</sup> به ان يحزن ويكتئب اذا رأى نفسه بين قوم  
يقومون الناس بما يملكون ولا يعرفون المجد سلباً سوى المال ، وألقى نفسه مع  
ذلك مفتقدا لهذا السلم . وليس لهذا السبب اثر بين في شعره اللهم الا ما كان ايماء او  
تلميحاً كما في قوله :

فأنا مطلق<sup>٢</sup> كالفكر أسرى فأسبق الضواحك في الغيوم  
ولكني مقيدة<sup>٣</sup> رحلى بقيد العدم في وادي الهموم  
بما يدلنا على ان الامر لو اقتصر عليه وحده لكان في ذكاء حافظ وعبقريته  
ما يحو أثره من صفحة حياته . وكـم من معدمين في طفولتهم بسم<sup>٤</sup> لهم الدهر بعد  
فكانوا من أسعد الناس حظاً وأرفعهم مكاناً .

( ٢ ) خذلان قومه له وكساد شعره بينهم وعدم احساسهم به وتقديرهم له  
ولإنتاجه ، والشاعر كازهرة يحبيه التشجيع والثناء ويميته الإهمال والازراء .  
وأى إهمال أشق على النفس من أن يمرض فلا يعاد وينأى عن العيون فلا تشعر  
بنايه ، وفي ذلك يقول :

مرضنا فما عادنا عائده<sup>٥</sup> ولا قيل أين الفتى الأملعى ؟  
ولا حن<sup>٦</sup> طرس<sup>٧</sup> الى كاتب ولا خف لفظ على مسمعى  
سكتنا فعز<sup>٨</sup> علينا السكو ت وهان الكلام على المدعى<sup>٩</sup> ا  
ولكم كان قاسياً على نفس حافظ أن يعيش في بلد لا يعرف الفضل لذويه ، ولطالما  
خاطب مصر بهذا البيت من شعره :

ليت مصرأ<sup>١٠</sup> كغيرها تعرف الفضل لئلى الفضل من ذوى الالباب<sup>١١</sup>  
ولقد تسمع قوله في رثاء الأستاذ الامام :

فيا منزلاً في عين شمس أظلى وأرغم حُسّادى وغم<sup>١٢</sup> مُعدانى  
فتعلم أنه رغم بؤسه ووحشته كان كثير الحساد والأعداء — ولهذا كان دائماً  
متبرماً بالحياة ساخطاً على أهلها ، وكلما نظر إلى أدبه الرائع الذى وأدوه بينهم بجملهم  
وإهمالهم ازداد حسرة وألماً وردد هذا البيت المشهور من شعره :

فلولا أنهم وأدوا بياني بلغت بك المني وشفيت ما بي  
وكان كلما لمع له في سماء الامل بارق وقامت تنتعش على ضوئه نفسه العالية المزدهجة  
بالآمال والآلام ، وقفت المقادير بينه وبين ما يريد ، وجذبه غثار الحظ ونكد الطالع  
فأقصاه عن آماله ، وفي ذلك يقول :

لكنني غير مجدود وما فتئت يدُ المقادير تقصيني عن الأرب  
وقد غدوتُ وآمالى مطرحةٌ وفي أموري ما للضب في الذنب

(٣) غربته في السودان وبُعده عن أهله وأصحابه بمصر وإرغامه وهو الأبي  
على العيش في ارض نائية يشتكى من حرها وعذابها ما يشتكيه من معاشريه ومن  
رؤسائه وعنتهم وعدم تقديرهم لمواهبه . ولعل أوضح صورة لما كان يعانيه شاعرنا في  
غربته هي التي اشتملت عليها هذه الأبيات الثلاثة:

نزحتُ عن الديار أروم رزقي وأضربُ في المهامه والتخوم  
وما غادرتُ في السودان قفراً ولم أصبغ بتربته أديمي  
وها أنا بين أنياب المنايا وتحت برائن الخطب الجيم

يبد أن هذه المرحلة من عمره كما قدمنا في غير هذا الموضع هي أخصب حياته  
بهذا النوع من الشعر ، ولا عجب فإن له في هذا الباب رسائل خالدة وقصائد  
رائعة جرت مع النيل الى مصر تحمل الى أصدقائه وأخلائه بها ما يعانيه صاحبهم في  
هذا البلد النازح من الأمي والعذاب.

(٤) إخفاقه في الوصول الى الخديوى ، وما كان لنفس مهما منحها الله من الصبر  
أن تحتمل أكثر من عشرين عاماً ترسل فيها المدحة تلو المدحة ولا تدع فرصة تمر  
دون أن تتقدم اليه فيها بمنظومة بديعة . ولا تزال هذه القصائد الغراء حلية  
ديوانه الى اليوم .

ومع ذلك فانه لم ينل من نفس عباس اكثر مما ينال الحديث من نفس سامعه .  
وبينما كان شوقي يتسابق الذهب والفضة في المشول بين يديه ، ويعيش بشعره  
بين عطف المليك وعنايته ، ويتقلب بفضل بين احضان الترف والنعيم ، كان حافظ  
يصطلي بنار العدم والمسغبة مع ضعف البون ما بين الشاعرين .  
واذا كان شوقي يقول في عيد مولاه :

مولائى عيدك عيد الناس كلهم وأنت جامعة الاجناس والملل  
ان الملوك على الكرسيّ مربعا وانت تجلس فى الاسماع والمقل  
فما قصر شاعرنا يوم قال فى نفس العيد :

طُفُّ بالأريكة ذات العز والشان واقض المناسك عن قاص وعن دان  
يا عيد ليت الذى أولاك نعمته بقرب صاحب مصر كان أولانى  
صفتُ القريض فما غادرت لؤلؤة فى تاج كسرى ولا فى عقد بوران  
وفىها يقول :

اليوم أنشدتم شعراً يعيد لهم عهد النواصي أو أيام حسان  
أزف فيه الى العباس غانية عفيفة الخدر من آيات عدنان  
أعليت بالعدل ملكاً أنت حارسه فأصبحت أرضه تُشرى بميزان  
جرى بها الخصب حتى أنبتت ذهباً فليت لى فى ثراها ( نصف فدان ) !

وما أجمل هذا البيت وما أخف دمايته على النفس لولا ما فيه من إيماء خفى الى  
فقر الشاعر وحرمانه .

بل ما نظن شوقى قد استطاع مهما أجاد فى مدح مولاه ان يزيد على ما قاله  
حافظ فى تهنته بالحج :

مشت كعبة الدنيا إلى كعبة الهدى يفيض جلالُ الملك والدين منهما  
ولو أننى خُيرت لاخترت أن أرى لعبك وحدى حادياً مترنماً  
حلت بأكناف الجزيرة طابراً فأنصرت وادبها وكنت لها سما  
وأشرقَت فى بطحاء مكة زائراً فبات عليك النيلُ يحسد زمزما

وكانت تلجُ هذه المدائح التى فنى فيها صاحبها أذن الخديوى وتخرج من الثانية  
من غير أن تصل إلى فؤاده !

لهذا كان طبيعياً أن يزداد ألم حافظ وبؤسه، وأن يداخله من الهموم والحسرات  
ما يداخل صاحب السلعة الجيدة إذا صدف عنها الراغبون .

ونحيل الى أن حافظاً مع ما كان متمتعاً به من عطف كثير من عظماء مصر كالرحوم

حشمت باشا والامستاذ الإمام فانه كان ينظر الى المليك بعين خاصة ويرى أن رضاه منتهى الآمال وفي عطفه وولائه تمام السعادة — فكان يحاول الوصول اليه عن طريق شعره ، ويطرد اليأس عن نفسه ، معتقداً بأنه لا بد واصل الى ما يريد مادام له فم ناطق ولمدوحه أذن سامعة . وكان حيناً يفخر بمدائحهم ويدعى أنه أتى فيها بما يعجز عن الاتيان به سواه فيقول :

كم رام شأوى فلم يدرك سوى صدفي      ساحت في لفظ ووزان  
عابوا سكوتي ، ولولاه لما نطقوا      ولا جرت خيلهم شوطاً بميدان  
واليوم أنشدتم شعراً يعيد لهم      عهد النواصي أو أيام حسان  
ويقول في موضع آخر :

ولوشئت أذهلت النجوم عن الثرى      وعطلت أفلاكاً بهن تدور  
وأشعلت جلد الليل منى بزفرة      غرامية منها الشرار يطير  
وأحياناً يعترف بالسبق لشوقي في مدح مولاه ويقر له بالفضل والابداع فيقول :  
لم أخش من أحد في الشعر يسبقني      الا فتى ما له في سبق الاله  
ذاك الذي حكمت فينا يراعته      وأكرم الله والعباس مشواه

وكأنى به وقد ثبت في روعه أن شوقي قد احتل بشعره من نفس سيده مكاناً لا يسمح لشاعر آخر أن ينازعه فيه ، فطفق يستندى رضاه ويختلس عطفه بايهامه أن مدائحهم كمدائح صاحبه في لفظها ومعناها ليستلفت نظره ويسترعى انتباهه، وفي ذلك يقول :

الى سدة العباس وجهت مدحتي      بتهنئة شوقية النسيج معطار  
كما يقول في موضع آخر :

معانٍ وألفاظ كما شاء أحمد      طوت جزل بشار ورقة مهبّار  
وكثيراً ما كان يغلب عليه اليأس ويعترف بعجزه عن مدانة شوقي كما يعترف بأنه أقل من أن يصل بشعره الى الخديوي فيقول :

لم يُبق أحمد من قول أحاوله      في مدح ذاتك فاعذرنى ولا تعب  
فلمست ممن سمعت بالشعر همته      الى الملوك ، ولا ذاك الفتى العربي

وينتقل شعره الى مدح ( ادوارد ) و ( فيكتوريا ) و ( هوجو ) و ( عبد الحميد ) .  
 طرق حافظ في سبيل غايته كل هذه السبل على ما رأيت وعاد منها كلها خائباً  
 غول وجهه ناحية اخرى وابتدأ يمدح شوقي نفسه ويطرى شعره علّه يذكره يوماً  
 بخير عند مولاه ، وكم كان في هذه الامنية واهماً . واستمع اليه حين يقول في  
 تهنئة الخديوى :

شوقى نسبتَ فما ملكتُ مدامعى	من أن يسيل بها النعيبُ الشيق
أعجزتَ أطواقَ البيانِ بمدحِهِ	سجدَ البيانُ لربها والمنطق
لم تتركْ (١) لى فى المدائح فضلة	يجرى بها قللى الضعيف ويلحق
نفسٌ على شوقٍ لمدح أميرها	وبراعى بين الأنامل أشوق
ماذا أقول وإنما فى مدحه	بحران بات كلاهما يتدفق ؟
العجز أقعدنى وان عزائى	لولا كما فوق السماء تحلق ا

وهل تظن ان شوقى قد مدح في حياته أو أبْن في مماته بأجل من هذه الأبيات  
 التالية التى كلل بها حافظ جبينه والتى تلمس فيها الحب والإخلاص والاعتراف  
 بفضل ؟ واليك هذه الأبيات التى تسيل رقة وعذوبة :

يا شاعرَ الشرقِ اتَّعدْ	ماذا تحاول بعد ذاك
هذى النجوم نظمتها	دررَ القريض وما كفاك
والبدْرُ قد علمته	أدبَ المشول اذا رآك
وسموت فى أفق الشعو	ر فكدت تعثر بالسماك
وحباك عباسُ المحامد	بالمواهب واصطفاك

وقلّ أن تجد مدحة خديوية له قد خلت من ذكر شوقى إمّا مادحاً له أو متوسلاً  
 به عند مولاه — أفئن أخفق حافظاً فى مسعاه بعد هذا اللأى المتواصل ، وخاب  
 فآله بعد ذلك الصبر الجميل ، أفلا يصح أن يكون هذا الإخفاق وهاته الحبيبة عاملين



قويين من عوامل برّسه ؟ أعتقد أن بعض هذا كان كافياً للقضاء على نفسه لولا أنها جبارة فسيحة الآمال .

### حسانات هزّ البؤس وسبّاه

وإخال أن أول ما يواجهني به القارئ لو لم أُنسج هذا العنوان بما يوضحه ويبين رأيي فيه هو السؤال الآتي : وهل للبؤس من حسنات ؟

وأنا أرى وأحب أن يشاركني القراء فيما أرى أن حافظاً كله ثمرة من ثمار البؤس ويدّ من أياديه الطيبة يقدرها له الأدب والمتأدبون . ولو تمثل البؤس للناس رجلاً لكان شاعرنا آخر أبنائه وأقربهم شهماً به . والذين يتصدون مثلي لدراسة حافظ يرون أن شعره — وإن شئت فقل انتاجه عامّة — يسير مع بؤسه جنباً إلى جنب ويتدرج معه في الوجود قوّة وضعفاً ويتبعه في الحياة وجوداً وعدمًا ، ويرون أنه بين يدي بؤسه كالقيثارة الطيبة بين يدي العازف كلما قسا على أوتارها المشدودة علا رنينها وارتفع أنينها .

أست تراه وهو ضابط بالمدرسة الحربية في مصر موفور العيش بين أهله وصحبه خافت الصوت لا نسمع به إلا في المناسبات — فاذا ما ذهب إلى السودان وحلّ به من العناء والعذاب ما علمت حرّكت أنامل البؤس هذه القيثارة فأزّ أنيناً عالياً سمعناه في مصر خرك عواطفنا وأيقظ من آلامنا وأشجاننا ما كان منسياً ؟ ولولا ضنّنا بحياة الشاعر وحدبنا على شخصه وإشفاقنا عليه من عبء لم يتعود حمله لأبقيناه في السودان كذبالة المصباح تضيء للناس وهي تحترق !

ولو سارت حياته ونظرت إليه بعد ذلك وقد عاد من السودان واستقال من عمله وقبع في كسريته لا تصل يده إلى قوته الأبعد لأيّ وعناء لرأيت كيف أوجد البؤس أمامه أكثر من باب ، وعلمه الاحتيايل بطرقها ، والتدرع بالصبر والثبات وعدم اليأس مادام شاعراً ، والشعر مفتاح القلوب . وكان حيناً يمدح العظماء ويرثي موتاهم ، وأحياناً يغشى المجالس والأندية بشعره في مختلف الشئون حتى يبلغ رسالته ويشعر الناس به ، لعلمهم يخرجونه من ظلمات البؤس إلى نور السعادة والهناء .

وبعد ادركنا غايته المادية أمسك هذا البلبل الصّدّاح عن التغريد وافتقدت الآذان

صوته عندما وُظف بدار الكتب في العهد الأخير براتب لم يكن في حسبانهِ يوماً ما ، ومكث أكثر من سبع سنوات دفيناً في منصبه لا يحس بوجوده الا من اتصل به ! وما إن خرج من الدار محالاً الى المعاش حتى انطلق كما ينطلق العصفور السجين وعاود الغناء والتغريد ، فأسمعنا في السياسة ونقد الانجليز مقطوعات جريئة لا عيب فيها سوى أنها كانت قصيرة العمر تحمل معها نذر فنائهِ ، لهذا كله لا نرى بدعاً ولا حرجاً في أن نقول - وحق ما نقول - أن حافظاً لو لم يكن بألساً لما كان شاعراً ، وانه مدينٌ الى البؤس بهذه الشهرة الواسعة ، ولولاه لما تسنى له أن يتقدم الى الأدب بهذه الصورة الباكية التي تذيب الافئدة وتستدرّ عصى الدموع .

وقد قدمنا لك آنفاً أنه لم يدع سبيلاً يظن أنه يوصله الى الخديوى الا سلكه وكان يخفق . وكان في كل مرة يخفق فيها تنفتح أمامه أبواب المعاني ويسكدح فكره في اختراع ألفاظ وطرق جديدة في التعبير فيتنوع بذلك اسلوبه وترقى أخيلته وتتجدد معانيه ، وفي ذلك كله نموٌّ في فكره وأثرٌ في أدبه لا يقل عن أثر تقليده لشوقي في مدح الدولة العثمانية وإطراء الخلافة يوم كانت ثم رثائها حين دالت ، وترسم خطاه فيما كان ينظم فيه من أغراض . ولم يعرف عنه أنه اقتدى بشوقي في غير هذه الناحية ، ولعله كان يعتقد أنها هي الطريق الذي ركه شوقي الى مجده والسلم الذي صعد عليه .

أما سياآت هذا البؤس : فحسبك منها انها خلقت من حافظ شاعراً قانعاً متواضعاً مستهيناً بنفسه وبمكائنه بين قومه ، وما كان من آثار ذلك ما نراه في شعره من خضوع واحساس بالضعفة ، ولولا هذا لما استباح لنفسه أن يقول :

ولست ممن ممت بالشعر همتُهُ الى الملوك ولا ذالا للفتى العربي

وكان من نتائج هذا البؤس الذي يلازمه ما نراه من اسرافه في مدح زميل له كشوقي ، فقد أغرق في ذلك وأتى بما يعاب . ونحن اذا تسامحنا معه وقبلنا منه قوله في استقباله :

هذا امرؤ قد جاء قبل أوانه إن لم يكن قد جاد قبل أوانه

مع ما بينهما من قرب المسافة وضعف البون كما أسلفنا ، فإكنا لتقبل منه بحال أن يرضى بالدون أو نستسيغ منه أن يصف نفسه بالضعفة والصغار ويسجل عليها

العجز والتقصير فيقول في رثاء (تولستوى) من قصيدة إن لم تكن أحسن من شوقية صاحبه فما هي بأقل منها :

رثاءك أمير الشعر في الشرق وانبرى  
لمدحك من كتاب مصر كبير  
ولست أبالي حين أرثيك بعده  
إذا قيل عني قد رثاه صغير  
بل انى لأستنكر على رجل كحافظ يقول له الشاعر الكبير أحمد محرم :

أمير الشعر والشعراء سمعاً  
مقالة ذى محافظة صدوق  
لأنت المرء يشأى طالبه  
فليس طلاب شأوك غير موقا  
ثم يأتي هو بعد أعوام من ذلك التاريخ وقبل أن تُنسى تلك المدحة العظيمة فيقول لشوقي في مهرجانه :

أمير القوافي قد أنيت مباعاً  
وهذى وفود الشرق قد بايعت معي  
ولا خلافة هناك ولا ملك ولا بيعه  
وكانت لذلك نتيجة عكسية من جانب شوقي، فقد أهمل صاحبه ونسى وجوده ولم يعترف له بموهبة ولا فضل، وهكذا كان شوقي يحترم من يخافه ويتجاهل من يأمنه ولو كان أفضل الناس جميعاً .

وثمة أثر كان اسوأ لهذا البؤس ونتيجة بغضه لا تقل عن سابقته وتلك هي اتخاذ الشعر وسيلة للاستجداء واعتباره سائلاً لغايات النفس وشهواتها، وهذا لعمري خطر دائم على الشعر والشعراء، يحط من اقدارهم ويسوي بينهم وبين المتسولين الذين يسألون الناس في الطرقات الحافاً — وواجب على الكتاب والشعراء في كل زمان ومكان ان يستهجنوا هذا النوع المهين من الشعر ويطاردوا قائله — وكان ذلك على ما فيه من ضعة ومهانة شائعاً في شعر حافظ يلتصق به مدائحهم ويذيل به رسائله إن نظماً وإن نثراً .

وأكبر ظني انه لولا البؤس الذي أقصّ مضجعه وطفى على احساسه لما رضى أن ينسب إليه مثل هذا العجز الواضيع :

« أدرك فتاك فقد ضاقت به الحال »

ولما غفرنا له بأي حال قوله لمدوحه في قصيدة هي نهضة بعرض :

وكنْ لعلِّي بهجة العرسِ انه بعزك في الافراح تمت مزاياه  
ولا تنس من أمسى يقلب طرفه فلم تر الا انت في الناس عيناه

وانت ترى ان البتين مع ما فيهما من تناقض واختلاف فقد شوه الثاني منها جمال  
الأول ومسح بهجته ورواه . وكان من سيئات هذا البؤس كذلك أن اتخذ شعر  
حافظ هذه الناحية الهادئة المتواضعة واصطبغ بهذا اللون القاتم فجاء خالياً من  
حماسة البارودي وفخره ومن زهو شوقي وكبريائه .

ومن يدري كيف كان يؤول مستقبل حافظ لو أتيج له من بلهنية العيش وسعادة  
الحياة ما أتيج لصاحبه ولوحظ بذلك العناية التي لوحظ بها زميله .

ولقد كان حافظ يفتنى في بؤسه وبرى أنه من القبن أن يشترك معه غيره فيه .  
لهذا آثر أن يحتمله وحده ، فلم يتخذ له صاحبة ولا ولداً ، ومات ولم يعقب سوى  
كتابين في النثر هما كما يقول عنهما خير ما أخرج للناس في هذا العصر ، ودويوانه  
المطبوع في ثلاثة أجزاء وهو حري بالدراسة والتحليل — يقول شوقي رحمه  
الله في تقريره :

لا تسألوا الأصداف عما أودعت في هذه الأوراق كلَّ عجب  
تلك صفحة من تاريخ حافظ ، إن لم تكن قد استوعبت حياته فقد أضاعت  
أظم ناحية فيها ، وكفى ما

طلبه محمد عبده

## المرأة في شعر حافظ

لا تُعرف لأمة نهضة شاملة اذا حُرمت المرأة نصيبها من التأثير في المجتمع .  
ومقياس منزلة المرأة الإشادة بها وعلان فضلها ونقودها . وقد تكون تلك الإشادة  
وذلك الاعلان بصور شتى : كالدفاع عن حقوقها ، وكالتغني بما آثرها في بناء هيكل  
الأمة ، وكالتغزل بجمالها . فأين شعر حافظ من كل هذا ؟

لقد كان حافظ من مدرسة قاسم أمين المنتسبة الى بيئة الامام محمد عبده وهي

بيئة حرة مصلحة ، وحسبك من قاصم كتاباه عن « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة »  
ولذلك جاء شعر حافظ من أصوات الإصلاح العالية للمرأة في غير تردد وإن كان  
في اعتدال وتذبذب وحذر . أليس هو القائل مخاطباً قاسماً :

أَقَاسِمُ إِنِّ الْقَوْمَ مَاتَ قُلُوبُهُمْ      ولم يفقهوا في السفر ما أنت كاتبته  
إلى اليوم لم يُرْفَعْ حِجَابُ ضَالَهُمْ      فمن ذا تناديه ومن ذا تعابته ؟  
فلو أن شخصاً قام يدعو رجالهم      لو ضَعَّ نِقَابَ لاسْتَقَامَتْ رَغَائِبُهُ  
ولو خطرت في مصر حواءُ أمنا      يلوح حِيَاها لنا و نراقبهُ  
وفي يدها العذراء يسفر وجهها      تصافح منا من ترى وتخطبهُ  
وخلفهما موسى وعيسى وأحمدُ      وجيشٌ من الاملاك ماجت كواكبهُ  
وقالوا لنا : رَفَعُ النِقَابِ مُحَلِّلُ      لقلنا : نعم حقٌّ ، ولكن نجانبهُ !

وفي هذه الأبيات من التهم اللاذع والسخرية بأنصار النقاب ما فيها . وقد  
لبث هؤلاء السادة مشغوفين بحوارهم ونقاشهم الى أن تولت المرأة نفسها الفصل  
بينهم ، فزعت أخيراً نقابها في غير تردد ، وفرغت من ذلك لتلتفت الى ما هو أهم —  
الى التعليم الجامعي ، وإلى استرداد حقوقها في ادارة شؤون الوطن وفي اختيار  
نواب الشعب ، ثم في الاشتراك في المستقبل بتمثيله البرلماني . وهذه الروح الطامحة  
المتوثبة مدينة الى حافظ ابراهيم كما هي مدينة الى قاسم أمين .

ولحافظ في الأمومة وفي منزلة المرأة الاجتماعية من روائع الشعر ما يجب ان  
تذكره بنات جنسى دائماً بالحمد والتقدير . أليس حافظ هو القائل :

مَنْ لِي بِتَرْبِيَةِ النِّسَاءِ فَانْهَ      في الشرق علةٌ ذلك الاخفاق  
الأمُّ مدرسةٌ اذا أعددتها      أعددت شعباً طيبَ الأعواق  
الأمُّ روضٌ إن تعهده الحيا      بالريِّ أورقُ أبما إراق  
الأمُّ أستاذُ الاساتذة الأثلي      شغلت ما أثرهم مدي الآفاق  
ليست نساؤكمو حلي وجواهرأ      خوف الضياع تصان في الأحقاق  
ليست نساؤكمو أنثاء يُقتنى      في الدور بين مخادع وطباق

ربوا النبات على الفضيلة إنها في الموقفين لمن خير وثاق  
وعليكم أن تستين نساؤكم نور الهدى وعلى الحياة الباقي

فهذه الأبيات نفثة مصلح حكيم ، ولكنه يصيح في بيئة متأخرة لا يستطيع فيها أن ينصف المرأة الأ في حقوقها الأولية . وما أظن أن الحرب أفمحت أفق حافظ ، ولو كانت فعلت لكافح عن المرأة المصرية كفاحاً أعظم ولحاول أن ينيلها من الحقوق ما نالته أختها الغربية وفي مقدمتها حق الانتخاب ، لأن المرأة المصرية الفلاحة كانت وما زالت أحصف وأبعد نظراً من الرجل الفلاح ، وهي المدبرة الحقيقية للأسرة المصرية ، فهي أولى منه باستعمال الحق الانتخابي . ولم يكن حافظ ليفوته شيء خاص بالمرأة فسجل حركتها السياسية إبان الثورة في نونيته المشهورة .

أما شعر حافظ الفني في المرأة فلا وجود له كأنما هو لم يعشق في حياته ، ومعنى هذا حرمان الأدب العربي كثيراً ثميناً من عواطف حافظ المقبورة . وقد قرأت له شيئاً من الشعر الغزلي بعضه موجه إلى المفرد المؤنث ومعظمه إلى المفرد الذكر ، وكله فيما أعتقد من الغزلي الصناعي الميت .

وأيّن هذا مما نشرته ( أبولو ) لناجي وأبي الوفا والصيرفي والشباني ولأمناهم من شعراء العاطفة ؟ وقد اعتاد بعض الشعراء مخاطبة المرأة بضمير المذكر توجيهاً بالخطاب إلى « المحبوب » المتسامي عن كل صفة ، ومن الجائز أن يُحتج على بأن غزل المذكر في شعر حافظ هو غزل طبيعي في المرأة ، وقد تفرّست فيه تكراراً فلم ألمح ذلك فيه ، وإنما كانت الصناعة تطل من كل بيت من أبياته في حين أن أبيات ناجي التالية المذكورة الضمير نامة عن العاطفة الجياشة الموجهة إلى المرأة ، وهي في قصيدته « المنسى » :

متى يرقّ الحظّ يا قاسي	ويلتقي المنسى والناسي ؟
متى ؟ ! وهل من حيلة في متى	وفي خيالات وأحداس ؟
هدّ قراري جرّئها في دمي	وهمّسها في كركر أنفاسي ؟
وأنت مثل النجم في المنتأى	وفي السنّ المخاطف كالناس
يرنو له الناس ويبغونه	وما يُبالي النجم بالناس ؟

وانتَ كَامِسُ الحُسْنِ لَكُنَّا      مثلُ حَبَابِ حَامٍ بالكاسِ  
 طفا ١ وقد قَبَّلَ أنوارَها      ورفَّ مثل الطائرِ الحامِي  
 وذاب أو جفَّ على نورها      كما يذوب الطَّلُّ بالأسْرِ ١

وأمَّا أبوشادي في أغانيه ودواوينه فوَكَّلَ بعبادة المرأة ، ومثله رامى في غزلياته ( ولا أقول في أدواره العامية فهي ليست موضوع بحث ) ، فكيف لم تؤثر المرأة في شخصية حافظ هذا التأثير ؟ ولماذا لم تؤثر كذلك في نفسية شوقي ؟ هذه خسارة فنية لاشك فيها ، ولكن مهما يكن من شيء فالمرأةُ مدينة الى شعر حافظ بجميلٍ عظيمٍ .

زينب سليم



## تصويبات

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠٣٣	١١	قال هذا	قال هذا له
١٠٣٣	١٢	وَقَوْلاً لِلأَرْضِ	بَثَّ فِي الأَرْضِ
١١٣٧	٥	ظَلَّ	ضَلَّ
١١٩٥	٢١	والانتباهاً	والانتباه
١٢٠٠	١٥	قاصرة	مقصورة
١٢٠٠	٢٩	القارى	القارىء
١٢٠٢	١٠	الثانى	الثانية
١٢٠٣	١٢	يفيد	يفسد
١٢٦٠	٨	النظ	النظر
١٢٦١	٢١	تأثير	تأثير
١٢٦٣	١٨	تأثيره	تأثيره
١٢٧٥	٣	قدَّ	مدَّ
١٣٠٥	٣	تلتظى	تلتظى
١٣٣١	١٥	وزى	وزى
١٣٧٢	٢١	ايران	ايراني
١٣٨٧	٤	عدائى	عدائى
١٤٠١	١٦	العزى	العزى
١٤٠٢	٧	يانفى	يانفى

